تحديث التفكير الديني

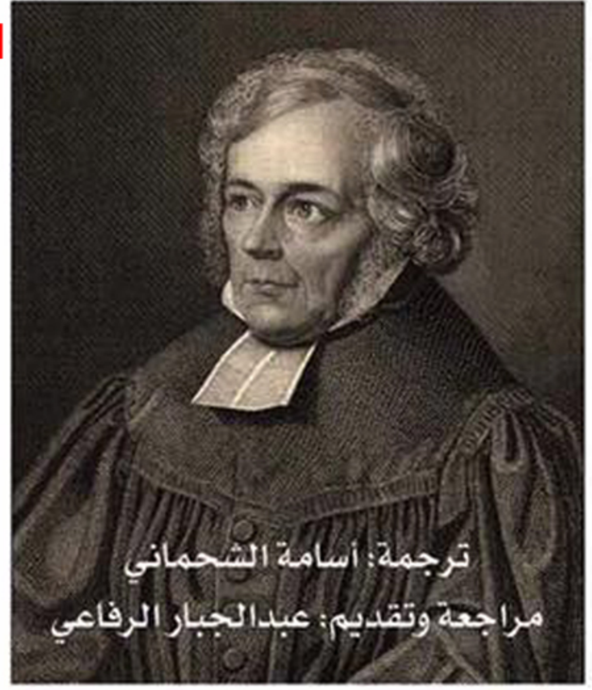
فريدريك شلايرماخر



عن الدين

خطابات لمحتقريه من المثقفين





ترجمة: أسامة الشحماني

مراجعة وتقديم: عبدالجبار الرفاعي





فريدريك شلايرماخر

عن الدين

خطابات لمحتقريه من المثقّفين



الكتاب: عن الدين، خطابات لمحتقريه من المثقّفين
تأليف: فريدريك شلايرماخر
ترجمه عن الألمانية: أسامة الشحماني
مراجعة وتقديم: عبدالجبار الرفاعي
عدد الصفحات: 208 صفحة
الترقيم الدولي: 978-9953-582-84-9
الطبعة الأولى: 2017

العنوان الأصلي للكتاب:
ÜBER DIE RELIGION
Reden An Die Gebildeten Unter Ihren Verächtern.
Friedrich Daniel Schleiermacher. Berlin 1821

الناشر:



بغداد - شارع المتنبي
email: qahtanee@gmail.com
www.rifae.com

دار التنوير للطباعة والنشر ©.

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم - الطابق الأول
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة - جاردن سيتي - 2 شارع فؤاد سراج الدين (السراي الكبرى) - الدور الأرضي - شقة رقم 2.
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com



فريدريك شلايرماخر

عن الدين

خطابات لمحتقريه من المثقّفين

ترجمه عن الألمانية

أسامة الشحماني

مراجعة وتقديم

عبدالجبار الرفاعي





تحديث التفكير الديني

سلسلة بإشراف:

د. عبدالجبار الرفاعي



تقديم

عبدالجبار الرفاعي

عاش شلاير ماخر«1768–1834» عصرَ الأسئلةِ الفلسفية واللاهوتية الكبرى، فقد تعرّضتْ الأدلةُ الفلسفيةُ على وجودِ الله إلى نقدٍ تقويضي في فلسفة ديفيد هيوم وإيمانويل كانط وغيرِهما من فلاسفةِ القرنَين الثامن عشر والتاسع عشر، وكان النقدُ الذي تعرّض له الكتابُ المقدّس شديداً، بعد تعارُضِ بعضِ ما جاء فيه مع الاكتشافات والنظريات العلمية الحديثة. وظهرتْ آراءُ لمفكرين ترى أن منشأَ الحاجة البشرية للدين عواملُ معروفةٌ بوسع الإنسان التغلب عليها، ومن ثمّ الاستغناء عن الدين.

وأعلت الرُّومانْسِيَّةُ من مكانةِ المشاعر والعواطف والخيال في الأدب والفن، ولم تعبأْ بالعقل، ولم تكترثْ بالتقنيات والمعايير الكلاسيكية، ودعتْ للعودةِ إلى الطبيعة والانغمارِ فيها واتخاذِها موضوعاً للكتابة. وشدّدتْ على الانهمامِ بالذات، والبوح بما يختبئ



في أعماقها من ألم وأمل، وحزن وفرح، وكآبة ومسرة. ولم تجدْ حاجةً لالتزام الأديب بالمعايير الأخلاقية، فليس بالضرورة أن يكون الأديبُ أخلاقياً. وكانتْ حياةُ الإنسان الأوروبي في ذلك الزمان قلقةً كئيبةً حزينة، إثر شدّة النزاعات، وما تركته الثورةُ الفرنسية من آثار وتداعيات.

لم يكن للدين أمامَ هذه الموجاتِ الحادّةِ من النقد، وضراوةِ الألم الذي يجتاحُ حياة الفرد والجماعة، أن يتمسكَ بمحاجاته الموروثة، ويكرّرَ اللاهوتُ دفاعاتِه المعروفةَ، بل كانت هناك ضروراتٌ تفرض على الدين أنْ يتحدثَ لغةً جديدة، يتخطى فيها منطقَ جداليات عقله اللاهوتي الذي تجاوزه العقلُ الفلسفي، ويعيدَ النظرَ في تفسير مسلّمات كتابه المقدّس التي زلزل شيئاً منها العلمُ الحديث.

في هذا الفضاء الروحي والفكري قدّم شلاير ماخر فَهمَه للدين، وهو الخبيرُ بالفَهم الذي كان أولَ من فتحَ الطريقَ لتدشين مسارٍ جديدٍ للهرمنيوطيقا بوصفها «فهماً للفهم».

لم يتمسكْ شلاير ماخر في فهم الدين بالعقل لنقض أدلّة العقل، ولم يتمسكْ بالعلم لنقض نظريات العلم، وإنما اجترح طريقاً يتحدّث لغةً تحاكي لغةَ الشعراء، وتستوحي مخيّلةَ الفنانين، لاكتشافِ جوهر الدين وتفسيرِ وظيفتِه. كان يهمُّه التوغلُ إلى مديات عميقة في الذات البشرية، وتحليلُ طبيعة الحزن والألم واللامعنى الذي يُشقيها، وما الذي يمكن أنْ يقدّمه الدينُ لها. كان يبحث عن ذلك الدين الذي يشفي الروحَ من أمراضها، وليس ذلك الدين الذي يُمرِض الروح.

في هذا الفضاء العقلي والروحي، الذي تبلبلَ فيه تفكيرُ النخبة



بشكوك مختلفة واستفهامات حائرة، ألّفَ شلاير ماخر: «عن الدين: خطابات لمحتقريه من المثقفين»، وأصدره عام 1799، وهو كما يشي عنوانُه كتابٌ موجّه للمثقفين في عصره، ممن يراهم يحتقرون الدين. وترسَّمَ فيه نهجاً خاصاً، تتناغم فيه رؤيا شاعريةٌ للدين ببيانات مكثّفة صاغها بأسلوبه المتدفق الغزير، وصنّفها في خمسة خطابات تتناول خمسةَ موضوعات، تكلّم فيها بلغة تجمع بين الذوق والكَشْف والحدْس والتأمّل. لغة تحضر فيها صورةُ الذات وتتجلى بصيرتُها الروحية أكثر من أيّ شيء آخر.

كتاب شلاير ماخر كتاب إيماني، والكتب من هذا النوع عادة ما يحضر فيها البيانُ ويشحُّ فيها البرهان. إنه كتاب يستمع اليه القلبُ قبل أنْ تصغي إليه الأذن، يخاطب المشاعرَ قبل أنْ يحاججَ العقل. يطغى على مساحات واسعة منه أسلوبٌ وجدانيٌّ، وكأنّه قصائد منثورة تلوّنها روحانيةٌ متوهّجة. بل كأنّه نصوصٌ مقدّسة، مشبوبةٌ بالعاطفةِ وتأجيجِ المشاعر، إذ يتحسَّسُ مَنْ يستمعُ إليها صوتَ الله يتردّد في ألحان عباراتها كأوتار قيثارة تعزفُ عليها أناملُ عازفٍ محترف. ومثلُ هذا اللون من الكتابة لا ينشغل بالأدلة، بل ينشد إيقاظَ الضمير، وإثارةَ العواطف.

هذا الكتابُ تعبيرٌ عن خبرة روح تحاكي خبرةَ الأرواح الحرة المشبعة بمكاشفات صوفية، إنه كلوحة يرتسم فيها سحرُ كلمات عميقة، المُضمَرُ فيها أعمقُ دلالةً من الظاهر، والخفيُّ فيها أعمقُ غوايةً من الجليّ، والجذوةُ فيها أعمقُ حرارةً من اللّهب. إيقاعُها يتناغم فيه ما يبوحُ به قلبُ مؤمن، وما يرسمه ضميرُ عاشق، وما ينشده إنسانٌ متيّمٌ بالحبّ والخير والجمال.



إنه كتابٌ ليس لأولئك القرّاء الذين لا يقرؤون إلّا ما يقولُه العقلُ المحْض والعلم، وإنما هو لنمطٍ خاصّ من القرّاء الذين تطربهم مثلُ هذه النصوص، إنهم الجائعةُ أرواحُهم إلى ما يشبعها، والظامئةُ قلوبُهم إلى ما يرويها، والتوّاقةُ مشاعرُهم إلى ما يشحذها.

الكتاب الحقيقي هو ما يبرَعُ في كتابةِ تاريخِه الخاص، الذي يخترق فيه قيودَ الزمان، ويتخطى فيه حدودَ البيئة، ويتغلب على مضايق المكان. فيمسي كتابًا عالميًا يخاطبنا اليومَ مثلما خاطب مواطنيه في عصره وبيئته الدينية والثقافية أمس. وحسب كتاب شلاير ماخر أنّ كاتبَه كان رائياً لا يروي روايةَ الفلسفة واللاهوت والعلم لزمانه، بل كان يروي سيرةَ القلب، يروي رؤيةَ البصيرة، وأشواقَ الروح. وحسبه أنه كان تجلياً للحياة الروحية لراءٍ يتبصّر خبراتِ الروح، فيصهرها بما يتذوقه القلب، ويلوّنها بما يُلهب المشاعر، ويسكب كل ذلك على الورق.

إن شلاير ماخر، وإنْ كتب كتابَه هذا بمشاعر الشاعر، لكنّه يعترف بموازاة تلك المشاعر بشيء للعقل. فهو في الوقت الذي يشدّد فيه على استغناء الدين عن العقل والمنطق، إلا انه يشير إلى أنّ الدينَ لا يضادّ العقل، نستمع اليه يقول: «فالدين ليس بحاجة للاستدلالات المنطقية، ولكنه في الوقت ذاته لا يدعو لإقصاء المضامين العقلية» .

يتلخص جوهرُ الدين وتتجلّى حقيقةُ التدين عند شلاير ماخر بالتجربة الدينية. وكأن الدينَ بمثابة المحار الذي يكتنز ما هو لؤلؤ داخلَ أصدافه، أو بمثابة الجوز الذي يحتوي ما هو لبّ داخل قشوره. فكلُّ «الأسرار المقدسة» مودعةٌ هناك في ذلك اللبّ والجوهر، وكلُّ الشعائر والطقوس توقظ تلك «البذرةَ النائمةَ» وتستنهض الروحَ. وكلُّ



ما في الدين، ما خلا الجوهر، شيءٌ ليس مطلوباً إلّا لكونه وسيلةً لتلك الحقيقة الباطنية التي تنغمس في الأعماق. يشرح ذلك بقوله: «إنني كإنسان عادي أحدّثكم عن الأسرار المقدَّسة والشيَع الغامضة للبشرية، من وجهة نظري، عن منطوق يكشف ذلك المتواري الذي أغراني للبحث عنه عندما كنت في عنفوان الشباب، عن تلك التجربة الباطنية والقوة الكامنة في أعماقي، التي تشعرني بوجودي منذ أن بدأت بتحسّس مفاصل الحياة وقيمة الفكر، عمَّا سيبقى مقامه هو الأعلى في داخلي إلى الأبد، على اختلاف طرائق تبدّل الزمن وعوامل حراك الإنسانية. إنَّ حديثي في هذا المقام لم ينبعث من قرارات عقلانية، ولا ينبع من شعور بالأمل أو الخوف، إلا أنَّه مع ذلك غالباً ما يحيط بالظواهر ويمنح الأشياء نسَقاً نسبياً متوخياً ما قد يؤول إليه من غرَض عقليٍّ نهائيّ، وهو حديث لم يتخذ المكاشفة المعتبرة لكيان الإنسان منهجاً بِناءً على سبب اعتباطي أو عرضي، إنَّه ضرورة داخلية تفرضها عليّ طبيعتي بشكل لا يقاوَم، بل إنَّه تسخيرٌ إلهيٌّ يمكنني عبره أن أُحدّد مكاني في هذا الكون، ويجعلني المخلوق الذي هو أنا».

لا أريد أنْ أسرقَ متعةَ اكتشاف القارئ فأتحدّث له عمّا يكتنزه الكتاب، وأسهب في عرض مضامينه، لكن أودّ أن أشيرَ إلى أن قرّاءَ العربية عرفوا شلاير ماخر بوصفه المؤسسَ للهرمنيوطيقا بمعنى: فن الفهم، أو تقنية الفهم في العصر الحديث، ولم يدرسْ الباحثون رأيَه في هذا الكتاب وغيرِه من أعماله اللاحقة، الذي يغوص عبره في تحليل التجربة الدينية ويكشف عن أنها جوهرُ الدين.

يدعو شلاير ماخر إلى فهمِ الدين داخلَ الدين، لأنه «في الدين وحده لا في سواه؛ ينظر المعلم المحترف والتلميذ المبتدئ إلى



أفق واحد، لأن فهم الدين لا يقع خارجه». ويعلن عن تفسيره للدين «بوصفه حاجة وجودية»، والذي هو الخيط الناظم لكتابه هذا. إذ يقول: «إن ما يهمني هو تكريس فهم الدين بوصفه حاجة وجودية تحمل الدعوة للنظر إلى الأبدية، وكل رؤيا للأبدية توجد مستقلة ومعتمدة على ذاتها، وهي ليست بحاجة لسواها لإكمالها، لأنها جزء من سواها وكله في آن».

يرتقي الدينُ لدى شلاير ماخر إلى مرتبة سامية في الحياة، عندما يصير مصدراً أساسياً للطاقة العظمى في الحياة، بوصفه تجربةً وجودية، تجعله قادراً على التعبير عن كلّ شيء، لذلك يتحدث عن الكثير من الخصائص والصفات التي يتميز بها، ويعلن عمّا يَعِدُ به من المهام، إذ يصفه بقوله: «لقد ثبت لديّ أنّ للدين أهمية لا تتجلى على مستوى التفاعل العملي في معترك الحياة وحسب، وإنّما في مضمار التفاعل الفكري، لأنّه تجربة منوطة بالوجود، ينفرد برؤى ونواميس قادرة على التعبير والإخبار عن كلّ شيء. الدين طاقة أبدية غير قابلة للنضوب، دينامية وحراك تتخلل الحميمية طبيعتها، وهو أقوى من أن يضمر تحت تأثير ما يجابه به من عنف أو تسطيح، لأنّه لصيق فطرة الإنسان، التي لا يعني احتجابها، تحت أي ظرف كان، انعدامها. يمنحنا الدين قدرة على أن نرى الآخر كرؤيتنا لذواتنا، وأن نتعاطى مع شرعية وجودنا عبر ما نضفيه على الآخر من شرعية للوجود».

يهتم شلاير ماخر باكتشاف الصلة العضوية بين الفن والدين، فكلٌّ منهما يشبع توقَ الروح للمعنى، ويؤمّن حاجتَها للجمال. ويعلن أنَّ الدينَ لا يخاف المحبة، فغايةُ الدين تعني: «أن نحب روح العالَم، ونبتهج لمشاهدة صنيعها، وليس هناك أي خوف من المحبة، فالدين



لا يختلف في جماله وحُسن وجوده عن سواه من قيم الجمال التي تنبثّ في ثنايا العالم، كيف لا وهو الفيض الذي يغمر الإنسان كرامة ومحبة منذ نعومة أظفاره».

وكما يعتقد أن محبةَ روح العالم تنبع من الدين، كذلك يعتقد شلاير ماخر بلغة لا تخلو من الجزم أن محبةَ الآخر لا تتحقق إلّا عبر الدين. «الدين هو اللبنة الأساسية لتشييد محبة الآخر، ثمَّ إدراك القيمة العليا لتلك المحبّة كرابط جماعي لا غنى للفرد عنه؛ لأنَّه الوحيد الذي لا يفتقر بذاته إلى إمكانية تحديد مصير البشرية والاقتراب من مفهوم الإنسانية مادة للدين».

إن مهمةَ الدين هي مناهضةُ الاستبداد الذي يفرض فهمَه للحقيقة، ويرسم طريقَه الخاص للوصول إليها، ويحظر أيَّ شكل للفهم لا يتطابق معها. يذهب شلاير ماخر إلى أنَّ أخطرَ ما يهدّد الدينَ هو احتكارُ الفهم وانحصارُه في فهم واحد، لأن «أهم ما في الدين هو تعدديته في الفهم وكراهيته للاستبداد، ذلك الذي يجمّد كل ما لا يتفق معه، يحجّره ظناً بأنه سيحافظ على وجوده. التعدّد هو جوهر الدين وكنهه، وعبره تتحقّق فكرة الخلاص في المسيحية، ويصبح ما يجثم على صدرها من بؤس قابلاً للزوال. لا يوجد شيء أكثر مناقضة للدين من ذلك المقوّض لقابليته لتعدد أشكال فهمه».

ورغم كشف شلاير ماخر لتعدّدية فهم الدين، التي تعني تعدّدَ تعبيراته وتمثّلاته البشرية في الحياة، غير أنه يتحدث عن الدين في الكثير من فقرات كتابه هذا من دون نقد لبعض أنواع فهمه وتمثّلاته البشرية، ومن دون تحديد دقيق لتعريفه هو للدين، وما يعنيه كلٌّ من الإيمان والتديّن لديه.



يسوق شلاير ماخر كلمةَ الدين بتعميم تلتقي فيه كلُّ أشكال المديح والتبجيل، ويوكل إليه إنجازَ مختلف المهام السامية، حتى يصبح الدينُ مستودعاً لكلّ الأخلاق الفاضلة، وكلّ ما من شأنه التسامي بمكانة الإنسان وحماية حقوقه وحرياته.

يضع شلاير ماخر الدينَ في سياق رهانات الحياة الجديدة، ويجعله الطريقَ الأمثل للصلة العضوية بالحياة، وكأنه مثابةٌ لما هو جديد، إذ يرى أن: «الدين ليس فكرة خسرت رهانها في الحاضر ولم يتبقَ لها غير الاستحواذ على الماضي القديم بدعوى أنّه منزلها الحقيقي، وإنّما هي فكرة قادرة على الانعطاف بنفسها نحو الجديد، لأنّها لا ترتابه أو تتجنّبه. الدين هو أفضل طرق الاتصال بالحياة».

مع انه يعلن أن مفهومَه للدين إنما يختصّ بالدين الذي يتضمن اعتقاداً بإله، إذ يصرّح: (وتبعاً لوجهة نظري، وبموجب فهمي للإيمان الذي تعرفون «لا وجود للدين بغير إله»، ولا يمكن لأيِّ شيء أن يكون من دونه). وإذا كان «لا وجود للدين بغير إله» فلا وجودَ لدين بلا إنسان، ولا وجودَ لدين بلا حضور في حياة الفرد والمجتمع، ويتماهى ذلك الحضورُ بما يكون عليه كلٌّ منهما، من حيثُ ثقافتِه أو من حيث ظروفِ عيشِه المتنوعة، فحيثما يكونُ الإنسانُ يكون دينُه، وحيثما يكونُ الدينُ يكونُ الإنسان. ويعرفُ شلاير ماخر جيداً أولئك الكهنةَ الذين يرتزقون بالدين وينتهكون قِيمَه ويعبثون بمراميه السامية، ممن أشار اليهم في ثنايا كتابه.

يستعمل شلاير ماخر عباراتٍ يتداخل فيها الشعرُ المنثور بالوعظ، وكأنّه كاهنٌ بليغٌ لا يكفُّ عن صبّ عِظاتِه الحماسية على رؤوس رعيته، ولحنُ صوته يصدحُ بالثقة والصرامة، ولا يريدُ من المستمعين



إلا التسليمَ بما تقوله عِظاتُه، وهو يعلن الاستغناءَ عن حاجته للحجج العقلية، ويصرّح بأنّ الدينَ لا يحتاج الاستدلالات المنطقية.

ولا تخلو كلماتُه من توبيخ لمن يراهم مناهضين للدين من مثقفي عصره. فهو يقول مثلاً: «أيعقل أن تستمرئوا احتقار هذا الاتجاه الروحي إلى الأبد، أيمكن أن يبدو لكم كل ما هو مهمٌ للإنسان سخيفاً؟ وتأسيساً على كل ما تقدّم من نقاط لا بد لي أن أقول إنّ احتقاركم للدين هو نتاج لطبيعة خاصة بكم، وماذا عساني أن اقول أكثر من ذلك!». وحتى العنوان الشارح لكتابه هذا يستعمل فيه كلمة «محتقريه»، وكنت أتمنى أنْ يستعملَ المؤلِّفُ في عنوان كتابه عبارةَ: «خطابات لنقّاده من المثقفين»، بدلاً من: «خطابات لمحتقريه من المثقفين»، لأن كلمةَ «احتقار» تستبطن معنى الازدراء والامتهان والإهانة والتوبيخ، وتشي بمضمون لا يخلو من تسلّط، وإن كانت كلماتُ الازدراء والتسلّط مألوفةً في لغة الوعّاظ والكهنة. وهذه المعاني لا تلتقي ومعنى «مثقف»، ولا تليقُ به، فكما ينشد هو أنْ يكونَ المثقفُ أخلاقياً مهذّباً يُفترض بكتاباته أنْ تكونَ كذلك. ومعنى «مثقف» يستبطن «النقدَ» لا «الاحتقار».

كلُ فكرٍ يحملُ بصمةَ البيئة والحياةَ الدينية والثقافية والسياسية لزمانه، وربما نعذر شلاير ماخر لو وظّفنا معاييرَه في تفسير عباراته، التي لا يستقلّ فيها الفهمُ عن فضاء الأفق التاريخي للمؤلِّف، وبنيتِه السيكولوجية، وربما لو نقّبنا أعمق واكتشفنا الأسبابَ الكامنةَ وراءَ تأليف كتابه هذا، لاتضحَ لنا السببُ وراءَ تفضيله كلمةَ «احتقار» على كلمة «نقد».

لبث كتابُ: «عن الدين: خطابات لمحتقريه من المثقفين» إما



مجهولاً أو منسياً أكثر من قرنين لدى الباحثين المهتمين بالفلسفة واللاهوت والدين في دنيا العرب، ولم أعثر على دراسة عنه أو مقالة تنوّه به، وتعرّف القارئَ العربي بأهميته. وعلى الرغم من ظهور عدّة كليات ومعاهد للتعليم العالي ومراكز أبحاث ودوريات تعنى بالدراسات الدينية في بلادنا في السنوات الأخيرة، غير ان هذا الكتاب كان من أقل كتب الأديان حظاً في حضوره. مع أننا نعرف أن هناك الكثيرَ من المؤلفات الممتازة في الدين باللغات الغربية وخاصة الألمانية ما زالت مهملة، إلا ان كتاب شلاير ماخر هذا ظلّ الأكثرَ غياباً.

المؤسف أننا قلّما نجد من يهتم بالفكر الديني الغربي من الباحثين العرب ذوي التكوينِ اللغوي المتعدّد، والخبرةِ المعمَّقة بالعلوم الانسانية.كثيرون في بلادنا يتفادون الحديثَ أو الكتابةَ أو التأليفَ في الدين، وحتى الخبراء بالفلسفة والعلوم الانسانية الحديثة ينزعون لتوظيفها في قراءة الأدب والرواية والشعر وتحليل نصوص جديدة أو عتيقة، لكنهم دائماً يحذرون توظيفَها في حقل الدين ونصوصه، ويتفادون دراسةَ الدين وتمثلاته في مجتمعاتنا في سياقِ المكاسب الحديثة للفلسفة والعلوم الانسانية.

أقدّر حجمَ مغامرة اقتحام هذا الحقل، وأعرف كم هي موجعة ضريبةُ الاغتراب والنفي المتوقَعةُ من الخوضِ في مضماره، وتحرّشِ الباحث في المراجعة التقويمية لمسلّماته، وفحصِ بداهاتِه، ومساءلته لوثوقياته.

وأعلم أنّ أيّةَ محاولة لتحليل ونقد التفكير الديني وتعبيرات الدين في الحياة البشرية من شأنها أنْ تضعَ الكاتبَ في مواجهة مباشرة مع



المؤسَّسات والجماعات الدينية، ومع كلّ من ينصب نفسَه وكيلاً عن الله في الأرض، ومن يصنّف نفسَه على طائفة وَرَثة الميراث الديني.

لكني أدرك جيداً، وكما أشرتُ إلى ذلك في أكثر من مناسبة، أنّ الدينَ هو الداءُ، وأنّه، هو أيضًا، الدواءُ لهذا الضياع في وديان التيه العربي منذ عدة قرون، والذي بلغَ أوطأَ حالاتِه منذ بداية القرن الجديد، هذا القرن الذي يحقّقِ ويَعِدُ فيه العقلُ البشري بمنعطفات عُظمى على مسار النمو والتطور العلمي والتكنولوجي، فيما نَسقُطُ نحن ونتردّى في حروب طائفية مريرة تستأنف ذاكرةَ حروب قبائلنا المزمنة في الجزيرة العربية.

في هذا المخاض القاسي ليس لدينا من خيار سوى العمل على المزيد من الدراسة والبحث العلمي في حقل الدين ومعارفه والظواهر المجتمعية التي ينتجها. وتلك مهمَّتُنا العظمى التي لو عملنا عليها بجدّ واجتهاد لفتحنا الباب نحو نقاشٍ بعيد عن الأغراض، لطريق الخلاص.

نبقى مدينين في تعريب هذا الكتاب للصديق الأستاذ أسامة الشحماني، الذي أنفق الكثيرَ من الوقت والجهد في نقله من اللغة الألمانية لعصر شلاير ماخر نهاية القرن الثامن عشر. ولولا جدّيته، واصراري عليه الذي أحرجني معه وأحرجه معي، ربما يمكث هذا الكتابُ في الظلام لأَمد لا نعلمه، بعيداً عن القرّاء العرب.

قد يجد القارئُ غيرُ المحترف أن كتاباً لا يتجاوز مائتي صفحةً من السهل ترجمته، لاسيما وهو يرى العديدَ من المترجمين يُغرق الناشرين باستمرار بمؤلفات كبيرة ينقلها عن لغات أخرى بعربية



ملتبسة، لا تكاد تتلقى من كثير من عباراتها شيئاً مفهوماً. لكني كقارئ لترجمة هذا الكتاب ولترجمات أخرى، رأيتُ كيف يعاند نصُ شلاير ماخر أسامةَ، وكيف يعانده أسامةُ بالمزيد من الجلد والعزيمة، وهو يُعرّب جملَ شلاير ماخر الطويلة، وفقراتِ كتابه المتناسقة كنسيج حرير خيطي دقيق، وينضّدها كعقد مضيء، بعربية مكثفة تحاكي لغةَ المؤلّف، لذلك كان يعيدُ ترجمةَ جمل الكتاب وفقراتِه لأكثر من مرة، ويقف كثيراً عند الكلمات الألمانية لينتقي مقابلاتِها بالعربية الأشدّ وضوحاً، والأقرب في التعبير عنها لفظاً ومعنى.كان أسامة ينجز في البدء ترجمةً خشنة، ثم يكرّر ترجمتَها، بغية ترويض كلماتها وعباراتها كي تصبح ترجمةً مخملية.

كنت وأسامةَ نتحدث طويلاً وقتَ انشغاله بترجمة خطابات الكتاب، وعند فراغه من كلِّ خطاب من هذه الخطابات الخمسة.كانت رحلةً شاقةً لكنها شيقةٌ مع شلاير ماخر، أمضينا فيها ثلاثَ سنوات من حوارات جميلة عبر الهاتف بين بغداد وزيورخ، كلما أنجز أسامةُ شيئاً من ترجمة صفحات الكتاب. وهكذا نحتفل اليومَ معاً بصدور هذا الكتاب الذي نقدّمه للباحثين والمهتمين بالدراسات الدينية بالعربية، متمنين أنْ يأخذَ مكانتَه المناسبةَ في المكتبة الدينية.

بغداد 1-9-2017



مقدّمة المترجم

لا خلاف في كون الفيلسوف واللاهوتي الألماني شلايرماخر (1768–1834)، أحد كبار فلاسفة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقد عُرِفَ على وجه الخصوص، وذاع صيته عبر منهجه التفسيري للدين، والذي يقدّم بوصفه أساساً للهرمنيوطيقا. ولم تزل آثار شلايرماخر ماثلة على الفكر اللاهوتي في أوروبا، ولا سيما في ما حمله أسلوبه من بصمة لغوية فريدة. وهذا الكتاب الذي حرصنا على نقله إلى العربية من لغته الأصلية، وهي اللغة الألمانية التي كتبه بها شلايرماخر لينشر في برلين في العام 1799، يعَدُّ من الأعمال الكلاسيكية الكبيرة في اللاهوت، ومن أهم كتب شلايرماخر على الاطلاق. لأنّه أصَّلَ فيه لفهم موضوعة الدين، مدافعاً تارة، وناقداً تارة أخرى لصور الثقافة المتعالية على الدين، تلك التي تبنّاها رهط من المثقفين مجرِّدين الدين من مضمونه الإنساني، وثيق الصلة بموقف الفرد من الوجود.

يتشكّل الكتاب من خمسة خطابات جعلها شلايرماخر محصورة



بإعادة هيبة الدين وكرامته بوصفه نظاماً فكرياً وأخلاقياً، ليس محصوراً بفئة من الناس، وإنما هو لكل المجتمع. بل هو موجّه أولاً إلى طبقة المتعلّمين والنخب الثقافية. ولعلَّ المطّلع على مسارات نظرية التأويل، لا يحتاج إلى الكثير من التأمل، لمعرفة ما شهده هذا اللون من الفلسفة من تطور وانقلاب مهم جداً، بعد هذا الكتاب، الذي يدين له الاتجاه التأويلي، بدفعه من دائرة الدراسات اللاهوتية إلى فضاء أرحب، وهو دائرة التأويل. ثم الانتقال به من ماهية النص إلى ماهية الفهم، والحرص على تتبّع خيوطه، والكشف عن طبائع بنائه وتراكيبه.

ينتقد شلايرماخر في كتابه هذا إدخال العقل باحة الدين، إذ ركّز على تقديم الإيمان لديه بوصفه ضرباً من ضروب الاختلال والانحراف بالأفكار، إلى ما لا يحتمله العقل بتقنيته البراغماتية المحكومة بضوابط لا يمكن الدين قبولها. ثمَّ قدّم تصوّراً للتعليم الديني، يجترح فيه آلية تميّز منهجه، الذي ظلّ أميناً على النزعة الصوفية في التعبير عن المثُل العليا للتربية والتعليم، تلك التي أنتجتها عصور التنوير. وبدا واضحاً في إبراز مواضع التضاد المطلق بين العقل والدين. فضلاً عن غاية إصلاح الروح والانشداد إلى اللامتناهي، واستغوار الأحاسيس لاستلهام ما تفضي إليه من تأملات. إلا أنه لم يتردّد، في غير موضع، عن الإلماح إلى كون تعليم الدين هو في الأساس قضية لا تجد من يهتم بها، وكذا هو الحال بالنسبة إلى الفن، على الرغم من عمق وأصالة علاقة الإنسان بالمنبعَيْن. وقد ثبّت شلايرماخر في هذا الكتاب الارتباط الوثيق بين الدين والفن مقوّضاً شيئاً من المسلمات الفلسفية التي كانت سائدة في التعاطي مع موضوعة الدين، ليشيّد فهماً مغايراً للدين ولوجدان المتديّن. وتلك واحدة من الأفكار التي



أدخلت شلايرماخر في ما بعد في جدل ونقاشات حامية الوطيس قادته لأن يدافع عنها في كتابه «المناجاة» مفصّلاً ما أجمله في هذا الكتاب.

وقد فسَّر شلايرماخر أيضاً القيمة الإشارية للفهم. مبيّناً الأصل الفردي للعاطفة الدينية، والطبيعة اللاعقلانية لجوهر الدين. فالعقل لا يلتقي، من وجهة نظره، مع الدين؛ لأنَّ الأرضية التي يعود إليها يحكمها نظامٌ متناهٍ، فيما يتصل الدين اتصالاً مباشراً بالمطلق اللامتناهي. وتتصاعد حدة الخطاب الرومانسي في هذا الكتاب، خصوصاً في التركيز على خضوع فهم جوهر الدين للذاتية التأويلية، بكل ما يعتريها من نشاطات سيكولوجية، وهنا يتأثر المنطوق اللغوي بالتركيب الخطابي وما له من مكوّنات معروفة. وتتجلّى أهم سمات تصاعد المظاهر الخطابية في الكتاب في شيوع ضمائر الجمع (أنتم، إنَّكم... إلخ)، مما يفصح عن رغبة في التفاعل الاجتماعي والقيمة التواصلية بوصفها ظاهرة أسلوبية، يطلق عليها في علم اللسانيات «المبدأ التداولي».

وتجدر الإشارة هنا إلى أن إحدى أهم إشكاليات ترجمة هذا الكتاب تجلّت في كون شلايرماخر قدَّمه بلغة شعرية نزعت للاستطرادات الكبيرة، ولتلاحق الجمل المتداخلة في ما بينها. وتلك من سمات اللغة الألمانية التي تفرّق بين الجمل الجانبية والجمل المركزية الرئيسة التي ينبني عليها لبّ الخطاب بمجمله. وقد طغت على الكتاب من جهة أخرى سمات أسلوبية يفرضها الفعل الكلامي وليس الفعل الكتابي للغة. وأعني هنا السمات التكوينية للجملة ومن ثمّ النص، إذ تجعله مرتبطاً بانفعال التلفّظ، فيكون أحياناً أمراً، وأحياناً نهياً، وأحياناً وعداً ووعيداً، وسوى ذلك مما قد يتعامل مع



اللغة بهدف التوجّه نحو المتلقّي مباشرة بقصد نيل رضاه ودفعه لغاية مرغوب فيها. وتبعاً لهذه السمات كانت مهمّة الترجمة شاقة وخطيرة لأنها قد تدخل في شيء من الالتباس والغموض، وهي تحاول جعل الخطاب الملفوظ الشفوي المحايث رسالة مكتوبة ذات وحدة متماسكة منهجياً.

ولقد تضاعف الجهد في ترجمة هذا الكتاب، وأخذ تعريبه وقتاً أكبر بكثير مما قد يتخيله المتلقي حين يرى صغر حجم الكتاب. وذلك لأننا قد اعتمدنا في ترجمته على نسخته الأقدم، النسخة الأم للكتاب، وهي نسخة نادرة من محفوظات المكتبة المركزية في مدينة زيورخ في سويسرا(1). أمّا ما لحق هذه النسخة من طبعتين إضافيتين، ظهرتا للكتاب في القرن الثامن عشر وفي مطلع القرن التاسع عشر(2). فقد أثبتت لنا مقارنتهما بالنسخة الأم أنّ هناك اختلافات بينها، وشروحات دخلت على المتن الأصلي. ولم نزج أنفسنا في الوقوف على الاختلافات بين النسخ وابتعادها عن المتن الأساس، ونعني النص الذي نسجه شلايرماخر وقدّمه للطبع في برلين العام 1799،

---

(1) Reden über die Religion. Reden an die Gebildeten unter ihren Verächtern. Friedrich Daniel Schleiermacher. Dritte Ausgabe, Berlin 1821. Zentralbibliothek Zürich.

(2) Über die Religion. Reden an die Gebildeten unter ihren Verächtern. Friedrich Daniel Schleiermacher (1799/1806/1821) Studienausgabe, hg. v. Niklaus Peter, Frank Bestebreurtje und Anna Büsching, Theologischer Verlag Zürich 2012.
Friedrich Daniel Ernst Schleiermacher, Über die Religion. Reden an die Gebildeten unter ihren Verächtern (1799), in: Kritische Gesamtausgabe, I. Abt. Bd. 2: Schriften aus der Berliner Zeit 1769-1799, hg. v. Günter Meckenstock, Verlag Walter de Gruyter, Berlin/New York 1984 S. 185-326



لأنّ هذا عمل يحتاج إلى كتاب مستقلٍّ بذاته، نأمل أن يسعفنا الوقت في وضعه.

ومما يستوجب الذكر هنا، هو أن النسخة الإنكليزية للكتاب هي أقرب إلى تفسير لكتاب شلايرماخر «عن الدين: خطابات لمحتقريه من المثقّفين» منها إلى ترجمة لنصه الأصلي، وذلك لأنها نسخة لم تتبنَ النص الأصلي للكتاب وحده، وإنما اعتمدت على شروحات للكتاب تزاوج فيها النص بشرحه(1).

ونحن لا نقلل هنا من أهمية تلك النسخة أو نطعن بترجمتها، ولا يغيب عن وعينا هنا الرأي المتداول الذاهب إلى أن كلّ ترجمة هي في جوهرها تفسير. كلُّ ما أردناه هو الاشارة إلى عدم اعتماد النسخة الإنكليزية للكتاب على النص الذي وضعه شلايرماخر وحده، وإنما على المتون التي لحقته وجاءت مفسّرة لفحواه الرومانسي المائل بلغته ونسيجه إلى لغة شعرية، ليست بمألوفة في الخطاب الفلسفي على وجه العموم، وفي الخطاب الفلسفي الألماني على وجهه الخصوص.

وفي هذا الموضع لا يسعني إلا أن أشيد بالجهد الشخصي الكبير للصديق الفاضل د. عبد الجبار الرفاعي، القامة الثقافية الباسقة بمنجزٍ فكري وابداعي مميّز. ويسرني أن أتقدمّ له بعميق شكري وامتناني لعنايته ودعمه ومتابعته لهذا العمل. ممتن لكم د. الرفاعي وأنتم تصرّون على المضي لبعث شعاع ضوء ثقافي، عسى أن يبدد عتمة ليل

(1) Friedrich Schleiermacher und die Frage nach dem Wesen der Religion: ein Vortrag. Wilhelm Bender. Bonn: Eduard Weber›s Verlag (Julius Flittner). 1877.



كئيب خيّم على الأرواح وجرح القلوب، باسم الدين وهو ضد الدين، وباسم الله وهو يفترس خلق الله. كما وأتقدّم بالشكر والامتنان للمكتبة المركزيّة في جامعة زيورخ لما وفّرته لي من إمكانية الاعتماد على النسخة الأصلية للكتاب، وهي نسخة نادرة جداً من محفوظات المكتبة. ومن دواعي سروري أن أشكر الأصدقاء الأعزاء الأستاذ الكاتب فوزي مارتي والفنان المبدع الأستاذ أحمد ضاحي لمرافقتهم لي في رحلة ترجمة هذا الكتاب ولكرمهم الباذخ في الوقت والجهد لتيسير مهمة مواجهة ما ورد في الكتاب من مغاليق.

في الختام آمل أن أكون قد وفقت في تعريب هذا العمل المعقّد، سائلًا الباري المغفرة والسداد. والله ولي التوفيق.

أسامة الشحماني

زيورخ 2017



الخطاب الأول

دفاعاً عن التجربة الدينية




مكتبة
الفكر الجديد

ربما يكون من غير المتوقَّع على الإطلاق، ويحقّ لكم أن تتعجّبوا من ذلك، أن يتفاعل أحدٌ من أصحاب الأنا المتعالية على النزعة التقليدية في الفكر، المأخوذين بوميض موضة العصر ومساراته العقلانية، فيبدي حسن الإصغاء لموضوع مهملٍ ومحتقرٍ بالنسبة إليه. ولا بد لي أن أعترف هنا، باستحالة التنبّؤ بشيء من خاتمة محمودة يمكن أن تتكلّل بها جهودي في الدعوة للحديث عن تأمّل العلّة الغائية للوجود الفعلي للدين إذا ما شاطرتكم رأيي فيها، فضلاً عن قيمة الدين كما أراه وأتحمّس له، ولذا فلست بانتظار أن أحظى باستحسانكم أو تصفيقكم - على أقل تقدير-.

لم يستقطب اشتراط فهم الدين في العصور القديمة اهتمام جميع الناس، ولم يدرك صدق التجربة الدينية سوى نزر يسير منهم، فيما تشاغل الأعم الغالب منهم بمتاهة ما تبدّى من قشوره، وتهافتوا عن طيب خاطر في سراجِ إرثٍ من المعتقدات على اختلاف سياقاتها وتعدد مناحيها، التي قد تنطوي على جاذبية لا تُنكَر. أمَّا عن مظاهر فاعلية الدين ومساحته في حياة المثقفين فيمكن القول إنَّها ما فتئت تمتاز ببعدها وبشكل لافت عن كلِّ ما يجسّد توجيه قدراتهم نحو



علاقة تتسم بشيء من التخلي عن الوعي المتعالي، وعدم إغفال الارتداد والتموقع لفهم الذات.

أنا على يقين من أنَّكم أيُّها المثقَّفون لستم على علم بكيفية التعامل مع اللحظة العفوية المباغتة القاضية بتمجيد الإله في حضرة صمت مقدَّس سيواجهكم حتماً إذا ما زرتم معبداً مهجوراً، كما وأعلم أن لا يمكن لمنازلكم العامرة أن تضمَّ بين جوانبها ما يفوق في قدسيته وعظمته بالنسبة إلى ذخائركم العقلية خطب الفلاسفة، وأناشيدَ الشعراء، ويحلو لي القول إنَّكم تعتقدون بمقولات الإنسانية والاعتزاز بالهوية والفنون والعلوم بوصفها قاعدة، أو دعامة لانبثاق ما يحيط بأدق المكوِّنات المعرفية وأكثرها تعقيداً، وتظنون أنَّ نسائجكم العقلية تحوز كلَّ ما لهذه الأنساق من خلفيات، أمَّا الحياة الأخرى وكينونتها الأبدية المقدسة، وماهيَّتها المندرج وجودها في الأوعية والأنشطة الأكثر صدقاً من هذا العالم، فلم يتبقَ لها شيء في نفوسكم، وما عادت مشاعركم قادرة على التناغم معها. لقد نجحتم في جعل الحياة الدنيوية متعالية عابرة للحظة التاريخية، غنية جداً ومتنوعة إلى درجة قوَّضت لديكم الحاجة للانخراط في محايثة الخلود، وما إن تمكنتم من خلق الكون الخاص بكم والسياق المعياري الحامل لتجليات ثقافة عصركم حتى تكبّرتم، ولم يعد يشغلكم التفكير بالقوة الروحية ومركزيَّتها الحيوية، وبالخالق الذي خلقكم.

هناك مشكلة لها خصوصية عالية، وهي أنَّكم متوافقون على أن لا إغراء جديداً يذكر في تقصِّي متون الدين، ولا شيء أكثر إقناعاً يمكن أن يُقال في مناقشة ما تنطوي عليه بؤرة الدين ونواته الأولية، لأنه سؤالٌ حاسم للغاية استرعى الانتباه منذ زمن سحيق وتمَّ حرثه ومعالجته من



كل الجوانب. تمّ ذلك بما فيه الكفاية من جانب الفلاسفة والأنبياء، والكهنة والمتهكّمين. وثمَّة مؤشرات عديدة على كونكم تفضِّلون أو تستحسنون على أقل تقدير - ولا أحد منكم يستطيع إنكار ذلك - سماع شيء عن أولئك المتهكّمين الساخرين من الدين، المستخفِّين بكل أشكال الثقة بالخبرات والمعارف الدينية، أكثر من الإصغاء لسواهم ممن يؤْثِرون الاستدلال على مكانة الحياة على ما تتيحه رقعة المعابد المقدسة، ولا يمكنهم العيش من دون الانشداد لما يكسبهم أنماطاً جديدة من التدبّر في تقديس مركزية الزهد فيها. ولكنْ، وعلى الرغم من علمي بالبروز النسبي لتراخي موقع الدين تخترقني رغبة داخلية لا تقاوَم، رغبة تهيمن عليها إرادة إلهية تدفع بي للتعمُّق في الحديث عن الدين كمنطلق مرجعي، سابق على كل أنماط العلاقة الواعية بين الإنسان والعالم. وبناء على هذه الخلفية لا يمكنني التراجع عن دعوتي لكم في الإنصات لخطابي.

لعلّه من المهم في هذا الموضع أن أتوجّه لكم بالسؤال عن المعيار الذي احتكمتم إليه في تحديد السير باتجاه الحقيقة وتمييز قيمة الموضوعات، ثمَّ وضعها على سلَّم مما ابتدعتموه من أولويات، كمقدمة لتقسيم أهميَّة التعرف عليها إلى «عالية أو متدنية»، بناء على منطق ومنحى ينحرف عن ملكة الإنسان في الرؤية والتفكُّر؟ ثمَّ بنَيتم الوجود المتعيِّن لحياتكم وأدوات إنتاج معارفكم العقلية، فضلاً عن حالات الاكتراث بالعلوم، على هذا الأساس؟ ألم يراودكم الخجل من أكواخ الفلاحين البسطاء وورش عمل الفنانين المغمورين، وأنتم تستمدون شرط وجود الأشياء بلغة متعالية تشطرها إلى «عالية أو متدنّية» على سلَّم لا يفتأ ينأى بها عن النفاذ الى الطبيعة، ويدفعها نحو أكوان أخرى؟



إنَّكم تتعاطون مع اللحظة المعرفية والإيمان بالأفكار الدينية من منطلق كونها مشبوهة تثير الريبة، حتى لو تعلَّق الأمر بالمواهب والعبقريات الإنسانية المعترف بتميّزها رسمياً من قبل الدولة، وشعبياً من سائر الناس! لا شك أنَّكم لستم بقادرين على دحض هذه المواهب وعلى إثبات كون أصحابها لديهم مرجعيات أخرى أكثرُ رفعة من النظام العظيم للألوهية والعقل. لقد فاتكم أنَّ محاولة زحزحة الإحساسات والتجارب الدينية عما تحتله من مواقع فكرية واجتماعية في حقل الوجود الإنساني أمرٌ غير مسوَّغ، ومحض ازدراء رخيص. ولعلي لا أجد ضيراً في أن أعترف أمامكم بأني أنا أيضاً من حاملي ثقافة هذا العصر المنشَدّين لمنطقه المثالي القابع وراء ما أنتجه من نصوص، وقد أجرؤ هنا على المخاطرة بوضع منظومة كبيرة من الأجهزة المفاهيمية والتعاليم العقلية تحت مسمًّى من المسميات، إذا أصبحتم خارج الجمهور الكوني للدين، واستمعتم لما أقدمه من طابع خلّاق للدين بما لا يتفادى سوء الفهم. ما أقوله هنا هو على أيَّة حال اعتراف طوعي، لا ينبغي للغتي أن تخونني فيه، ولا تحيدني عنه كلمات الثناء التي قالها زملائي، إنَّه حدس واستشفاف وفهمٌ خارجٌ تماماً عن دائرة اهتمامكم، ولا يقترب إلا قليلاً مما تحبون مشاهدته أو سماعه. أنا لا أوافق، على معظم الدعوات التي يجنحُ روّادها لتكريس ابتذال الدين، وتدهوره وأفوله. وفي حدود ما أعلم من مسلَّمات لم يمر عصر من العصور كان حال الدين فيه أفضل مما هو عليه في العصر الحاضر. ولستُ متحمساً للتعامل مع النمط القديم من المتديّنين، وسواهم من السطحيين المتباكين، ممن لا يعبأون بالوشائج الروحية ويريدون للعويل على أنقاض جدران صهيون اليهود وأركانه القوطية أن يرتفع مرة أخرى. أدرك أنني وفي معظم ما يربض في نسيج هذا



الخطاب لا بد أن أكون موضوعياً منكراً لمواقفي وقناعاتي الفكرية، ولكن لماذا لا يجب عليَّ أن أقرَّ بالاختيار الحيوي الأصيل لنشاطي الذهني لوجهات نظري وتصوراتي، كما هي كغيرها من السلوكيات والممارسات الاعتباطية الأخرى؟

إنَّ قوالب الأحكام المسبقة المراد لها أن تلحق بمواقفنا لا ينبغي لها أن تمنعنا أو تحجّمنا، والمحتوى المقدس المتموضع في فحوى الدين وحدوده بكل ما له من مضامين إشكالية لا يجب أن يقع بيننا وبين ما نريد التصريح به. إنني كإنسان عادي أحدّثكم عن الأسرار المقدسة والشيع الغامضة للبشرية، من وجهة نظري، عن منطوق يكشف ذلك المتواري الذي أغراني للبحث عنه عندما كنت في عنفوان الشباب، عن تلك التجربة الباطنية والقوة الكامنة في أعماقي، التي تشعرني بوجودي منذ أن بدأت بتحسّس مفاصل الحياة وقيمة الفكر، عمَّ سيبقى مقامه هو الأعلى في داخلي إلى الأبد، على اختلاف طرائق تبدّل الزمن وعوامل حراك الإنسانية. إنَّ حديثي في هذا المقام لم ينبعث من قرارات عقلانية، ولا ينبع من شعور بالأمل أو الخوف، إلا أنَّه مع ذلك غالباً ما يحيط بالظواهر ويمنح الأشياء نسَقاً نسبياً متوخياً ما قد يؤول إليه من غرض عقلي نهائي، وهو حديث لم يتخذ المكاشفة المعتبرة لكيان الإنسان منهجاً بِناءً على سبب اعتباطي أو عرضي، إنَّه ضرورة داخلية تفرضها عليّ طبيعتي بشكل لا يقاوَم، بل إنَّه تسخيرٌ إلهيٌّ يمكنني عبره أن أُحدّد مكاني في هذا الكون، ويجعلني المخلوق الذي هو أنا. الأمر الفاصل هنا هو أنَّه حتى لو بدا من غير اللائق ولا من المستحسن الحديث عن مقولة الدين، فإنّ ما يدفعني لقول ما يختلج في داخلي من أفكار صغيرة هو تلك



الطاقة السماوية المضفورة باستبصار يتفاعل في روحي. أنتم تعرفون أن الحقيقة الربانية للوجود ملزمة بمنظومة متناسقة من قوانين ضبط التركيب الداخلي للكون غير القابل للتغيير، ولعل ما لا حدود لعَظَمته من بينها هو شبكة العلاقات بين نواميس الوجود وذلك التجانس والالتحام بين مظاهر القوى المتنافرة داخل كل وجود منفرد وكائن بذاته (Dasein)[1]، إذ تستمدُ كلُ فكرة صيرورتها الأبدية من تموضعُ صورتين ذهنيتين متناقضتين، لا يمكن لإحداهما أن تقوم بمعزل عن وجود الأخرى، وكأنهما حقيقة واقعة لتوأمين لا سبيل لفصل صبغة أحدهما عن سواه. أمّا هذا العالم المادي، الذي يشكّل اختراق مناطقه الداخلية أقصى ما تطمح إليه مسيرة بحثكم من أهداف، فيبدو لأكثر المطّلعين والمتفقّهين من بينكم، كما لو أنَّه لعبة أبدية من القوى المعارضة. إنَّ كل صيرورة هي في النهاية ليست سوى حصيلة فعل تراكمي وتشكّل دينامي مستديم لنهج الصراع بين نقيضَين متعارضَين هما قدرة التجاذب والتنافر. وتكتسب الأشياء وجودها الخاص داخل هذا التشكّل عبر انجذابها لقوَّتَيْن من أقدم قوى الطبيعة، هما: النزوع نحو الوجود المستقل بذاته؛ والتعبير عن تجلياته الحيوية النابضة من خلال الانشداد لجرثومة الحياة. قوّتان يُجمع بينهما بأسلوب فريد من نوعه، ويمسك بهما جنباً إلى جنب. وإنِّي لا يساورني قلق من كون

---

(1) مصطلح يعود لهايدغر أصلًا، ويعني الوجود في العالم، أو الكائن في العالم بوصفه خاصية جوهرية للوجود، وقد اتفقت المصادر العربية على ترجمته بما يدور في هذا المعنى، ولقد وضع الباحث حسن العمراني في مقاله «سؤال الميتافيزيقا عن هايدغر، مجلة قضايا إسلامية معاصرة، ع16، 2012». مفردة الدازاين بترجمة انفرد بها هي «مـأوى أو مستقر حقيقة الوجود الذي هو الإنسان». المترجم



الروح، وما إن يتم زرعها في هذا العالم، حتى يتوجَّب عليها الشروع بتتبع أبعاد هاتين القوتين. إنَّ كلّ نفس بشرية - ما يقودنا لهذا الفهم هو رصد أفعالها المرحلية العابرة، وكذا ما تتسم به من خصوصيات داخلية تتعلّق بنقاط الارتكاز الثابتة في وجودها النفسي - هي نتاج لدافعين باطنيين يقفان على الضد، يكشفُ الأول عن رغبة جامحة في الإحاطة بكل ما حولها واستخلاصه لذاتها الفردية، ثمَّ التورط بامتلاكه وسحبه لجوهر وجودها، والسعي كيفما أمكن للتماهي مع أدق جزئيات الواقع، واستقطاب معالمه وكوامنه. أما الدافع الثاني فيتجلّى في الجنوح للتحرر من سلطة الارتباط بما هو خارج عن الذات عبر إشاعة ما للذات من مواقف ورؤى ومتبنَّيات، هي نتاج حدوس أو تخمينات خاصة، وجعلها مركزاً معرفياً بإمكانه اختراق كلِّ معطيات الوجود، والإحاطة والتبليغ عن أيٍّ من أبعاده اللامتناهية، دونما عناء أو كللٍ. من هنا أخذ الفرد لا يسعى إلا لما يجد فيه متعته، ويتجه لما يصبو لَنيله من أشياء لا يجد ضيراً من الانقياد إليها، وكلما أدرك شيئاً مما يتوق إليه وجد نفسه مأخوذاً بتقصي المسالك المؤدية للحصول على اللاحق، حركة آلية أفقية تندفع نحو ما لا يستلزم مستويات وعي مرتفع نسبياً. وهو فعل يحطُّ من مفهوم اللذة لأنَّ جل ما يعني صاحبه هو النمو والزيادة في نشاط هذا الشعور، متغافلاً عن قيمة الأشياء والظواهر الفردية، لأن ما يهمه من اختراقها هو أن يجد في كلِّ زمان ومكان مناسبة لممارسات تتجلى بنحو من الأنحاء بما يؤول بقوته في نهاية المطاف لأن تستفرغ داخلها، فعل يصبو لتطويع كلِّ شيء نهائياً، وجعله مستجيباً لرهان العقل ومنجزه وفهمه المجرَّد للحرية، ولذا فإنه يسير في بحثِهِ الدؤوب والمباشرة باتجاه لا نهائي في محاولة استيعاب مفاهيم الحرية والارتباط، السلطة والعدل، التشريع



والضبط. ومثلما هو الحال بالنسبة للأشياء المادية إذ ليس هناك ما يقوم لوحده متمركزاً على قوة واحدة من القوتين المتحكمتين بطبيعة المادة، هكذا هي الأنفس أيضاً فكل واحدة لديها جزء في الوظائف والأدوار الأصلية المتدفقة عن الطبيعة العقلية.

من غير الخافي أن قيام كمال العالم الفكري الذي يشيع مناخاته المثقفون، يحمل على كاهله بذل كل جهد ممكن لفك كافة عرى الاتصال بين طرفي هاتين القوتين المتعارضتين: العقل والطبيعة وما يتصل بهما من وضعيات جوَّانية، من خلال جعل جزءٍ هنا وآخر من هناك، مما لا يترك لمن يدحض ذلك غير فرصة متناهية الصغر، ليس لأنَّ المناوئ لهذا الإطار الفكري غير موجود فعلاً في واقع الجنس البشري، وإنما لأن معالم الغطاء النظري الخاص بهذا الفهم يجعل الفرد بعيداً عن التفتّق بالمعارف، تخومها ومنابعها. إنَّ أولئك، الواقعين في هذه الحدود الصارمة، غالباً ما ينطوون على أنفسهم بعنف، ليشكلوا طبيعة خاصة بعزلتهم. منهم من تستحوذ عليهم حياة الشهوات فتحيطهم بكم هائل من مفردات العالم الدنيوي، التي طالما أحبَّوا اقتطاعها من سياقاتها العامة، والاندماج بها كلياً دوناً عن سواها. أما تأملهم لطبيعة التناوب الأبدي في العلاقة بين الرغبة والمتعة فلا يخرج على الإطلاق عن مستوى التصور ذي البصمة الفردية المحدودة، ولذا تراهم مهووسين على الدوام بقضية التمركز على الأنا، التي غالباً ما تجعل بقية البشر وجوهر وجودهم مجهولاً بالنسبة إليهم. وهناك غيرهم ممن لا يزال في الأطوار الأولى لنضجه، فتراه يطمح لأن يحلّق بمواقفه حول الكون بحماسة جياشة متّقدة من دون أن يكون قادراً على تحقيق شيء أكثر واقعية وثباتاً على مستوى



تفسير الحياة الداخلية للإنسان، فيظلّ يتأرجح بين أطراف حلقة فارغة من المثل العليا، وهكذا وبعد أن تستنزف قواه من دون فائدة تذكر وتستنفد قدراته في اللاجدوى، يعود لنقطة شروعه الأولى.

كيف يمكن لكل هذه الكينونات المستقلّة عن بعضها والمسافات اللامتناهية البعد أن تجمع معاً في نقطة مشتركة، ومن ذا القادرُ، في هذا السلَّم الطويل من التفاضل بين الموجودات على اختلاف أنماطها وتعدّد حواملها المنسجمة وشروط العقل، أن يكون رمزاً للخلود والكمال؟ لا بد أن تكون نقطة معينة جوهرية بينما سواها عرضي، يتحقق فيها التوحد والتوازن في ربط الأجزاء في كلٍ واحدٍ منظّم وبصورة تكاد تبدو مثالية، هذه الصورة هي مما تركزون عليه جلّ اهتمامكم لدرجة مبالغ فيها أحياناً، نقطة تتمحور داخلها وتتصارع سبل قد تقترب من الشعوذة واللعب بالمثل العليا للطبيعة البشرية، ومن النادر أن تكون نتيجة مخاض أو جهد مبذول لإتمام غاية من غايات معرفة الإنسان بذاته. إنَّ كل مواقف النائين بالدين عن مجال الطبيعة، تصل عند نقطة ذات صبغة عقلانية جافّة، فيكون من غير الممكن على الإطلاق تمكّنهم من فك شفرة الوجود، الذي سيكون الغرض النهائي منه بالنسبة إليهم غير بعيدٍ عن خطأ كلّي. المثقّف المتّزن هو الذي يلج أسرار ما ينخرط في النظام الكوني الآخروي، ويكشف بعينه المتّقدة المنفردة لحظة انبلاج المعنى في لب الدين، فيدرك ماهية ذاته والذات الواقعة على النقيض منها. ولكن من المتعذّر وجود مثل هذا الإنسان كثيراً، لذلك يسخِّر الله بعض دعائم الإفهام فيبعث بالرسل والوسطاء هنا وهناك وفي جميع الأزمنة، ومن خلالهم يربط بين الحقائق العقلية وسواها الوجودية بطريقة مثمرة، إذ يهبهم ملكة عظيمة ويعبِّد طريقهم



بكلمة الحق العليا التي يجعلهم يحققون من خلالها أمره ومشيئته، التي قد لا تجد من يشيِّدها لولا وجود هؤلاء. أنظروا لأولئك الحائزين على درجة عالية من تلك القوة الجاذبة، المسيطرة على كلِّ ما يحيط بنا من أشياء ولهم قدرة على الإعراب عن صورتها في جوهر وجودهم، ولكنهم في الوقت ذاته يتوقون لإدراك المطلق والتنقيب في القدرة الروحية الخارقة وحمله عقلاً وروحاً في آفاق الحياة. إنَّهم ينهلون من هذه القوة الأبدية الخالدة وينهجون طريقاً تمكنهم من الكشف عن طابعها الدينامي في مجمل مواقفهم وتعاملاتهم، على أنَّ هذا في كلّيته لا يكفي، لفهم وتقعيد هذه الكتلة الخام من الأمور الدنيوية. ولذا على هؤلاء الوسطاء وضع الأشياء نصب أعينهم، للتمكّن من بنائها وترتيبها في ذلك العالم الصغير الحامل لرؤاهم العقلية، بهذه الطريقة تكون سيطرتهم أكثر عقلانية ومتعتهم أكثر اتساقاً وثباتاً وإنسانية، سيكونون أبطالاً ومشرّعين، مخترعين وقاهرين لمستغلقات الطبيعة، سيكونون خلقاً ملائكياً آخر أو جناً خيِّريين بوسعهم خلق ونشر شكل نبيل من أشكال النعيم. هذا ما يثبته الوجود المجرّد كرسول ربَّاني، وكوسيط بين محدودية الإنسان ولا نهائية الإنسانية. إنَّهم يكشفون للإنسان الخامل زيف وإيهام التنظيرات المثالية، التي تجزّئ وجوده في جملة من الأفكار الفارغة، وينبهونه لتقاعسه عن الفعل الوحيد، الذي لا يمكن تجاهل وجوده، وما لم ينل اهتمامه حتى الآن هو ذلك الجوهر الخارج من رحم الوعي به؛ يفسّرون للإنسان صنائع الذهن البشري وسبب سوء تقديره لصوت الله، يصالحونه مع ذاته ومع وجوده على هذه الأرض ومكانه فيها. ولكن هؤلاء الوسطاء ما زالوا يفتقدون للكثير من القضايا الدنيوية والحسّية المجردة، التي تعلمهم إدراك القوة الأساسية العليا للإنسانية، والتي يمكنهم عبرها أن يحيطوا



بعمق ما لهم من بصائر ورؤى من دون صخب أو ضجيج قد يوقعهم في الإفهام خارج جوهر الدين، وبذا لا تكون لهم بغية في أي شيء آخر، أو حدود تفصلهم عن ذلك الكون الفسيح الذي عثروا عليه. يهب الله من يتحرك في هذا الاتجاه القدرة على الوصول لجوهر الأشياء وتحقيق طموحه في التوسع والعمق في الرؤيا والحساسية الإبداعية التي تمكّنه من منح الوجود ما له من أبعاد خارجية وداخلية. وهكذا يكون عليه، بعد كلّ انطلاقة يقوم بها عقله باتجاه ذلك المطلق، أن يضع الانطباع الذي منحته إياه تلك الانطلاقة، والتعامل مع المطلق بوصفه موضوعاً قابلاً لأن يبلور البلاغ به صورة ولغة، وأن يقدَّم من جديد بشكل مختلف يمكن التمتع بتحوله لظاهرة مفهومة وأفق دلالي مدرك، ولا بد للوسيط أيضاً كرهاً أو طوعاً - لأنَّه سيفعل ذلك، حتى لو لم يكن هناك ما يمكن الإخبار عنه - أن يحكي للآخرين ما حدث له، كشاعر أو راءٍ، أو كخطيب أو فنان. ذلك هو الكاهن الحقيقي ذو المكانة العالية، القادر على تقريب البعيد لأولئك الذين اعتادوا على النظر في القضايا ذات البعد المحدود؛ إنَّه الفنان البارع، المتمكن من تمثّل المنطق السماوي الأبدي وعرضه للنظر بأسلوب يبعث في الموضوع نفحة من المتعة والثقة ويجعله مصدرًا لا ينضب، ومرتكزاً تقوم عليه جل الطروحات الكبرى. إنه الواعظ الورع التواق لإيقاظ البذرة النائمة الباعثة للصورة الإنسانية الأفضل، ولإشعال جذوة الحب للمطلق اللامتناهي وتحويل الحياة الى شكل من أشكال التواصل معه، والتوفيق والتصالح بين أهواء أهل الأرض وإرادة السماء، والحفاظ على مركز الثقل ونقطة التوازن، والتخفيف من غلواء ما يفرضه العصر من متعلّقات ثقيلة بكمية ما تشتمل عليه من موضوعات. هذا هو الكهنوت العالي، الذي يكشف عن جميع الأسرار الروحية، ويتحدّث



عن ملكوت الله؛ بوصفه مصدراً لكل الرؤى والنبوءات، لكل الفنون المقدسة والخطب الوعظية المتحمسة، التي ستنتشر إذا ما وجدت العقل المتقبّل لها، والقادر على جعلها مثمرة ومجدية.

ثمة رغبة تكشف عن نفسها أكثر من أي وقت مضى تدفع لإيقاف هذا الدور الوسيط وتسعى لأن يحصل كهنوت الإنسانية على صورة أجمل! وقد يأتي الزمان، الذي وصفته النبوءة القديمة، بزمان الفكاك من صميم التفاعل المتبادل بين الناس، إذ لا أحد سيحتاج فيه لأن يأخذ العلم من أحد، لأن الجميع سيكون ملهماً بتعاليم الله وفطرته! فإذا اتقد الشمع المقدس وعمَّ ضياؤه الأمكنة، لا تكون هناك حاجة لوهج الصلاة، لاستدعاء نزول المحجوب من بركة السماء، وإنما الحاجة لذلك الصمت اللطيف الذي يخيِّم على أجواء مناجات العذراء، لذلك لا يجب قطع ارتعاشة ذلك النور وإنما الانجذاب إليه والانصهار فيه والتماهي مع جذوته الحميمة الخفية، القادرة على ضبط توازن الأشياء في كل المواقف.

كلٌ منكم سيكتسي ألق هذا الوهج ويسرِّب للآخر فرصة الإشراق به، ولا يفترض لرسالة الأفكار والمشاعر المقدسة أن تنشأ إلا باكتمال أجزاء هذا الطيف الذهني الذي يوحِّد بين القرائن والانعكاسات المختلفة لضياء اللحظة المعرفية ثمَّ يفصلها مرة أخرى، ليكشف عمَّ تشتمل عليه من الميزات الفردية. ستنال الكلمة المهموسة حظَّها من الفهم، لأن التفسير الأكثر وضوحاً هو قراءة ناشئة عن سوء التفسير وهي ما لا يمكن أن يفوتكم الآن. بإمكان المرء أن يتوغَّل في عمق ذلك المقدّس وما له من ملاذات آمنة، فيما لو عرف أنَّ ما يتوجب عليه أولاً هو التعامل مع المقدمات المادية المتناسقة في المعارف



الواقعة في مداخل هذا المقدس. كم هو ممتع ورائع تبادل الأفكار مع الأصدقاء والمشاركين في النقاش، فيما لو قورن الأمر بالوقوف على ناصية موضوعة أو ملمحٍ سطحي من مساحة فكرية تستمد وجودها من الخواء. ولكن إلى أيِّ مدى يظهر الآخرون متباعدين عن بعضهم في وعيهم وأساليب حياتهم كيما يتاح لهم الآن خلق هكذا نمط من التواصل والتلَّقي؟

بمثل هذه الطريقة المتقشّفة المتفاوتة تتوزّع المعارف بين الناس، كما هو حال المعرفة بالنقاط الخفية مما يحيط بنا من فضاء عالم خارجي لا متناهٍ تمخضت عنه كل مصادر الحياة المرنة وانتشرت في جميع الاتجاهات، وهو حيِّز واسع من النظام والضبط بمستوى لا يتصادم ولا يتقاطع فيه شيء إلا في الحدود الخارجية من مجاله، على الرغم من اكتظاظ الوجود.

اسمحوا لي أن أخلّص الذات قليلاً من ذلك المجتمعي وأتحدّث عن نفسي: أنتم تعرفون ماذا يعني النقاش بالدين، إنَّه من الاحترازات الواجب القيام بها مما لا يمكن الافتخار به أبداً؛ لأنه دائماً مدعاة للخضوع والتصاغر. كان الدين بالنسبة إليَّ رحماً أمومياً حميماً، احتضنت ظلمته المقدّسة سنوات شبابي، منهلاً متمكناً من الإجابة عن كلِّ ما استغلق من تساؤلات هذا العالم، وداخل كوَّته تنفست روحي وعقلي، قبل أن يكتشفا ما يحيط بهما من موضوعات وعلوم وخبرات. الدين نفاذ نقدي ومحضَن فكري ساعدني عندما بدأت التدقيق في الموروث من معتقدات آبائي لتنقية قلبي من قمامة العصور القديمة. كان الماثل في حضوره، كلما تلاشت أمام العين الشكّاكة فكرة الرب، واختفت نشوة الخلود. إنَّه دافعي للحياة النشطة، ومنه



تعلمت أن أتعاطى مع نفسي بكل ما لها من أخطاء وفضائل كوجود متكامل غير قابل للفصل أو التجزئة، وجود مقدس بما هو عليه. وحده الدين جعلني أكثر اقتراباً من سبر السلوك الإنساني، ومفهوم الصداقة والحب. إذا ما جيء على ذكر مزايا وسمات أخرى للإنسان أكثر سعة من مجال الفهم، فإنني أدرك جيداً أن حكمتكم وفهمكم للناس لا يبرهنان عن هذه المزايا أمام من يفصل فيها إلا نزراً قليلاً. وإذا أتيح لأحد أن يقول كيف تمكّن من امتلاك تلك العلاقة الباطنية مع الذات؛ أو كيف عرف فضائل الفهم المتفق وقوانين الطبيعة المألوفة، ومن نسيج الأساطير القديمة وحكاياتها عن وجودها، فسيتحدث عن الدين. ولكن من النادر أن أحداً ما يمر على ذكر الدين من دون ضرورة ما، أو أن يكون مضطراً إلى ذلك، لأنه على يقين من شح المستمعين. إن ما أشعر به وأثني عليه من بين كلِّ أعمال الدين وشعائره لا يأتي ذكره في الكتب المقدسة إلا قليلاً، وإن من لا يستطيع الكشف عن هذا الجوهر بنفسه، فليس في ذلك إزعاج أو حماقة؟

حين أخذت على عاتقي أن أتحدّث هنا عما يجتاح الدين من فهم مغلوط، وتوجب عليَّ أن أقدم شهادة على ما أذهب إليه، تبادر الى ذهني سؤال: إلى أيّ صنف من الناس عليّ التوجه بالخطاب إن لم يكن لكم؟ وأيّ الأمكنة يمكنها أن تمنح خطابي مستمعين من طراز مختلف؟ لم يكن الحب الأعمى لتراب الأجداد وللشركاء في التاريخ والدستور واللغة، هو الدافع الكامن وراء رغبتي في الحديث معكم بالذات بشأن الدين، وإنما هي القناعة الراسخة بكونكم الوحيدين القادرين وبالتالي المستحقين لأن تخاطبوا بما سيثير فيكم حافز تمحيص المعاني والغايات التقليدية الإلهية المقدسة.



إنَّ سكان الجزر الفخورين بعزلتهم، والكثيرون منكم يقدّس هكذا شخصيات بشكل غير مبرر أو لائق، ليس لهم أي حلٍّ آخر غير مبدأ الفوز بالأشياء والتمتع بها، حماستهم لاكتساب العلوم، ولحكمة خبرات الحياة، واستشعار الحرية المقدسة، هي مجرد لعبة فارغة مخيبة للآمال. كما أن أشد المؤيِّدين المتحمِّسين منهم لفكرة الحرية المقدَّسة وكرامة الروح وسموِّها لا يفعلون شيئاً. وحين يدافع العقائديون القوميون ناقمين، يدَّعون على الناس اقترابهم من الإرادة الخيّرة كيما يبقون المؤمنين بالخرافات بالتعلّق ذاته بالعادات القديمة، ولا يظهرون جدية في تأمّل مفردات العالم الخارجي، التي تتجاوز الأبعاد الحسية والمنافع فورية التحقق. هكذا ينطلقون لتقصي منابع المعرفة، ويحددون مفهوم حكمة الدين في إطار عقلي مغلق يتجه نحو التجريبية البائسة، وبناءً على هذه الأرضية لا يكون معنى الدين بالنسبة إليهم أكثر من حبر على ورق لا يثير انتباه أحد، أو مادة مقدسة دستورياً لا تشتمل في مضمونها على ما يقترب من الحقيقة. ولا أريد هنا الحديث عن المتشددين في تصوراتهم المغلوطة، ومواقفهم التي لا يكاد يحتملها أيُّ موقرٍ للدين، من أولئك الذين ما انفكت أقدامهم تدعس وفي كلِّ عمل أو تعبير ما للدين من غايات متعالية ومنظومة شرائعٍ مقدسة. ويشتد التناقض على نحو أكبر حين نرى اللامبالاة التافهةَ من قبل الملايين من الناس، الهزل والاستخفاف الأرعن بالعقول اللامعة المدركة للحقيقة السامية للكون، والتي لا تحدث على مرأى من عيونهم وحسب وإنما يأخذون بها جميعاً ويحددون على أساسها كل حركة وسكنة من حياتهم، إنَّه تطاول يثبت بما فيه الكفاية كم هي قليلة تجليات الرهبة المقدسة في أنفسهم، وكم هي



ضعيفة قدرتهم على التخلص من مستلبات الروح والدخول في آفاق الدين بوصفه شرط الحقائق الناصعة ونشدان محبة الكمال الإنساني.

ما الذي يرفضه الدين أكثر من الغطرسة الجامحة التي يحملها حكام الناس، أصحاب التوجهات المادية والقوانين الأبدية التي يتحدون بها إرادة العالم؟ وما الذي يشحذه الدين ويقع في صميمه أكثر من الإشراق الروحي والخشوع والاعتدال والتواضع؟ هل لديكم ما تقدّسونه أكثر من نمسيس ربة الثأر والانتقام، تصرفاتها الرهيبة، التي تحملكم على موجة وهم لا تفقهون منها شيئاً؟ هناك هوة من التشريعات لا يمكن اجتيازها وضعت لملء الوعي الجمعي للناس بالذعر والرهبة من فكرة الاقتراب من السماء، وكرَّست لبلورة مفاهيمها على مدى قرون طويلة، أعمال شعراء المصير الأبدي، أينما باءت آلاف محاولات التجديد بالفشل. كيف تلاشى صوت الدين إلى درجة مثيرة للسخرية وذهب من دون أن يسمع به أو يلاحظه أحد؟ هنا في بلادنا هذه حيث المناخ الهانئ، الذي لا يصيب الفاكهة بالفساد والتعفّن، هنا تجدون كل ما يزيِّن الإنسانية مشتتاً، وكل ما ينمو ويزدهر يتبرعم في مكان ما منفرداً، على الأقل، على أفضل ما يكون من هيئة، لا أثر هنا لافتقار في الاعتدال الحكيم أو في التأمل الصامت. هنا توجب على الدين أن يجد مدينته وفضاءه الحر السابق على الهمجية الثقيلة والمعنى الدنيوي البارد لهذا العصر. إن ما أرجوه هو ألا أحال من قبلكم هكذا ومن دون أن تسمعوني لذلك النمط الخام وغير المتعلم من الناس، كما لو أنَّ الشعور بالمقدس رداءٌ بالٍ عفَّى عليه الزمن، ولا وجود له إلا بين الطيّات السفلى للمجتمع، التي يشيع في مناخاتها الخوف من المجهول والإيمان بالغيب. من المؤكد أنّكم



ضد أخوّتنا المعرفية الدينية ولكن بطريقة ودية للغاية، وتحبون لو تحدَّثون عن موضوعات أخرى أهم وأرفع من قبيل الأخلاق والعدالة والحرية، وهلم جرّاً مما ينسجم وتطلعاتكم وتستحسنه ذائقتكم في إيقاظ الانطباع بعلو النفس والإحساس بالكرامة البشرية. وهكذا لو تحدث المرء معكم عن الدين، فعليه أن يحفر في بعض الأحيان في أدق ما لكم من مجسّات للتلقي حتى يتمكَّن من إدراك تلك النقطة، التي تختفي فيها نزعة الغريزة المقدسة، وبذا يمكنه أن يجعلها تنتعش بومضات فردية يستجذبها من نفسه. وربما أمكنه أيضاً أن يشق طريقاً يوصل بين أعمق المراكز الضيقة والمحدودة الكامنة فيكم وآفاق ذلك المطلق غير المتناهي في امتداده ورؤاه، كيما يرفع عن نفوسكم، ولو للحظة قصيرة، قلق الشهوانية الحيوانية، ويستبدلها بالوعي العالي بإرادة الإنسان واشتراطات وجوده؛ وبذا يكون قد ربح الكثير. لكني أتوسل إليكم، توجهوا لفطرة الإنسان، إذا رغبتم في اكتشاف البنى العميقة، ونشدان أعلى درجات المقدسات الإنسانية! هذا إذا كانت الغاية هي تعقب المنبع الواحد للمفاهيم المجرّدة والشعور الفطري، القانون الوضعي ووقائع الفعل المعيش، والوصول لما لهذه الأبعاد من مصادر مشتركة، وتمثُّل الحقيقي والتأسيس له بوصفه ضرورة أبدية راسخة في صلب الطبيعة الإنسانية؟

لا يمكن لمن يدرك مواقفكم أن يكون سعيدًا بما فيه الكفاية، وإن تأتى إدراكه عن طريق الأفضل من بينكم؟ ولكن لا ضير لأن هذا بالضبط هو ما تتمحور حوله الغاية النهائية من الدين لأنَّه قادر على إبدال ماهية الإنسان. وأنا لا أريد هنا التأثير في الأحاسيس والوجدانيات الفردية، التي ربما شملت مجالات تكوينكم العاطفي،



ولا إنكار أو تبرير التصورات والرؤى الفكرية الفردية، كلّ ما أريده هو مرافقتكم في نظرة الى الأعماق، تلك التي تخاطب العقل قبل سواه. أن أكشف لكم تلك الفطرة التي نشأت منها أصول الإنسانية، وكيف أنها الجزء الأهم فيما تعدونه الأعلى والأثمن في التكوين البشري؛ أريد أن أرحل بكم لشرفات ذلك المعبد، في عملية إشارية وإطلالة على المقدس، الذي تغافلتموه، في محاولة لاستغواره ومساءلة أسراره. هل يمكنكم حملي على محمل الجد، والاعتقاد بأن أولئك الذين يتخبطون يومياً في مشاق الدنيا، هم الأكثر تميّزاً ومناسبة لأن يكونوا على ثقة ودراية بإرادة السماء في السعادة الأبدية؟ إن الحريصين على فزع اللحظة القادمة، والأعمق ارتباطاً بالقادم من الموضوعات، يملكون عيناً يمكنها أن ترتفع إلى الأبعد من تجليات الكون. وإنَّ من يتخطى التحوُّلات الشكلية لما يقوم به من أفعال فاقدة للحياة، سيكون الأكثر ألمعيَّة في تبصّر النور الإلهي. أنتم وليس سواكم باستطاعتي التوجه بدعوتهم إليَّ، بوصفكم قادرين على الارتقاء على المواقف العامة التي يشترك فيها عامة الناس، ولا تخشون الطريق الشاقّة المؤدية لمغاليق دواخل الإنسان، للوقوف على أسباب سلوكياته وأسس فكره.

منذ أن اعترفت بقصور الاهتمام بالدين وجدت مزاجاً من الخجل والتردد يهيمن على نفسي، وكأني أفتقد جوهرة ثمينة ولا أريد التجرؤ على البحث في آخر مكان تواجدت فيه. ثمَّة أوقات معينة ذهبتم فيها إلى أن كل الأدلة المتاحة تشير الى ضرورة التخلي جزئياً عن الدين، والعناية والإنصات لموضوعات أخرى. إنَّكم ترغبون في تحجيم الدين وترشيق ما له من سعة داخل البنية الفكرية والاجتماعية، على



ألا يفقده ذلك بريق بلاغته اللغوية، لأنكم تحبون الحصول على جنس لطيف من المشاعر المقدسة. ولكن في غياب الدين لا شيء آخر يثير اهتمامي، ولذا لا يسعني إلا أن أشدَّ أنظاركم إليه أكثر، أمَّا عن قضية احتقار الدين وإهماله؛ فأريد أن أدعوكم لتقليب وجوه وطبيعة هذا الموقف وصور تشكُّله. دعونا، إذا سمحتم، نفحص ماهيته ومصادره كتصوّر، وهل المقصود من احتقار الدين كجزئيات أو بشكل كلَّي؟ وماذا عن اختلاف المذاهب والطوائف الدينية، أبما هي عليه في العالم واقعياً، أم بما تعنيه مفهوماتياً؟ لا شك في أن البعض سوف يقول بازدراء: حقل الدين على مستوى المفهوم وبصرف النظر عن اختلاف الفرق والطوائف، ولا ينثني عن الحفاظ الدائم على تأصيل هذه الصفة وهي بعيدة في مضمونها عن الموضوعية، ولم يكلف أحد نفسه لاختبار مدى مصداقيتها أو اقترابها من مسألة الدين بما هو عليه. أنتم تتصورون أن مبدأ الخوف من جوهر الأبدية والتحسّب لعالم آخر، ذلك هو محور الدين كله، وهذا ما تمقتونه عموماً. قولوا لي أيّها الأعزاء من أين جئتم بهذا الأسلوب المنفعل حيال فهم الدين، وبنيتم على أساسه احتقاركم للسنن الكونية في موضوعته؟ إنَّ كلّ مقولات ومنجزات العقل البشري يمكن أن ينظر إليها من نقطة مزدوجة في الفهم. ليس ثمة فهم غير متحرِّك، فإذا ما انصرفت زاوية نظر المتلقي لبواطن الخطاب بحسب المنهج الذي تفرضه طبيعته لا بد لها من أن تتوافق وتوجهاته الداخلية. فالقانون الذي يعمل به الفهم هو نتاج الطبيعة البشرية، التي تجذّرت ضروراتها بالنظر لأولويات ما تفعله مدفوعة بالغرائز، أو بالكيفية التي تفضّلون للمسميات أن تخلع عليها، لأني لا أريد الآن التركيز على ما تستعملونه من لغة بلاغية منمَّقة! أما إذا كانت نظرة المتلقي للموضوع محصورة في حدود



ما يلتزمه من منهجية ومعايير شكلية، لا شك في اختلافها باختلاف الزمان والمكان، فإن تأويل الخطاب يستدعي العودة لسياقاته لأنَّه نتاج للسياق الزمني والتاريخي. والسؤال الآن هو: من أي الجوانب نظرتم لهذه الظاهرة الروحية العظيمة حتى أتيح لكم أن تصموا شكل ومحتوى كل الممارسات التي قام ويقوم بها الإنسان وأدخلها تحت ما اتفق على تسميته بالدين، بهذه الاصطلاحات والمفاهيم؟ ربما ستقولون، وهذا مما لا تستطيعون برهنته، أن ما ذهبتم إليه من تأمُّل هو نتاج الَّلون الأول من التلقي! ولكن يجب عليكم أن تعترفوا بأن شيئاً ما في هذه الأفكار ينتمي على أقل تقدير إلى الطبيعة البشرية، وإذا أردتم القول إنكم تتحدّثون عن الدين بصورته الراهنة، التي نشأت من التفسيرات الخاطئة، أو العلاقات المزيفة التي فرضها انبهار الإنسان بالمسارات العقلانية، فسيكون من المناسب لكم أن تتوحّدوا معنا، لاستكشاف ما هو حقيقي وأبدي، ولتخليص الطبيعة البشرية مما لحقها من ظلم، كونها ستقع تحت وطأة عناء مضاعف فيما لو ضللت أو أساءت فهم جوهر الدين ورأس ماله الرمزي.

ألتمسكم بمقدَّساتكم - ووفقاً لهذه الاعترافات لا بد أن يكون هناك ما هو مقدّس بالنسبة إليكم - عدم إهمال هذا الشأن لكي لا تتخلّى عنكم الإنسانية، التي لا شك في كونكم تبجّلونها معنا، كما تخلّت عن سواكم في أهم مسائل وجودهم، لأنَّهم جرَّدوها من أكبر حق من حقوقها الروحية. وإذا وجدتم أن هذا الأمر هو مما يمكن تحقيقه فعلاً، فلا يسعني إلا أن أتقدّم لكم بالشكر على موافقتكم. من المحتمل جداً أن تصفوا مفهومكم لمضمون الدين بكونه ليس أكثر من وجهة نظر أخرى لهذه الظاهرة الروحية، التي ترون أنَّها لا تقدِّم



عوامل فهمها، ولذا فحقها أن تُحتقر لأن ما يقع في بؤرتها المركزية متفاوت وغير متجانس لدرجة قد لا تجوز تسميته فيها بالدين، وإن هذه الظاهرة المسماة تجوزاً بالدين هي بالتالي فراغٌ لا يعتد به. وهي بصرف النظر عن الزمان أو المكان الذي يحتويها، ليست سوى مظهر من المظاهر الخادعة التي تتجلّى كمشهد أجواء قمعية قاتمة تجثم على جزءٍ من أجزاءِ الحقيقة. هذا هو بالتأكيد الوصف الحقيقي والموضوعي لرأيكم بالدين. إذا كنتم تعتبرون هاتين النقطتين مبدأً معيارياً عن محتوى الدين، في جميع الأشكال التاريخية التي ظهر فيها، فإن هذا يمنحني حق التساؤل في ما إذا كانت لديكم رؤية واضحة لكل المظاهر التاريخية للدين، وفهم صحيح لما يحمل من محتوى اجتماعي؟ يجب عليكم بلورة مفاهيمكم واصطلاحاتكم بما يخضعها لمحدّدات خاصّة بها، إذا كنتم تؤثرون تشكيلها بهذه الدلالة، لكي لا يخفق الآخر في إدراكها، ويجب ألا تنسوا أن منظومة مفاهيمكم هي نتاج تجاربكم الذاتية، فإذا تعرضت للنقد من قبل أي شخص يراها غير واضحة أو موضوعية، لأنَّها تشير إلى شيء آخر ليست له علاقة بالدين، بوصف الأخير ليس بفارغ ولا أجوف، وإنما يشتمل على بؤرة مركزية تستقطب أطرافه، أسوة بغيره من القضايا الموغلة في المعنى، فعليكم الاستماع للنقد أولاً ثمَّ الحكم عليه، لا أن تهملوا كلَّ ما يخالف مواقفكم تواصلاً مع وجهة نظركم في طمس الدين واحتقاره.

لا تغضبوا من الاستماع لما أحدثكم به في هذا المقام، وهو مما قد يشتمل على تفصيلات غير مريحة بالنسبة إلى بعضكم. مما لا شك فيه أنكم على بيّنة من تاريخ حماقة الإنسان، إذ وجد نفسه بمواجهة



المطلق، وقد اطلعتم على الصروح الدينية المختلفة ابتداءً من الخرافات والأساطير ذات المعاني المحدودة، التي تؤمن بها الأمم البدائية حتى مبدأ الربوبية الأكثر نضجاً وتهذيباً. لقد شغلت الإنسان أولوية الوجود ابتداءً من الخرافة الخام التي اعتقد بها الناس، وصولاً لتلك الشرور المتطايرة هنا وهناك، وأجزاء النصوص المخترعة التي نسجت معاً لتجمع قصداً بين الدين والميتافيزيقا والأخلاق، والتي تطلق على نفسها اسم المسيحية العقلانية، ولكنكم تجدون كلَّ هذا سخيفاً وغير منطقي. أنا بعيد كل البعد الآن عن الرغبة في مناقضتكم، بل على العكس من ذلك، قد أتفق معكم إذا كنتم تقصدون بشكل صريح أن النظم الدينية الأكثر تطوراً ذات خصوصية لا تحمل في حد ذاتها أقل من فكر خام، أما إذا كنتم تذهبون إلى إنَّ الإلهية في الدين لا يمكن أن تندرج في نظام معيَّن من الفهم، وسينتهي بها المطاف الى شيء من الاحتقار والازدراء، فلا بد لي هنا من أن أتسبب لكم بشيء من المتاعب، وذلك بالعودة لاختبار كلِّ هذه الأحكام وقراءة ما وقع فيها من تفصيلات. إنَّكم تقدِّمون كل شيء بوصفه جملة من التحولات والمقاربات المتدرّجة من السابق إلى اللاحق، كل فرد يحصل على شيء ملمَّع وصقيل من العصر الذي يعيشه حتى ارتفع هذا الصرح الفني أخيراً وارتقت لعبته لتصل حد الكمال، وقد أسهم هذا القرن في اختصار نمط العلاقة بين الوجود والوعي به لفترة طويلة من الزمن المفترض. ولكن هذا الكمال الفني المتراكم يمكن أن يكون كلَّ شيء، إلا أنَّه لا يمكن أن يكون بديلاً من الدين. وأنا لا أستطيع التحدّث في هذا الشأن من دون إبداء شيء من السخط؛ وفي ظنّي أن كلَّ من يرى قيمة لما تمخض عن حراك العقل الإنساني سيبدي شيئاً من الألم لإسقاط مشروعية الفرادة والتميز عن الدين.



أينما يكونِ الدين يجب أن تكون اشتغالاته جليَّة ظاهرة للعيان، كونها تتحرك على مساحة عقلية فريدة من نوعها تمزج بين كلٍّ وظائف النفس البشرية، أو بالأحرى تفارق بينها، وتضع جميع الأنشطة داخل نسق مدهش لتأمل المطلق. هل تتعاملون مع نظم اللاهوت، ونظريات أصل ونهاية العالم، وتحليلات الطبيعة بوصف كنهاً غير قابل للفهم؟ أين ينتهي كلُّ شيءٍ إلى جدلٍ بارد، ولا شيء يمكن أن يتم التعاطي معه بأسلوب مختلفٍ عن منطق ولهجة الجدل المدرسي الممل؟ في كلِّ ما تقدَّم من الأنظمة المعرفية، التي تحتقرونها، لم يتح لكم أن تجدوا الدين، ولن تتمكنوا من العثور عليه، لأنَّه ليس هناك ولو بُيِّن لكم مكانه الحق، لتفتّقت بصائركم باكتشافه وعظمتموه كما ينبغي له. ولكن لماذا لا تنزلون الى مستوى الأفراد العاديين؟ أنا متعجب من جهلكم الطوعي وأدواتكم البحثية الطرية، ومن هشاشة صبركم ومواظبتكم في تقصي ظاهرة الدين في الأنساق الفكرية والبنى الاجتماعية! إنَّ ما لم تتمكنوا من إيجاده في النظم التي مرَّ ذكرها، كان ينبغي لكم أن تتبينوه في النظام المادي، بشكل كامل غير مجزَّأ. فلكلٍّ مادة ما يربطها بفلك النظام الروحي، الذي لا يمكن لها أن تنشأ من دونه؛ ولكن من لا يعرف كيفيات قراءة هذا الارتباط لا يبقى بين يديه من المادة سوى كتلة باردة لا تحفِّز لفهم أبعد من حدودها. إنَّ البيان الحقيقي الصحيح، الذي لم يتسنَ لكم أن تعثروا عليه في أكبر صور المادة، يمكن البحث عن أولى مظاهر وجوده في المكونات غير الثقافية، التي يمكن أن تكون غريبة على من مثلكم لديه معرفة بسيطة أو عميقة بالفلسفة، وخبرة بمصائر الأشياء. ألا تذكرتم كم قليلون هم أولئك الذي قادهم الشغف والحماسة الذهنية للانحدار في المسارات الباطنية المتوارية من الطبيعة البشرية والعالم، واتخذوا



من تمظهرات ضيائهم الروحي الخاص أساساً لعلاقتهم المتبادلة وانسجامهم الداخلي مع الأشياء، مشكّلين سلوكاً فلسفياً خاصّاً بهم، وربما كان عين المشار إليه من عالم الأشياء - أينبغي لهذا أن يكون هشّاً وسخيفاً أيضاً - قادراً على أن يبلِّغ، بشكل إحساس مرهف، عمَّ يتعلّق باكتشافه وشد الأنظار إليه. ولكنْ للمرء أنظمة مدرسية حجمته، ولو راجع الإنسان بواطنه لألفى قوته من دون الحاجة لمدرسة هي في كثير من عناصرها ليست أكثر من مقعدٍ دراسي ومزرعةٍ من حبرٍ ميِّت على ورقٍ أعزل، لأن العقل ليس مرتبطاً لا بالأكاديميات ولا بالرؤوس المستعدة للتدفق المتتابع للمعلومات التي عادة ما تتبخّر وهي في الطريق من الفم الأول الى الأذن الأولى.

ألا تظنون أن الباني لهذا الجسم الفلسفي الهائل كان قد قام به للفلاسفة وحسب، لأنه أراد أن يذكّي في نفوسهم روح العلم، هلّا عظمتوه بكلمة كلا يا صديقي! للفلسفة المائلة للابتعاد عن نواميس الطبيعة. فكّروا فقط من أنشأ هذه الصروح الفنية، التي تسخرون إن أولئك المتردّدين إزاء فكر الآخر المقبلين على الأمور دونما تبصّر، لا يمكن لهم فهم روح الأشياء، فهي مما يتركز وجوده لدى خالقه، ولذا يتوجب الذهاب إليهم. ولا بد لكم أن تعترفوا بأن الأمر ذاته ينطبق الى حدٍ ما على الدين، نظرًا لأنه بطبيعته بعيد كل البعد عن القوانين المنهجية الصارمةمن قابليتها للتغير، وتسيئون لما لها من تناغم وانسجام، وتعدّون عدم تناسبها مع بعض الميول الصغيرة سخيفاً جداً؟ ثلَّة من عظام رجالات الدين؟ سمّوا لي واحداً من بين كل أولئك قام بمنحنا رسالة أو وحياً جديداً، واحداً لا غير بدءاً من أوّل من فكَّر بالألوهية العامة - أنا أقصد بالتأكيد الأفكار الأكثر قبولاً ومنهجية في كل مجال الدين - وصولاً لآخر المتصوفة، ممن ينبعث من دواخله ضياء نور



حقيقي (ذلك لأني لم أمر على ذكر حاملي كلمة الدين بالأسماء، من أولئك الذي اعتقدوا بخلاص العالم وبشروا بضياء الحكمة، الذين سعوا لصوغ الحياة بزي جديد!). اذكروا لي واحداً من بينهم ممن لم يألُ جهداً ولم يدّخر وقتاً للانشغال بهذا العمل السيزيفي[1]. إنَّ وميض بعض الأفكار النبيلة يشرق على أرواحهم المأخوذة بسنا نارٍ أثيرية، والرعد السحري المرافق لخطابهم يأخذ بتلابيب القلب ويجعل الأرواح تتألّق عالياً، وهي تعلن للبشر الفاني رسالة الإله. ذرة أخصبتها قوة خارقة للطبيعة، أسقط فيها من روحه، فتبرعم منها كلّ شيء واتسعت قدراته وتفجّرت بفعل التقدير الإلهي لتنشر صور الحياة في الكون، ولتتلاشى أمامها قوة ما سواها، ذرة أنجبت شهاباً من آخر أزمنة الشهب السماوية، وأنشأته علامة من أعظم علامات الزمن، علامة لا يجهلها من أهل الأرض أحد، وحقَّ عليهم إجلالها وإكبارها. الأحرى بكم أن تقصدوا هذه الشرارة السماوية، التي نشأت حين مسّت الروح القدس الكون. عليكم الاستماع لها في اللحظة غير المفهومة التي تبلورت فيها، وإلا أخفقتم وفاتكم كلُّ شيء، وأصبحتم كمن يسعى بقطعة قماش مشتعلة لإهماد نار تستعر في حديد وصخر، ثم لا يحظى بعد جهد جهيد بغير بقعة ضئيلة مغبرةٍ لمعدنٍ بارد خام، لم يعد قادراً على إشعاله من جديد.

---

(1) يمثّل عمل سيزيف رمز العذاب الأبدي بحسب الميثولوجيا الإغريقية، وتشير الأسطورة إلى أنّه من أكثر الشخصيات مكراً، حيث استطاع أن يخدع إله الموت ثاناتوس مما أغضب كبير الآلهة زيوس، فعاقبه بأن يحمل صخرة من أسفل الجبل إلى أعلاه، فإذا وصل القمة تدحرجت إلى الوادي، فيعود إلى رفعها إلى القمة، ويظل هكذا حتى الأبد. ومن هنا اتخذ الاسم دلالة العمل الشاق الذي لا ينتهي بغاية. المترجم



أنا أحثّكم على تجاهل كل ما يدعو لخلاف الدين، اصرفوا النظر عما يشتت انتباهكم وركزوا فكركم على هذه الإشارة، التي ستجدونها في كلِّ الأقوال والأفعال النبيلة التي يقوم بها مطيعو الله. ألا تكتشفون في هذا التفصيل أيضاً ما هو جديد ومصيب، إنني آمل ذلك لسبب وجيه آخر لا يمت بصلة لمستوياتكم العلمية أو مدى عمقكم الثقافي، لا تستعملوا أو تطلقوا العنان لأنفسكم لتتماهى مع ما لكم من مفاهيم ضيقة، كونها لم تولَّد من الأفق، وإنما من وجهة نظرة أحادية، أيعقل أن تستمرئوا احتقار هذا الاتجاه الروحي إلى الأبد، أيمكن أن يبدو لكم كل ما هو مهمٌ للإنسان سخيفاً؟ وتأسيساً على كل ما تقدّم من نقاط لا بد لي أن أقول إنَّ احتقاركم للدين هو نتاج لطبيعة خاصة بكم، وماذا عساني أن اقول أكثر من ذلك! لا يساوركم القلق في أني في نهاية المطاف واحد من أولئك الراغبين في الحصول على ملاذي الآمن بوسائلي الشائعة، ولكم أن تتخيلوا حجم ضرورة الدين في المحافظة على التشريعات والنظام في العالم، مع التذكير بمعونة الدين لجعل العين باصرة، ولمنح قصر نظر الإنسان سلطة مطلقة، والحد من هواجسه العنيفة الضيّقة، إنَّه الصاحبة الوفية، وحارس الأخلاق الأمين، بما يشتمل عليه من مشاعر مقدسة، وآفاق مشرقة قادرة على أن تسهل للبشر الضعفاء حلَّ إشكالاتهم مع ذواتهم، وتيسّر عليهم تقوية فطرة الخير في أنفسهم. بهذا المنطق يتحدّث بطبيعة الحال أولئك الذين يدعون أنَّهم أفضل أصدقاء الدين وأكثر المدافعين المتحمسين عنه! إنني لا أريد أن أحكم هنا على أيٍّ من المراتب المتنوّعة للدين وما يتّصل به من حلقة فكرية، وهل توجّهون الكم الأعظم من احتقاركم للمنظومات الأخلاقية، وهي ما يدعم ثبات البنية الاجتماعية، أم للدين ككلٍّ متكاملٍ وهو الداعم للثقافة



التشريعية؟ بأي أساليب الخطاب عليَّ حواركم، وكيف يمكن للمرء أن يسدي إليكم النصح الحاذق ليذكّي فيكم رغبةً داخلية تحفزكم لإعادة النظر في مواقفكم، وتصحيح مساراتكم في علاقتكم بالوجود وبمواجهة الحقيقة؟ هل في الإمكان توجيهكم لقراءة أشياء أخرى، هي مما يثير اهتمامكم واحترامكم على أية حال؟ أو إذا كنتم ترون أن هذه الخطابات هي مما ينبغي أن يهمس في الأذن، فما الواجب عليكم القيام به من أجل الناس؟ ثم كيف يمكن لكم تحقيق ما تدعون إليه في بناء الناس علمياً وثقافياً بشكل يماثل ما أنتم عليه؟ أظن أن غش الناس يبدأ من هذه النقطة، فما معنى أن نؤسّس بين الناس وعياً بقداسة وفاعلية أمر لا يشكّل لنا وجوده قيمة تذكر، ونكون على قناعة بأن الآخر وبمجرد أن يبلغ المرتبة التي نحن فيها لن يتوانى عن نبذه؟ لا يمكنني أن أدعوكم لمثل هذا المسار في العمل، لما يتضمّنه من خبث ونفاق خالص موجّه ضد العالم وضدكم شخصياً كمثقفين، وإنَّ من يريد أن يوصل الدين لهذا المستوى، فإنَّه سيسهم حتماً في اتساع مساحة احتقاره، التي قد يكون خضع لها فعلاً.

المسلَّم به أن المؤسسات المدنية لدينا ما زالت ترزح تحت درجة عالية من النقص، وليس لنا إلا قوة محدودة لا تمكنّا من ردِّ الظلم أو القضاء عليه. دعوني أبلور ما أذهب إليه بالسؤال إذا كان ثمة ذنب جنائي سيقترف أو كفر سيُتَّبع فيما لو توجّب علينا الركون لحقائق الدين وتسخيره للاقتراب من الأنسب والأصلح؟ هل لديكم حقٌّ قانوني في رفض أي وضع يستند وجودهُ للالتزام الديني؟ ألا تشعرون بأن قداسة موضوعة الدين تتلاشى بين أيديكم ويضمحلّ وجودها حال تناولكم إياها؟ خذوا القضية فوراً دونما مقدمات في حال



بدت لكم سيئة للغاية؛ أصلحوا النظم والتشريعات، حركوا الدساتير الجامدة الواحد تلو الآخر، امنحوا الدولة ذراعاً من حديد ومئة عين يقظة، إذا لم تكن لديها، كلُّ ما عليكم هو ألا تجعلوا الدولة تغتر بما لديها أو تخدعوها بكلام مضلِّل. ولكن لا يتعيّن عليكم إدخال مهمة الصياغة العصرية للفكر بما سواها من الأعمال، وإلا فإنكم لستم في وارد معرفي على الإطلاق، ولا تنبروا لتأنيب وتقريع الإنسانية وما لها من طرائق فهم مقدّس في محاولة منكم لغرس شجرٍ غريب عليها لا تعيشه ولا تقبله لأنه مرفوض مستهجن لديها.

حتى الأخلاق، التي تقترب كثيراً من النظم التشريعية، وحاجتها كإحدى أهم أدوات بسط السلطة القانونية المطلقة على كل ما يقع تحت نفوذ الدولة، يتعيّن عليها ألا توجد منفصلة عن البعد الديني. وإنَّ الراعي لهذا التوجه هو من يجب أن يكون قادراً على إنتاجه في كل مكان، وكلُّ من يدَّعي أن هذا لا يمكن له أن يحدث إلا عن طريق رجال الدين، فسيدعي في الوقت ذاته أن رعاة السلطة، هم الوسطاء القيِّمون الذين بعثوا لصب روح الدين في النفس البشرية، وهذا ما من شأنه أن يؤدّي بنا إلى العودة لعصور الانحطاط والظلام!

من الممكن جداً أن تكون علاقة الأخلاق بالدين محدودة نوعاً ما، ولكنَّ من يقيم فرقاً بين العالمين، فإنما هو خادع لنفسه، لأن كل من له دين يؤمن بالتساوي الموضوعي بين هذين العالمين. إذا كانت الأخلاق تفقد بريقها وقوتها متأثرة بما يُلحق بها في كلِّ مرة، فلا يمكن لأحدٍ إنكار ما سيتوارى عن النظم الأخلاقية أمام ما يجتاحها من أساليب دخيلة رسَّخت غرس قيم أخرى ذات صبغة عالية من الغرابة. ولكنكم سمعتم ما يكفي في سياق الدفاع عن السلطة المطلقة



للتشريعات الأخلاقية، وعدم تعلّقها أو تبعيتها لسواها، لكنني أحب أن أضيف، إنَّ أعظم احتقار يمكن توجيهه للدين هو محاولة زرعه في منطقة أخرى لا تنتمي الى جوهره، وجعله في خدمتها، فالدين ليس بحاجة للاستدلالات المنطقية، ولكنه في الوقت ذاته لا يدعو لإقصاء المضامين العقلية. وكذا يرفض الدين أن يوجد ويعيش ويحكم في الأماكن الغريبة عنه، ولا ينبغي له أن ينتهج التوسع بالغزو بغية الامتداد برقعته. لا بد للدين من أن يرتفع بالواقع، مثلما يرغب في ذلك الجميع، وأن تكون له غايات تسدي خدمة جليلة للحرية.

إنَّه لمجد جميل وعزة عالية للسماء في أعين المتشكّكين إذا كانت قادرة على إغفال الشؤون الدنيوية للناس، وربما كان شرفاً رفيعاً للحرية والحياة البعيد عن الدين! هل هذا هو ما يجعل الدين محدوداً بما فيه الكفاية؟ أود أن أشير هنا وبتواضع الى ما يمكن تلخيصه بالاعتراف بأن الأمر ليس بسيئ جداً إذا ما نزع لتصرفات وأفعال غير مشروعة، يحظّرها الدين، أو الأخلاقيات التي يفترض أنها نتجت عن الدين أيضاً، ولكن إذا كان هذا هو الشيء الوحيد الذي يمنح الدين القبول والمحبة والولاء، فلا أحب أن تكون لي به أيَّة علاقة. وعليكم أن تعرفوا أنه مجد وهمي، سرعان ما يختفي حين تتفحصونه من مسافة أكثر اقتراباً، مجد لا يمكن أن يساعد من يتطلع لكمال الجنس البشري.

الدين رهبة وقداسة، حقل لا نهائي للعقل ينشأ بالضرورة من داخل كل روح طاهرة، وينتمي إلى منطقة غامضة غريبة من مناطق النفس البشرية، يسود فيها بشكل مطلق، وأنه يجدر به عبر ما له من قوة موغلة في العمق أن يرمي لتحريك الأنبل والأكثر تفوقاً من القيم، وأن



يكون منهجه معروفاً، هذا هو ما أزعمه وما أدعو لموضعته وتأكيده لكم، والأمر متروك لكم الآن، والقرار قراركم، إذا ما كان هذا الجهد يستحق أن تصغوا إليه وتتخلّوا عن نظرة التحقير والازدراء التي تربطكم بالدين.



الخطاب الثاني

عن جوهر الدين




مكتبة
الفكر الجديد

من غير المستبعد أنّكم على علمٍ بتردّد سيمونيدس[1] عن اطفاء جذوة سؤالٍ إشكالي ملح، طالما لهج البعض بتكراره على مسامعه، السؤال هو: ما ماهيَّة الآلهة؟ وما أروم أن أبدأ به الآن هو شيء شبيه إلى حدٍ ما بذلك التردد، إذ أضع هذا السؤال الواسع في فضاء أكثر رحابة فأجعله: ما ماهيَّة الدين؟

من الطبيعي أن ليس في نيّتي الصمت إزاء هذا التساؤل، كما فعل سيمونيدس، تاركاً الآخر فريسة للألغاز، تتناوشه مشاعر الحيرة والاضطراب، وإنما أردت التردّد كيما أوفِّر عليكم ذلك الانتظار العسير، في محاولة للتركيز على النقطة الجوهرية، التي تشكّل محور البحث عن إجابة لهذا السؤال، وصرف النظر عن أية فكرة أخرى. إنَّ أوَّل ما يفترض توفره فيمن يرغب بالدخول في عالم المعتقدات الأولى «البدائية»، بكل ما يكتنفه من سرية وغموض؛ لاستحضار وضعيته

---

(1) Simonides شاعر يوناني (468-556 ق.م.) تعود شهرته إلى حكمته الحياتية أكثر من طلاوة شعره، فهو يحس بالضعف البشري، ويرى أن على الشعر أن يكون (رسماً ناطقاً)، فجاءت قصائده لتخاطب جميع الحواس عبر مصفاة العقل الناضج. للاستزادة: ينظر الموسوعة العربية. المترجم.



كمقدمة لاستكناه أسراره، هو أن يكون على استعداد تام للتخلي عن كلِّ ما يدور في فلك الدنيويات، لكي يكون مؤهلاً للخوض في لجَّة ذلك الصمت المقدَّس، وألّا يدع لنفسه فرصة الانخراط واللهو بكل ما يمكن أن يقع خارج هاجس التفيؤ بأفنان الدين، لكي يبقي على حواسه مشدودة لتلك النقطة المركزية وذلك المكان المحوري، الذي يُحتملُ لعوالم الظاهرة الدينية أن تتجلى في محيطه.

ما حجم ما يحق لي أن أطالبكم به من طاعة وتسليم، فيما لو قمتُ باستحضار تلك الروح المؤمنة المتمنِّعة الممعنة بالتواري؟ ولأنَّها لا تتمثل أمام نواظركم بمظهرٍ مألوفٍ بالنسبة لكم، فهي بحاجة لتوجيه جلَّ اهتمامكم وتركيزكم، لكي تتعرفوا عليها وتقتربوا من إدراك ما تختص به من صفات، وما يميِّزها من ملامح. لا ريب أنني لا يمكن أن آمل أو أطمح الآن لجعل قلوبكم تتهاوى محبة بالدين، الذي أريد استثارة وعيكم به، ربما أن أجعلكم، على أقل تقدير، تتّفقون معي على رؤية تشكيل جوهره السماوي. إلا إذا وقفتم أمام صرح الدين، بوصفه دائرة مقدسة، وبحواس يقظة متَّقدة، قادرة على استلهام صورته بوضوح وسلاسة، وبحدس يتلهف لفهم تلك الملامح من ذاتها، ولا يكون خاضعاً أو مستدرجاً لذاكرة يشوبها الانحياز والاستئثار لمواقف قبلية عفَّي عليها الزمن. ما أتوق إليه، هو أن أقدم لكم الدين بشكل تقريبي قابل للإدراك، لكي تتمكّنوا من قبوله والتلاحم معه كتجربة حياتية لها مظانّها وحركتها وأسلوبها، ولا تترددوا عن الهتاف بأنكم قد أيقنتم أبعاده ولمستموها في حياتكم هنا وهناك. ولكني في هذه الحال أكون خدعتكم، لأن هذا الجلاء الذي قد يتبدى أمام من يتوسَّل منابع الدين، لا حضور له بين الناس، فلم تشهد الخواص الجوهرية



للدين مظهراً من مظاهر المكاشفة والبزوغ الكامل لفيوضه الروحية. وقد يبدو من الاستحالة بمكان تمييز الأطر التاريخية المتحكّمة بتحديد خصوصيات وأخلاق الشعوب والمجتمعات، المختلفة في درجات تحضّرها، وفي أعمالها وطبائع احترامها لنواميسها، فضلاً عن انشدادها الواضح والأكيد لزخم كبير من المرجعيات، ولا سيما بعد ازدياد وسائل التماسك، إذ أصبح نمط العلاقات بين هذه الشعوب متنوّعاً ومتعدّداً، لكثرة ما تمخض عنه من ارتباطات من كل نوع. وكنتيجة طبيعية لهذه الاستحالة المزعومة بات من الوارد أن تتسع مساحة المخيلة - ربما بأكثر مما ينبغي لها - للاقتراب من جوهر النظم الأخلاقية واستنطاق خبايا تلك الشعوب والجماعات، والتي لا تظهر غالباً إلا بمسارات وعي مجزَّأ ومختلط بما ليس من جنسه، وكذا هو الحال بالنسبة إلى المسائل الروحية، ولعل الأهم والأرفع مقاماً من بينها هو قضية الدين.

لا يخفى عليكم، الشكل المتناسق والمتوائم بين متون النظم الروحية، وما تتوسمه من فعل يراهن على تأسيس وجدان الإنسان على قاعدة من المحبة، لدرجة أن لا شيء من هذه النظم يتحرّك بذاته، بالرغم من أننا نجتهد لكي نفكّر بها مفردة، لأنها وفي كل حركة تتوافق بمجملها وتنحرف عن مساراتها، الملازمة للمحبة والنقاء ومساندة الغير. هذا الأساس المتعالي لحركية مفهوم النظم الروحية عقَّد مهمة تتبع الخط الفكري الملائم لفهمها، فلا يجد المرء في العالم المتحضر عملية قادرة على توثيق اصطلاح الروح، ولو كانت في شكل الحواس أو العقل أو الأخلاق أو الدين. لذلك لا تكونوا مستعجلين غضوبين، ولا تعدّوا خطابي احتقاراً للحاضر، إذا عدت بكم ولأجل التوضيح



إلى أزمنة مبكرة، حين كان انفصال المفاهيم في ما بينها سمة جوهرية لها موقع الصدارة، ولذا بدت الحدود أقرب واقعاً. إن ما أريده أولاً، ولا أكلّ من تكراره على اختلاف الطرائق، هو أن أحذّركم من خلط الدين، الذي هو عماد الأحاسيس وسنامها، بما يشابهه أحياناً، وبعبارة أدق بما تجدونه وفي كل مكان مختلطاً به.

إنَّ استنادكم لأرضية ميتافيزيقية وأخلاقية، سيكشف لكم أن الرؤيتين، أعني الميتافيزيقية والأخلاقية يتّصلان بالدين في وحدة الموضوع، وهو تحديداً الكون وعلاقة الإنسان به، ولكن هذا التعادل الموضوعي كان ولم يزل سبباً في ضلالات واضطرابات وأخطاء متباينة. وكنتيجة للتناظر في تأمل المعطى الموضوعي، وما يكتنفه من اضطراب في آلية بسطه، تسرَّب للدين الكثير من الميتافيزيقا والأخلاق، وثمة ما هو من جوهر الدين اختفى وتلاشى في مطاوي الميتافيزيقا والأخلاق، بشكل ما كان ينبغي له أن يقع.

هل ثمَّة ما يشدِّكم للإيمان بأن الدين حقَّه أن ينصهر بإحدى الرؤيتين؟ أنا أعرف أنَّ فطرتكم ستشهد لكم بغير ذلك، ولعله مما ينسجم مع آرائكم، لأنكم لا تعترفون بدينامية الدين وبكونه يتبرعم ويتحرّك على أرض خصيبة وبخطى أكيدة، تشبه خطى الميتافيزيقا، ولا يمكن أن تعترضوا أو تعرضوا عمَّن لا ينتظر مبرراً لجعل تاريخ الدين ممتلئاً بعدد لا حصر له من العوالم السيئة وغير الأخلاقية. ولكن مهلاً! إذا كان ثمَّة ما ينبغي للدين أن يتميَّز به عن الرؤيتين السابقيتين فمن اللازم له أن يختلف بشكل أو بآخر - وعلى الرغم من وحدة الموضوع، التي أقررناها آنفاً - في: إن جوهر ما ينهض به الدين هو معالجة سؤال الوجود وعلاقة الإنسان بروح الكون، الذي



يأخذه لمسارات فهم الألوهية بأسلوب آخر، وإنَّه في اشتغالاته على هذه الموضوعة يشيِّد ويعكس علاقة تمجِّد فطرة الإنسان، وهي علاقة مختلفة عن صلة الميتافيزيقا بالإنسان. ثمَّ إنّ للدين، وبلا أدنى شك، من ناحية أخرى أصوله ومنهجيته وأهدافه الخاصة. عن هذه الطريق وليس عن سواها يمكن الحصول على طبيعة ووجود منفرد ومستقل للدين، يتجاوز ضروب المعرفة التي تهتم به لصالح سواه، مما يكون قد تماثل معه في وحدة الموضوع.

اسمحوا لي أن أسألكم عمَّ تخبركم به ميتافيزيقيتكم، أو فلسفتكم العقلية حيال الغيب، فيما إذا رفضتم التعاطي مع مصطلح الميتافيزيقا لأنه قديم أو تاريخي بالنسبة لكم؟ تقسم الميتافيزيقا الكون وترتّبه بشكل أو بآخر، تبحث في مبادئ وأسباب الوجود، تحاول تفسيره لاستنتاج ضرورة مثول الحقيقة، وما يتمخّض عنها كواقع الحياة وقوانينها. وتلك منعرجات لا ينبغي للدين أن يخوض غمارها، ويجب عليه ألا يظهر ميلاً لتحديد وضع الكائنات بمواجهة الطبيعة، لئلا يتخبّط في تعقيد شروحات؛ لأسباب وعلل تبدو لا نهائية، في ما تثيره من جدل وخلافات، في التماس الأسباب النهائية، والتعبير عن الحقائق الأبدية. وما الذي تفعله الأخلاق بالنسبة إليكم؟ إنها صياغات حاذقة تطورت وتأصَّلت من خلال طبيعة الإنسان وعلاقته بالكون، وهي أيضاً بنية من الالتزامات والواجبات، ومن بين خلاصاتها الأساسية أنَّها تأمر وتنهى، وتحظّر الفعل أو التعامل مع السلطة المطلقة. وهذا المجال هو أيضاً مما لا يجرؤ الدين على أن يدلف إليه، إذ لا ينبغي له تسخير شبكة فهم روح العالم؛ لابتكار ونسج جملة من الواجبات والالتزامات، كما لا يجوز له أن يتحول



إلى لائحة تحتوي على مدونة للسلوك القانوني وعلاقة الإنسان بوجوه السلطة. «يبدو لي، حتى الآن، أن ما يطلق عليه اسم الدين، هو ليس أكثر من شظايا لعلاقات تفاعلية تخضع لهذه المجالات المختلفة». وهذا بالطبع هو المصطلح الشائع، وإذا كنت قد وجَّهتكم من قبل لسبل الشك بهذا الاصطلاح، فأنا أرى الآن أنَّ الوقت مناسب لتدميره تماماً.

المنظِّرون للدين، الساعون لإدراك طبيعة الكون وفهم المطلق في منظومته الوجودية، هم ميتافيزيقيون إلى حدٍ ما، ولهم ما يكفي من المثل، لمعرفة أنَّ الأخلاق ليست شيئاً محتقراً، ولكنَّهم متديِّنون، تحتل مشيئة الله المركز الرئيسي في ممارساتهم، وهم بشكل أو بآخر أخلاقيون، يشوب تعاملهم قليل من أسلوب الميتافيزيقيا. وأنتم ما إن تستهويكم موضوعة الخير حتى تحملكم إلى الميتافيزيقيا؛ بوصفها قانوناً لطبيعة المطلق المتحرّر وغير المحدّد أو المقيِّد بالحاجة لما سواه، ثمَّ إنَّكم تقتطعون فكرة وجود وجوهر ذلك المطلق من البعد الميتافيزيقي لتغرسوها في آفاق الروح الأخلاقية، متوسلين بالأخلاق أن تضمن لهذا الكل اللامتناهي ألّا يبقى مجهولاً، وأن تتمثّل في قانونه الميتافيزيقي صور السلطة التشريعية والأخلاقية. ولكني لا أشاطركم هذه الحيرة، وأقول لكم: اخلطوا مثلما تريدون، ومازجوا على النحو الذي تشاؤون، إلا أنّكم في النهاية لن تتمكنوا من الجمع بين موضوعتين، لا يمكن لهما أن يسيرا جنباً إلى جنب. إنَّكم تمارسون لعبة فارغة مع مسائل لا تنتمي إحداها للأخرى، ولا يكتسب بعضها شيئاً من بعض، وإنَّ ما استبقيتم على وجوده دوماً هو الميتافيزيقيا والأخلاق، ولم تنبروا لبناء فهم لأي شيء سواهما. هذا



الخليط من الآراء حول الكينونة الكبرى أو الكون، وما يقدمه لحياة الإنسان من مرجعيات ضرورية، هو ما أطلقتم عليه اسم الدين! أمّا فاعلية النزوع للفطرة والغريزة، بالإضافة إلى تبنّي فكرة الحساب والعقاب، وما لهما من تفسيرات متباينة تدخل في الهدف النهائي أو الحقيقي من وجودها؛ فهو ما أطلقتم عليه اسم التديُّن! ولكن كيف تسنّى لكم الوصول لهذا التصنيف، وهذه المختارات الجامعة «كرستوماسي Chrestomathie»[1] الموجَّهة للمبتدئين؛ لغاية الحفاظ على ما يستندون إليه من أعمال، فضلاً عمَّا لهم من قدرات تميِّزهم كأفراد؟

تحدوني رغبة في أن أثير فزعكم قليلاً من خلال طرح بعض الأسئلة السقراطية، والتعاطي مع ذخائر التراث من منظور يجعلكم تعترفون بتقصيركم عن أن تحيطوا علماً بالمشتركات المبدئية، التي يجب أن تترتّب على أساسها مواضع التماثل بين الموضوعات ذات الطبيعة المتداخلة في الفهم، وكيف تتباين أسس هذه الموضوعات في الوقت ذاته؛ لتكشف عن خصوصية كلّ موضوعة عن سواها. على أنكم لا تحبذون إقدامي على استعمال هذا الوعي ونظائره هنا، كيما تتسنّى لكم مواصلة نهج المرح والمزاح في التعامل مع الحياة والعالم، في موضوعة هي قطعاً من أخطر وأكبر الموضوعات. ولكن أين تكمن وحدة الفهم في هذا كلّه؟ وكيف لا يتجلّى لكم مبدأ التقاطع بين هذه

(1) كرستوماسي Chrestomathie: مصطلح يوناني قديم يعني المفيد والمؤسس للمعرفة، وغالباً ما يطلق على الكتب الموسوعية الجامعة التي تضم بين طيّاتها مجموعة من النصوص المختارة لمقاطع أدبية وتاريخية وقصصية وغيرها، مما يخدم غرض تعلم لغة أجنبية أو الوقوف على تعريف ظاهرة فكرية أو فلسفية. المترجم.



المواد المتباينة؟ هل لموضوعة الدين قوة جذب غريبة؟ عليكم أن تعترفوا بالدين بوصفه النقطة الأعلى في هرم الفلسفة، وما الميتافيزيقا والأخلاق إلا موضوعات جانبية تابعة له، دائرة في فلكه، لأن الشعور بالمعنى الجوهري للدين لا بد أن يشتمل ضمناً على ظلال هذين المفهومين المتقابلين، ومن هنا فإنَّهما «الميتافيزيقا والأخلاق»، واقعان بالضرورة في محيطه وتوابعه. أما إذا كان جوهر الدين ومبدأه المتبنّى من وجهة نظركم يرتبط بالميتافيزيقيا بشكل ملزم لمدارات وجوده، ولديكم الأسباب الأخلاقية العليا التي تكفي للاقتناع بفهم الوجود الإنساني من دون اشتراط الدين، فإنكم بهذا الاعتراف تنسفون الفلسفة العملية، وتبرهنون على أنها والدين معها، ليستا إلا فصلاً صغيراً من النظرية الميتافيزيقية. وإذا رغبتم بادعاء عكس ذلك؛ فهذا يعني أنكم تقرون بأن الميتافيزيقا والدين قد ابتلعتهما الأخلاق، وهي بالطبع المبنى الأكثر أمناً بالنسبة لكم، وهكذا سلَّمتم بالاعتقاد بها منذ زمن بعيد، على أنَّكم وما إن عدتم لاختبار سرائركم، فسرعان ما تجدون أنها كافية لأن تكون ملاذاً عميقاً، يكفي لاحتضان سر محبة عالمين متلازمين. أو ربما أردتم القول بأن الميتافيزيقيا في الدين ليست لها علاقة بالأخلاق، أو أن الأخيرة لا رابط لها بالظاهرة الدينية، هلّا أدركتم توازناً رائعاً يمكنه أن يدخل هنا ليكون حلقة بين النظرية وتطبيقاتها العملية، إن إدراك هذا التوازن وتمثّله في الحاضر، يعني الدين. ولكن هذا التحليل هو بطبيعة الحال غير واقع لا في الفلسفة العملية، لأنَّها غير معنية به موضوعياً، ولا في الفلسفة النظرية، بوصفها تسعى وبحماسة واضحة لتحقيق تتبع النشاط الديني لمسخه وتدميره، أنّى أتيح لها ذلك، وهذا ما تبدو عليه مهمتكم أيضاً.



ولكني أعتقد، أنكم سائرون في بحث دؤوب، تدفعكم الحاجة إلى الادراك، وتمور بكم روح لائبة، بحثاً عن فلسفة عليا يمكنها أن تجمع في مبانيها هذين الاتجاهين وتوحّد بينهما، ولشدَّ ما كنتم على وشك العثور عليها، وهذا من شأنه أن يكون الأقرب إلى الدين. وهل في الدين حقاً ما يوجب فرار الفلسفة منه، كما يحلو للمعارضين أن يزعموا؟ ولكن عليكم احترام ما تتحدّثون عنه، فإنكم إما أن تحصلوا على الوعي بالدين، بوصفه يرتقي على الفلسفة، كما هو الحال في الوقت الراهن، أو يجب أن تكونوا صادقين، لتحدّدوا كلَّ اتجاه من هذين الاتجاهين، أي الأخلاق والميتافيزيقا بما يخصهما بالفعل، وأن تعترفوا بما للدين من فضاء يسعى للولوج إليه. لا مناص من الإقرار بأنّكم لا تعرفون شيئاً عن الدين. وأنا لا أريد الوقوف بوجه ما تنافحون عنه وتتعصّبون إليه في الانجذاب للفلسفة، لأني، وببساطة شديدة، لا أحب أن أشغل مكاناً لا أستطيع التمكّن منه واستلهام معطياته على أحسن حال، على أنكم في النهاية لا بد أن تفهموا ماهية الدين. فقط دعونا نتعامل مع بعضنا البعض هنا بصدق ورويّة. أنتم لا تحبّون الدين وتأنفون مسَّه كتجربة ولو من بعيد، وهذا مما لا نختلف في النظر إليه، ولا سيما في ما تبدَّى في الآونة الأخيرة؛ ولقد ترجمتم عدم محبتكم له بأسلوب قادكم لأن تتغنوا بخوضكم حرباً صادقة ضده، وهي نزعة لا يمكن وصفها بالفارغة من جهد استثنائي. ولكنّي لا أظن أنّكم تريدون محاربة ظلٍّ متجذرٍ في الوجدان، يشكّل وجوده ومنهجه موضع كفاح بالنسبة إلينا؛ ألم تلتفتوا لأهمية طاقة الدين وخصوصيته في صهر الأضداد بمعنى كلّي ممتدٍّ؟ ثمَّ قدرته على التشكّل والتموضع في قلب الإنسان، كهاجس يمكن تصوره، هاجس يترك لمتأمله فرصة أن يثبت له أرضية واصطلاحاً يطاوع من يروم الحديث عنه أو التجادل



فيه. إنني أجد ظلماً وتجنياً واضح المعالم في إصراركم على أن تخيطوا من مثل هذه الأشياء المتباينة، أعني الأخلاق والميتافيزيقا، رقعة لا يمكن التعاطي معها أو الدفاع عنها، ثمَّ تطلقون عليها اسم الدين. أولم تعلموا أنَّكم بهذا إنما تقدمون على خلق تصورات واهمة لا لزوم لوجودها أو الانشغال بها على الإطلاق؟ ستكونون كاذبين إذا ما ادعيتم عدم الانتباه لهذه الإشكالية. ستطلبون منّي طيَّ جميع مصادر الدين - لأني تخلّصت من مجمل النظم والتفاسير والتعليقات والاعتذارات - ابتداء من طلاوة تلك القصائد الجميلة التي جادت بها قرائح اليونانيين، وصولاً للكتاب المقدس عند المسيحيين، أوَتروني عاجزاً عن تبيّن صورة الإله وإرادته في شتى نواحي الطبيعة، وتلمّس مظاهر الثناء المقدسة والمباركة، تلك التي تمجِّد الخالق، أنَّى تبصّرت وفرزت ما يعتوره التشابك في الآفاق؟ ولكن هذا هو بالضبط ما قلته لكم، وهو أن الدين لا يظهر أبداً بصورته الكاملة النقية، إذا ما لحقت بقسط وافر منه أجزاء غريبة لا تنتمي إليه، وأنه من المفترض أن تكون مهمتنا هنا هي ترسيخ معنى الدين وتخليصه مما التصق به. ولكن العالم المادي لا يقدم لكم المادة الأولية اللازمة، كمنتج طبيعي خام، وإنّما كهدف لا نهائي يجعل من فن تحليل الطبيعة قابلاً للتحقق - ولطالما توجّب عليكم التأمل العميق، كما هو الحال في القضايا الفكرية المقدّمة هنا، والتعامل مع أمور صعبة للغاية لا يتمخض عنها إلا أشياء بسيطة، ربما كانت مركوزة بالذات سلفاً - وإن الأصل في المسائل الروحية بالنسبة إليكم لا يخرج عن كونه مما تخلَّق وتجذّر إنشاؤه من قبلكم، وإنَّه أصل لا يعدو حدود السياق الزمني الذي انبثق منه. أدعوكم لأن تقتربوا من ذواتكم، أن تنصروها وتباشروا تفهمّها على نحو أفضل، صدِّقوني أنكم ستمرّون بتجربة لا يمكن لكم



نسيانها. يبدو أنَّ تداخل الميتافيزيقيا والأخلاق بالمصادر والأصول الدينية ليس مجرد قدر لا مفر منه، وإنّما هو نظام مصطنع يبطنُ مقاصدَ ونيات ذات مرامٍ، تخضع إلى المزيد من الالتباس. إنَّكم على علم بقراءة ما بين السطور! كل الكتب المقدسة هي بشكل أو بآخر لا تختلف عن سواها من سائر النصوص الأقل شأواً منها، التي نتداولها في بلادنا هذه، والتي تخفي وراء عناوينها البسيطة معالجات لأمور غاية في الأهمية. أنتم تصرّحون علناً بالميتافيزيقيا والأخلاق فقط، وتحبّون في نهاية كلِّ مطاف العودة إلى ما أعلنتم عنه سلفاً، ولكنه من الراجح جدّاً أن تُقبلوا على كسر هذه الصَدفة. وعندها سيبدو الأمر لكم كما لو أنَّه رحلة بحث عن الألماس، وكيف تغلفه غالباً كتلة حجرية لا تثير الفضول، ولكن الألماس بالتأكيد لن يلبث محاطاً بما يثقل على كاهله، ويسد عليه منافذ الإفصاح عن وجوده إلى الأبد، ولعل وجوده داخل هذا المكمن لم يكن أصلاً إلا للإشارة إلى رغبته في أن يُبحث ويُكتشف.

إنَّ التعامل مع نقص المسلمات والخلفيات، والارتداد عن المعتقد بوصفه كفراً وإلحاداً، أمرٌ عميق ومتأصلٌ جدّاً في شخصية الدين، والذي يقول بخلاف ذلك، يمكن أن يكون له غرض آخر، وهو مما لا نطلق عليه خدعة المتدين أو احتياله وحسب، وإنما هو وسيلة مقبولة للتظاهر بالقلق وإبداء الحماسة لفهم المعنى المتواري وراء هذا الارتداد. مجمل ما يقدمه الدين من رسائل وتبليغات لا تخرج عن دائرة فن الخطاب، الذي يتوق لكسب اهتمام المتلقّي وجره إلى المنطقة المراد له أن يكون فيها؛ باعتبارها أحسن ما يمكن للمجتمع أن يظهر عليه من صور. ولكن الأداة الخطابية البليغة لم تحقّق الغرض



المبتغى منها كلغة وحسب، وإنَّما تجاوزته إلى الدرجة التي غطت فيه على مضمون هذا الخطاب ولبه الحقيقي، ومن هنا بات الأمر ملتبساً حتى عليكم. ولذلك، فقد حان الوقت الآن للتعامل مع مسألة تحديد الفعل القرائي من طرف ووجهة نظر تتجاوز حدود الخطاب وتحرص على البدء بالتناقض، الذي يضع الدين في موقف الضد من الأخلاق والميتافيزيقا. هذا كل ما أردت قوله الآن في سياق ما أزعجني في استعمالكم للمصطلح بشكل عائم، لا يفرّق بين اللب والقشور، العرضي والثابت؛ وهو أمر مرفوض تماماً، وآمل ألا يقاطعني بعد الآن أحد.

إنّكم ترفضون كلَّ تفسير وتنبذون أية محاولة يمكن أن تؤول بالمتلقّي إلى زعزعة ما تظنون أنَّها بنى أفقية وعمودية لقناعات تتربعون على عرشها وتدافعون عنها بإصرار. وإنَّكم لا تنشدون الكون بطبيعته، ولا تشرحون كيفيّاته ومحدّداته، كما هو الحال في الميتافيزيقا. ثمَّ إنَّكم لا تنتشون لقوة الحرية؛ لإعلاء شأنها وأعرافها، ولممارسات الحكم الإلهي للخلق، ولستم على استعداد للمضي على هذه الطريق كما هو الحال في الأخلاق. إنَّ الجوهر الذي يقوم عليه فهمكم لهوية الدين ومركزيته يجب ألا ينتمي لا للفكر ولا للمعالجة الفلسفية، وإنما يقترب من قيم الحدس والشعور. الحدس بوصفه علاقة فطرية ترتبط بالكون، وما له من مظاهر لا يمكن عقلنتها، والمعالجات الفلسفية تلتصق بنوع من المعرفة، يتلصص ويصغي لوعي العقل البشري بما يحيط به، حتى في طفولته المبكرة. ولذلك فإنّ فهمكم معاكس للاثنين في مجمل ما يقوم عليه من أسس، وفي كلِّ آثاره، التي ما فتئت تظهر الإنسان مركزاً لجل ما يحكم الكون من صلات وعلاقات،



وشرطاً وحيداً لكلِّ ما كان وسيكون. إنّ الأساس الذي تريدون هو رؤية الإنسان كنهاية للّامتناهِ، وبصمة للمطلق بصورته المدركة.

بيت القصيد هو أنَّ الميتافيزيقيا تستند إلى الطبيعة المتناهية للإنسان، وتريد، من أبسط صورها كاصطلاح له، قابلياته وطاقته الدلالية، أن تعيّن إطاراً للوعي ينتقل من الحدس إلى العقل، لتمييز ما يعنيه الكون بالنسبة للإنسان، وضرورة ما يجب أن يلمحه فيه. أما الدين فهو الآخر يعيش حياته في الطبيعة، ولكن في الطبيعة اللانهائية للوجود، بالمفهوم المطلق للوجود، وما يشتمل عليه من مظاهر وصور وتعبيرات، ولذا فالدين يقود كلَّ فكر، ويدخل في تكوين الخميرة الأبدية للأشياء والأشكال الفردية، وحراك وتفاعل الكائنات. الأخلاق متعلّقة بالوعي بمغزى الحرية، والذي تحاول الامتداد به إلى ما لا نهاية، لجعل كلّ شيء منقاد لها؛ وهنا يتنفس الدين، حيث تصبح الحرية، مرة أخرى، هي الطبيعة فعلاً، هي اللعبة المرسخة للشعور بوجود الذات، وما وراء اللعبة، وما لها من خصوصيات وقدرات تطبع فهم الإنسان وتضعه في البؤرة المركزية التي تؤهّله للوصول إلى الأصول والمبادئ، حيث لا بد من أن يكون فيها ليبدو على ما هو عليه، أرَغِبَ في ذلك أم لم يرغب. إنَّ ما يزعمه ويؤكده الدين هو أنَّ طابعه ومنطقه الخاص به، من دون سواه في صوغ الظاهرة الإنسانية، لا يتأتى له إلا من إفصاحه عن نية خروجه الكامل أو تخلّصه التام من التكهّنات، ثمَّ الممارسات العقلية الصرفة على حدٍ سواء. وفي الوقت الذي يضع الدين نفسه في موضع تجاور وتماس مباشر مع هذين الاتجاهين، وأعني الأخلاقي والميتافيزيقي، يكون قد ملأ المساحة الأوسع داخل الوعي الاجتماعي، وأشبع حاجة مهمة تدخل في صلب الطبيعة البشرية.



يكشف الدين عن ضرورة حضوره كطرف ثالث، لا غنى عن وجوده؛ بوصفه مقابل الطبيعة ونظيرها، وهو لا يقل كرامة ومجداً عمَّ تستغرقون به وتقتربون منه. وإنَّ من يشايع الرأي القائل بوجود العقائد والممارسات والتصوّرات والتجارب الروحية من دون أن يكون لها دين، يعني أنّه يدخل هوة من الغطرسة والتهوّر، والعداء الصفيق ضد الإرادة الإلهية. فلا يمكن اختزال شعور الإنسان بلا نهائيته، بنزوعه للخلود، وبشبهه بالإله الذي يشدّه ويخطفه، وهو شعور يترك لإغراء الظلم مساحة للنمو، ما لم يدرك الإنسان قابلياته ويعي حدوده، قدره، وسلسلة مصادفاته، وذلك الصوت الخفيض الكامن في وجوده اللامتناهي.

التجربة العملية للدين هي كون مفتوح، ينتج بشكل لا متناهٍ، إنَّها ضرب من الفن، أما التكهّن بالنظام العقلي الجدلي فهو العلم. والدين هو الإحساس بالتواصل مع المطلق، والطعم اللانهائي للمعنى، ولا يتحقق فهم الدين من دون كمال هذه الدائرة. كيف أقدمتم على المغامرة برفع جزء منها لتجعلوا من المتبقي كلاً متكاملاً؟ ألم تتنبّهوا لعري هذا المعنى، لهزالته حين يمثل وحيداً، وكأنه هيكل عظمي جامد؟ لماذا تتناسون قصداً كل ما يتعلّق بالنشاط الفعلي للوجود لدى الإنسان؟ ألا ترغبون في النهاية بالحصول على تشكيل صورة الإنسان نفسه والنفاذ لأعماقه؟ ولأنكم تضعون الإنسان في طرف مقابل للوجود، وليس الوجود ذاته، لا تقبلون فكرة كونه ذلك الجوهر الروحي المستقل والمقدس الذي قدّمته يد الدين. لشد ما يدهشني تمسككم بهذه الرتابة المفرطة، لماذا تصرّون على فكرة واحدة دون سواها، وتحاولون إشاعتها أو إقحامها في فضاءات أعمق منها؟



ألأنكم تفتقرون أساساً لتدبر الصّورة الذهنية اللانهائية للكون، ولما تنطوي عليه من رمزية متنوعة ومتفردة في الآن نفسه. آمل أن تدركوا رويداً رويداً، أنّ كلّ متناهٍ يكتسب محدوديته من نظم واشتراطات حدوده، التي لا بد أن تفصل بينه وبين أن يكون لا متناهياً، وهي الصورة المعرفية وشرطها القبلي؛ لأن يكون اللانهائي نهائياً، إذ يتشكّل جوهر وجوده عبر تموضعه في حدوده. لماذا لم تفتح لكم قدرة الافتراض والتكهن التي يفرضها العقل مادة لتغيير مظاهر الوجود، على الرغم من قدم عهدكم بها بدلاً من الكلمات والخضوع للمصطلحات، شيئاً من البصيرة والتأمل؟ ما الذي أودى بها لأن تكون مجرّد لعبة فارغة لجملة من صيغ ثابتة، تأبى أن تتبدّل أو تناسب شيئاً مما تدعي أنّها تعالجه من مبادئ كلية للكون؟ لأنّها سبلٌ وتكهنات تفتقر إلى الدين، ولأن الدافع المحرِّك لها ليس الشعور باللامتناهي، والشوق إليه، والإحساس بالخشوع أمام وجوده في باحة الخليقة والخضوع إليه، والتسليم بإرادته كأداة لمواجهة هذا الضغط الهائل. التأمّل والتأويل لا سواهما هما ما يجب أن يكون مركز ثقل الفهم، أما من يفتقر لهذه البصيرة، ملكة التأمل فهو بعبارة أدق يفتقر لحجر الصوان، الذي يمكن أن يشكّل محكّاً تختبر على أساسه المعرفة.

كيف يمكن لقراءة تتغيا الافتراض والتكهن العقلي أن تظفر بيقين المعرفة المثالية الكاملة، إن لم تنط بالدين مهمة حفظ توازنها، وجعلها أكثر واقعية من تلك المرتهنة لمعايير معقلنة، يتجرأ البعض وبجسارة على منحها الحق المطلق في الوجود. هلّا ضحيتم معي بما طرحه كبير منتقدي المقدّس وشيخ الملاحدة سبينوزا، الذي تخلخل لديه الفهم العالي للوجود وللروحانية، فكان المطلق بدايته ونهايته!



تأملوا الوجود، وأنا أطلب منكم أيّها الأصدقاء أنْ تمعنوا النظر في هذا المصطلح «التأمل»، لأنّه الملاك الذي يحتضنُ خطابي كله، وهو القرينة المنشطة لفهم الدلالة الأكثر شيوعاً والأكبر التصاقاً بالحوار الديني، ولذا يمكن لكم أن تجدوا صداه متردداً في المواضع التي تناقش فيها كيفية البحث في موضوعة الدين؛ بصرف النظر عن حدوده أو طبيعته. ولا بد من التأكيد هنا على كون المُتأمِّل واقعاً بالضرورة تحت تأثير المُتَأمَّل، وتأويلاته لمادة تأمّله لا تنطلق غالباً من علاج موضوعة التأمل باستقلالية تامة، غير خاضعة ضمناً لقصدية المتأمِّل، ولما هو سابق على المادة مما امتصته في بنيتها ونسيجها وقصدها ومعناها، من حيِّزها وسياقها داخل النظام الطبيعي لوجودها، والذي تشيِّد على أساسه مسلمات فهمها. وحري بي هنا أن أذكّركم بأنَّه إذا ما لامس الضوء أو أثره شيئاً من أجسادكم - وهو حدث يقع من دون تنظيم أو تخطيط مسبق منكم - وإذا كان أصغر أجزاء أجسامكم، لنقل مثلاً قمة أناملكم، لا يتأثر بكلٍّ ما يحيط به من وجود ميكانيكياً أو كيميائياً على وجه الخصوص، وإذا ما أدركتم الجاذبية الأرضية وما تشكّله من ضغطٍ على قدرات الجسد وكيف يعجز الأخير عن كشف مقاومتها، فإنَّ كل هذا هو مما يستعصي عليكم فهمه وتأمله وتأويله بذاته الطبيعية، وإنَّ كل ما يمكن فعله حياله هنا هو ليس تأمل طبيعة الظاهرة، وإنما التعاطي مع أثرها على الجسد. إنَّ ما تعرفونه أو تعتقدون به إطاراً لكل هذه الظواهر يقع في مضمار بعيد جداً عن منطقة الحدس. هكذا هو الدين، إنَّه الكون بكل ما له من صور ونشاط مستمرٍّ، يكشف لنا عن نفسه في كلٍّ لحظة، أي شكلٍ من الأشكال التي ينتجها الكون، وكل كائن من كائناته هو فصل من فصول الحياة، ومن هنا تأتي ضرورة حضور الدين، فيه يتسنى للإنسان تقبّل فكرة



أنَّه جزء من هذا الكل، ويكون المحدود أو النهائي ماثلاً أمامه؛ كما لو أنه مطلق لا متناهٍ. أمّا الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك، ونعني هنا الإيغال في إرادة اختراق جوهر الأشياء، والتنقيب عميقاً في طبيعتها، فهذا كلّه مما لا يمت للدين بصلة، وإذا كان من الضروري لنا الآن أن نصف دخول شعاب كهذه، فلا نتردّد في القول بأنَّه بالنسبة إلينا ليس أكثر من غرق قصدي في ميثولوجيا وأساطير فارغة. هذا ما كانت عليه صورة الدين عند القدماء، حين كانت مظاهر الخضوع لقيود ولصياغات ملغزة للزمان والمكان ماثلة لديهم في كلِّ اتجاهٍ، لقد كانت لهم نظرة متفرّدة وخاصة في تعاملهم مع الكون في وحدته، وكانوا يطلقون عليها اسم العقيدة. الدين بالنسبة إليهم ذلك الهاجس المساعد على التعامل مع الحوادث والوقائع من خلال الصلة المباشرة مع الإله صاحب العلاقة مع الحدث، ويجب ألا ننسى هنا أن قوانين الحياة قد تكشف عن نفسها بشكل عرضي ومعقول أيضاً، في ما تخلقه هذه الصلة من توازن. لم يكن إذاً وجود الإله منفصلاً عنهم، لأنهم من وضعه ومنحه كنيته، وأقامه وشيَّد له مأواه أو معبده، كانوا قد تصوروا فيه حقيقة من حقائق الكون، وعكسوا داخلها فرديتهم وهويتهم. لقد كان الدين مرتفعاً متربعاً على عرش الحياة في الأزمنة التي ساد فيها منطق القوة، على الرغم مما تشتمل عليه من التفاوتات والشروخ والانكسارات. ولكن، وإن كانت لديهم وقائع تاريخية رائعة عن أصول هذه الآلهة، أو أنَّ اعتقاداً متأخراً يقدم لنا في وقت لاحق سلسلة من المواقف والانبعاثات الصادرة عن تلك الوقائع، فهي بالنسبة إلينا لا تتجاوز حدود كونها سرداً يقترب في ذاته من أساطير فارغة. الطبيعة الألوهية تعني تصور كلّ حوادث الكون من أفعال الله، وتعني ديناً يعرب عن علاقته بالشرط النهائي لوحدة



الوجود المتكاملة، ولكن هذا التصور قد يشي بالبحث عن كينونة هذا الإله؛ بوصفه قبل الكون وخارج منظومته، هكذا تصورات، وإن كانت جيدة وضرورية في الميتافيزيقيا، إلا أنّها في الدين أيضاً محض أساطير فارغة ليس إلّا، لأنَّها لا تقع خارج حدود التنافر والخطأ والتناقض. كانت العقائد على امتداد الزمن وستبقى قضية فردية تفرز تصوراً آنياً، ولا شيء أكثر من ذلك؛ أما أن نجعل تلك العقائد وصور حدسها هي الدين أو أن نربطه بوجودها، فهذا من جديد مما يترك مجالاً للمعنى العقلي وللتفكير المجرّد. الدين هو التجربة الفورية المثقلة بالوجود والأفعال الكونية، ولا علاقة للدين باكتشاف العلل أو المقاصد، أو الاستنتاج والاشتقاق، على أنَّ هذا لا ينفي كونه يلتقي والطبيعة الشاملة الأكثر تردداً في الدين. وإننا لا نعني هنا الحقيقة المطلقة، التي يمكن للمرء أن يدعوها بالأولى أو الأصل، وإنما كلّ ما هو مباشر داخل منظومة الدين ومرتبط بمعناه من دون عوائق. أيمكنكم تصوّر نظام من المعتقدات شيئاً غريباً؟ ألا يبدو لكم بعداً معرفياً لتقريب وجهات النظر اللانهائية في هذا النظام؟ يمكن للحق أن يكون تحتكم أو بجانبكم، وعندها قد يظهر كلّ شيء بشكل مختلف، وقد يتراجع صدى التساؤلات الأساسية، التي تتحدّد على أساسها زاوية النظر للكون فلسفته ومعناه المطلق. أنا أتكلم معكم بلغة غريبة على مسامعكم وقد أبدو في هذه القضية وكأني إزاء عمل لا نهاية له، لا سيما وأنَّ فكرة اللامتناهي هي مما لم تعتد ذائقتكم على ربطها والمضي بها لمفهوم النظم، وإنما بشيء مما هو محدود بالعلاقة بالمبادئ العقلية. هلّا ترفعتم مرة أخرى وهذه حالة تضمن لمعظمكم الرفعة - عن ذلك الحدس الحسي، لتدركوا المطلق المتسامي، وعلوّه الباسق وكأنه نجم مشهود. النظريات الفلكية، التي تحاول شد



آلاف الشموس إلى نظام جامع ومشترك، ما انفكت تبحث لها عن فهم لجوهر النظام الكوني الذي يمكن أن يكون بؤرتها المركزية المؤدية إلى اللامتناهي من الخارج ومن الداخل، أيمكنكم وصف هذا النظام؛ بمجموعة من الحدوس المباشرة والمعتقدات، كما أطلقتم عليها؟ إنّ الشيء الوحيد الذي يمكن لهذا التوصيف أن يصدّق عليه، هو تلك التصوّرات التي تمخّضت عنها طفولة العقل البشري، والتي خلّفت صيغاً لا حصر له من الظواهر والسرديات الخاوية وغير اللائقة بروح العالم. وأنتم تعرفون أن لا مظهراً من مظاهر النظام في التصورات الفلكية، فهي ليست أكثر من منظرٍ لنجوم بارزة، تملأ ما يظهر بينها من فراغات نجوم أخرى أقل منها توهجاً، وتلك الصورة وإن بدت متناهية في حدودها، إلا أنها في الوقت ذاته تكشف عن كونها لا متناهية في ما تفضي إليه من دوائر لا تفتأ تتّسع، وهي متحرّكة واعتباطية، ولا يمكن أن تقع تحت وطأة الخطاب العقلي المحض، حتى في أقوى ما يشيعه وجودها من دقة وثبات. إنَّ التعامل مع هذه الفوضى العارمة، حيث يُتصورُ الوجود كلّه في كلٍّ نقطة من نقاطه، هي بالذات النقطة المركزية الأهم في المعنى الذي يمنحه الدين لصورة الواقع، وما تكشف عنه من رمزية عالية؛ ويشكّل الفرد في هذا الواقع الجوهر الضروري والحقيقة الوحيدة غير القابلة للإثبات من خارجها، أما الكل أو المجمل العام، الذي ينبغي للفرد أن يحال إليه، فهو إما من متبنيات تصوّر غريب عن فهم جوهر الكيان الداخلي للدين، أو إنَّه مجرد عمل من أعمال الخيال واللعب الذي يمارس الحرية بطريقة تغلب مفاتنها النواهي فتصل درجة التعسف. ولو تسنى للآلاف منكم أن تكون له القدرة على التأمّل الديني، والتأويل لما وراء العالم الظاهري، لنَظَرَ للمفاهيم بملامح وخطوط مختلفة تتأثر بطبيعة الحال بزاوية تلقّيها.



هلّا حاولتم تخيل نقطة أبعد من حدود العالم المادي الذي تخوضون فيه، وتصرّون على تداول ما له من صور اعتباطية وتعسفية لا تقود لغير الضلال، تأكّدوا أنّكم سترون، من تلك النقطة، ليس العناصر نفسها في ترتيبٍ مختلفٍ وحسب، وإنّما ستتجسّم أمام نواظركم بنى ومدركات جديدة لم تكن لتتكشّف لكم من قبل. لا يمكنكم الادعاء بأن أفقكم أبعد وأعمق من ذلك، وإنَّه محيط بكل شيء مما يمكن للبصيرة أن تدركه، أو أن تتحقّق من وجوده، وإنّ سعة وعيكم لا يمكن افتراضها أصلاً. ولكنكم يجب أن تعلموا أن الشعور بالدين هو من وجهة نظر مقابلة نقطة أبعد بكثير مما يخطر على بالكم، لأنّه لا يتيح لكم الإلمام بقسط وافر من معطيات وخبايا التأملات والرؤى في ما للكون من لحظات تعرٍ واتساقٍ وحسب، وإنما سيشكّل أسلوباً لا يلبث إلا وترونه يقترح عليكم نمطاً جديداً في تعاملكم مع القديم أو المألوف الذي اعتدتم على وجوده بين يديكم. نقطة اللامتناهي هذه لم تكن كذلك؛ لأنها تضع أنساق الفكر وطبائع النظم العاطفية على محكّات جديدة، فتغيرها إلى وضع لا نهائي، لا لأنّها في صيرورة وتشكل دائم، كما الأخلاق، وإنّما لأنها روح العالم اللامتناهية في كل الاتجاهات شكلاً ومضموناً، ظاهراً وباطناً، في الوجود والرؤيا والفهم. هذا الشعور يجب أن يرافق كل من له دين يعتقد به حقاً. وعلى كلٍ واحد منكم أن يدرك أنَّ ما يعتقد به هو في النهاية ليس سوى جزء يسير من ذلك الكل المطلق لروح العالم، وأنّ هناك من لا يجد حرجاً في رؤية مجمل ما يتمسّك به الآخر من أفكار ومشاعر تتدفّق، محض تصورات زائفة بعيدة بالنسبة إليه كل البعد عن احتمال أن يجد لها معنى. أنتم ترون على الفور كم هو كبير هذا التواضع الجميل، وهذه الودّية في الدعوة المتسامحة للدين، والتي



تنطلق من مفهوم الدين ذاته، من دون ردِّه لما هو خارج عنه من مظاهر، أو بحثه من زاويا الأخلاق والميتافيزيقا، وكيف أنّها دعوة معانقة وثيقة الصلة بالفهم المنصف للدين. وعيكم بالدين، ومزاعمكم عنه، وما تدَّعون، خاطئ وبعيد عن الموضوعية، إذ جعلتموه منبعاً للأحقاد والضغائن، ووصمتموه بمقاييس تبتعد عن اليقينية، ثمَّ صيَّرتموه مصدراً للنزاع بين المجتمعات وإراقة الدماء. عليكم أن تتهموا أولئك الذين دمّروا الدين وكبّلوه بأغلال ومقاييس كمية، ثمَّ أغرقوه بسيل من نظم عقلية، وفلسفات لا تدلّ على معنى الكون، ولا أصل لها داخله. لأجل أيّ محتوى ديني يصطفّ الناس أحزاباً، لتتجذّر فيهم أصول الأزمات وتضرم فتائل الحروب؟ إنَّ جل النزاعات واقع في الأخلاق أحياناً، وفي الميتافيزيقيا دائماً، وكلاهما لا ينتمي لجوهر الدين. وبالعودة للصور الذهنية؛ فإنَّ الفلسفة تسعى على الدوام لكسب أولئك الذين يرغبون في جمع الأشياء تحت معرفة مشتركة، وهو فعل يعدُ من يومياتكم، أما الدين فهو الإيمان والشعور والتجربة؛ بوصف هذه الأبعاد كلاً متماسكاً، يندرج ضمن لون حياتي متنوّع بعينه. إنَّ ما يطمح له الدين هو أولئك الذين لم يغادروا فطرتهم، وليسوا بقادرين حتى الآن على النظر الى الكون من دونها، يريد أن يفتح أعينهم كيما يتبيّن لهم الوجود ويروا، لأن كلَّ راءٍ هو كاهن ورسول جديد، ولكنّكم تفرّون عن الدين؛ مدّعين أنه رتابة جرداء، وإيقاع ممل يثير الاشمئزاز. الإدمان على خلق نظام وقانون لكل شيء، يزيل عن الأشياء مسحة غرابتها وصمتها المضمر، بصرف النظر عن كون قاعدة هذا النظام راسخة أو قابلة للتحقق، لأنه سيفسد بعضاً من المراتب المغلقة والدفينة من الذات، وما لها من مواطئ قدم جميلة، يمكنها أن تجمع الأنساق المتعارضة في ما بينها في الوجود، فتقدّمها ثنائيات متضادة.



وطالما أن فكرة الفردية مرتبطة أساساً بالواحدية المحدودة، فمن الوارد طبعاً أن يكون وجود الفرد مدمراً لوجود الآخر سواه، أما في إطار الفهم اللانهائي أو المطلق للفردية؛ فإن لكل فرد لا نهائيته غير القابلة للمحو أو التلاشي، فردية تقف إلى جوار ما يجانبها من دون أن تمحقه، ولتشكل من خلاله كلية يبدو كل واحدٍ منها فرداً حقيقياً. وهذا أيضاً مما فعله أصحاب النظم والتصنيفات والمنهجيات الثابتة، فروما الجديدة، الملحدة، واجهة الزنادقة؛ لم تعد روما القديمة التقية، ذات الطراز الديني الرفيع، لقد باتت مضيفاً لكل إله، وهكذا أصبحت مليئة بالآلهة. عبدة وأتباع الحبر الجاثم على الورق، الذين أخرجوا الدين من دائرة وجودهم، ملأوا العالم صخباً واضطراباً، أما أولئك الذين حرصوا على تأمل منظر الأبدية والخلود الحقيقي بصورته الكونية الشاملة، فقد كانت لهم دائماً نفوس هادئة، وكانوا إما منفردين بذواتهم، لا يشتّت انتباههم شيء عن تأمّل المطلق، أو إنهم، في ما إذا اختاروا النظر حولهم، مع من يلتقي معهم في فهم جوهر الكلمة الحق. بهذه النظرة الواسعة، وهذا الشعور اللانهائي، يتطلّعون لما يقع خارج دائرة ذواتهم، ينظرون له ولتأويله في الحياة. ولكن ما إن ينشّط فكر الإنسان شيء ما، ينال اهتمامه، أو يلهمه ويفتح آفاق طموحاته وسعيه - وأنا لا أخرج الأخلاق والفلسفة، فضلاً عن سواهما من الاهتمامات الخاصة عن هذا التصور - حتى يبدو له كل ما عدا ذلك من أفكار وموضوعات ضيقاً وغير ناضج، وليس من اللائق أن يوجّه جهداً صوبه. إنّ من يدرج فهم الدين بنهج، ووفقاً لمبدأ وغاية ثابتة، ويحاول أن يضفي على الوجود نسقاً من المعالم الثابتة، فهو إنَّما يقوم بمحاصرة سيرورة عملية التأويل والفهم وتحجيمها، ويدخل من حيث يدري، أو لا يدري في مواجهة مستمرة مع كلٍّ ما لا ينسجم



وايقاعه، فيعده نشازاً مثيراً للاشمئزاز. وإنَّ تركيز النظر على الدافع أو الغاية، حين يتعلّق الأمر بتأمل اللامتناهي، يمنح الحسّ والعقل حرية لا حدود لها، وفيها يكون الدين هو الوحيد القادر على حفظ الرأي من الانزلاق تحت أغلال وقيود مخزية؛ لأنَّ كلَّ ما هو كائن ضروري بالنسبة إلى الدين، فالدين مدخل لكلِّ الصور التي تفتح أبوابها على الحقيقة والوجود والبعد اللانهائي. ألا يجدر بمن يمس النقطة التي تتكشّف له فيها علاقته مع ذاته أن يتجنَّب المذموم أو المستهجن من ربط العلاقة مع هذه النقطة بدوافع أخرى لا يبدو من المتاح له فيها تأمل مكاشفته مع ذاته والحفاظ عليها. العقل الديني المشرق يجعل كل ما يتضمّنه الدين مقدّساً ويستحق التبجيل، وإن وقع الأمر في إطار تنقية المعتقدات من الرياء والدناءة، فالدين هو العدو اللدود وربما الوحيد، لكل أشكال التحذلق والانحياز. أخيراً، ومن أجل استكمال صورة عامة للدين، أقول هل تتذكرون أن كل تصور أو ولوج لعوالم الدين مرتبط بشكل أو بآخر بالشعور؟ أعضاؤكم الجسمانية هي التي تتوسط العلاقة بينكم وبين الأشياء، وهذه الأخيرة تكشف عن وجودها، وتفرض تأثيرها عليكم في نواحٍ كثيرة، ولا سيما في ما تحدثه من تغيّر في الوعي الباطني المضمر لعقولكم والشعور، بأنَّ مواقفكم تجاه مشاعركم هي في كثير من الأحيان غير قابلة للإدراك، يمكن أن يؤدي في الغالب إلى نمو شيء من الشدّة والعنف، التي تقودكم إلى نسيان ذواتكم وعلاقتها بالأشياء. آفاق التلقّي الخاصّة بكم هي ما يتوسّط العلاقة بينكم وبين ما هو كائن، ولعلّ تأثير هذا الأخير، وأعني ذلك الكائن الذي يكشف لكم عن وجوده، هو الأهم والأكثر تأثيراً في منظومة التلقي بالنسبة لكم، ومن نواحٍ عدة، تجعل أيَّ شكل من أشكال حدس الطبيعة مرتبطاً به. ثمة شعورٌ بأن تعاملكم



مع المدرك، هو في كثير من الأحيان غير قابل للإدراك، أو قد ينمو ويتطوّر، لتصل درجة حادة لا تجعلكم تنسون رحلة الاهتداء إلى المعرفة وحسب، وإنما أنفسكم إزاءه. يمكن لكل مجسَّاتكم العصبية أن تثبت أنَّ الإحساس وحده هو الأعمق سيطرة، وَالأكثر ثباتاً، والأقوى صدى، وهو الأقدر على أن يقاوم تأثير انطباعات أخرى؛ ولكن هذه المعالجة تنطلق من النشاط الذاتي والمرتبط بالضرورة بطبيعة وضعكم للعقل في إطار الحركة المنتجة للتأمّل، وأظن أن هذا هو مما تنأون به بعيداً عن دائرة الظاهر المحض، والعلة القصوى التي تتوارى خلف الوجود؟ سوف تعترفون بأن أمر الكون واقع في ما هو أبعد من قضية العقل المسيطر المنشد لمبدأ القصد، وأقوى من طاقة المشاعر، ولذا يجب أن يكون له مصدر آخر تماماً، نعم والمصدر راكز في دواخلكم. ومن هنا فإنَّ للدين؛ الطبيعة الكونية نفسها، التي تتكشَّف لكم بشكلها المتناهي، فتدخّلكم في علاقة جديدة مع العقل والوجود؛ الذي عليكم أن تمحصوا أبعاده، وتتلمّسوا حاجتكم لإدراكه، بعيداً عن تباين العواطف المختلفة. إلا أنَّ فكرة إحداث الدين لعلاقة أخرى أقوى وأكثر ثباتاً، وتقع بين الحدس والشعور، علاقة لا وجود لما يفوقها، هي فكرة انطفأت وانتهى تأثيرها تقريباً. وعلى العكس مما تقدّم تبدو اشتغالات الكون الأبدي على منظومتنا العقلية وكأنها شيء من الإعجاز، ألا تلاحظون ما تفعله الشمس بأبصارنا؟ إنها تتركنا تحت وطأة ذلك العمى الموقت، الذي لا يجعلنا نفقد ملامح الأشياء من حولنا وحسب، وإنما يتدخّل في صناعة صورة اللحظة التي تربطنا بتلك الأشياء عبر حاسّة البصر، إذ ينتجها مكسوة بذلك الضياء الذهبي، الذي يجعلنا نستلمها وكأنها كتلة من ضياء ولحظة تخطف البصر؟ هكذا تتغلغل طاقة الكون في أنفسكم، فتترك



آثارها على مكامن حدسكم، وتخلق خصوصيتكم وفرديتكم في فهم الدين وصلته بالكون، الذي كلما زاد شعوركم به انعكس هذا على درجة تديّنكم. وكلما كانت مجسّات العقل وقواه سليمة تعمّقت قدرة خلق ذلك الانطباع، وكلّما اشتد العطش، وتفاقم هاجس الاقتراب من إدراك ذلك اللامتناهي، تطورت قدرات العقل على التقاط الجزيئيات، والتعامل معها على أنها صور لسلسلة من مظاهر تنزع لمعنى عالٍ، لا بد من وضعه في إطار فهم دائري لا انقطاع فيه. من هنا يمكننا أن نستمر بترجيح مقصد التأمّل في إطار تعاطينا مع الدين، لنترك له فرصة أن يملك مشاعرنا، وعلينا أن نعبّر عن التماهي مع اللحظة الدينية، أن نلتقطها ونتمثّلها؛ فهل أنتم على استعداد لترك الجدل ونصرة الدين، بعد أن تهاوى في نظركم؟ جرّبوا الانتقال من مساحة الجدل إلى الفعل، أم إنّكم ستجدون أنفسكم على أرض غريبة، وتظنّون أنَّها هي الدين، وتلك هي منطقته، فتبدون كمن يتملّص من مؤشرات إدراك مقاصد التأمّل ويغرق في سيل من خرافات لا علاقة لها بالمقدّس، ثمَّ يظن أنَّه يخوض في معرفة عقلانية جديرة بالثناء. يمكنني القول؛ إن كل أشكال تدارس موضوعة الدين ينبغي لها، بالنسبة إليكم، أن تكون أخلاقية، وقد لا يبدو هذا مقبولاً إلى حدٍ ما، ولكن يمكن للمشاعر الدينية أن تقترب أيضاً من نغم موسيقى مقدسة، ترافق كل أفعال الإنسان، بصرف النظر عن ماهيتها، وهنا تكون كل سلوكيات الإنسان مصاحبة للدين وليس مأخوذة عنه. وإذا كنتم غير موافقين على أطروحة فهم مجمل السلوكيات من زاوية أخلاقية، فيمكنني أن أضيف هنا؛ أن هذا يصدق أيضاً على معايير أخرى، ابحثوا في البنى الأخلاقية للإنسان، اسألوا الفكر السياسي، استفسروا عما خلّفته الفنون، كل هذه البنى العقلية ستقول لكم: إنَّ مبدأ التأمّل الهادئ في



محايثة الواقع والاقتراب منه، كان أول ما انصرفت لتشريعه. لكن الهدوء والعقل سيضيعان حتماً، إذا ما ترك الإنسان مشاعره العنيفة والمثيرة للقلق، تجرفه إلى حدٍ يهوي به، إذ يزج بالدين داخل مواضع التفاوض مع العقل. ولكن أمراً كهذا هو بشكل أو بآخر غير طبيعي الحدوث، لأن المشاعر الدينية مرهونة بطبيعتها الملتبسة بالطاقة التي يصرفها الإنسان لتحقيقها، وهي مشاعر تدعو الإنسان لشكل من أشكال الرضا البعيد عن مظاهر الصخب، سكينة يتميز بها المتدينون، وليس بمقدورهم الخروج عنها؛ بصرف النظر عما يقومون به من سلوكيات، أناس لا يصرفهم أي شيء في الحياة عن كونهم متديّنين، ينقطعون عن العالم، مكرّسين الزمن لخدمة تأملاتهم. وهنا على الإنسان أن يحصِّن وعيه، وأن يرغم نفسه ويروّضها لقبول مشاعره الدينية، ويمكنني هنا أن أثق بكم في معالجة ذلك فكرياً، لأن الغالب على ما يتعلّق باتهاماتكم للدين لا معنى له، ويلتصق بشكل أو بآخر بالكثير مما لا يبدو من الطبيعي أنه دخل حيّز الوجود عن سبل التعامل الذهني المحطم للمشاعر. ألا ترون أنني لا أقدّم لكم هنا مكافأة معرفة الدين وحسب، وإنما كلّ ما هو متميز وجدير بالثناء. إذا كان التعامل مع التقاليد والأعراف وتأدية الأعمال الصالحة لا معنى له، وإذا ما استمرت دماء الناس بالنزف في مقتلة العيش، أو أنهم سعداء بما تمنحهم إياه يد الحياة، وسواء قضينا العمر بالملل والكسل والتقاعس القاتل، أو بسيطرة الأفعال المكرورة والنظام ذي المذاق المرهق، أو في الهرولة وراء كل ما يقود للحياة الشهوانية الرخيصة، كل هذه الأمور هي بطبيعة الحال مختلفة عن بعضها البعض، وتتباين سبل النفاذ إليها وفقاً للخبرة العقلية الكامنة المتأصّلة، في ما إذا بنيت على الأخلاق، أو الحياة الدنيوية، أو العلاقات الفكرية والفلسفية التي



تقدَّم ذكرها، ولكنها جميعاً وعلى أية حال، يجب أن تنتمي من قريب أو بعيد إلى منظومة الدين، أو أن تكون خارجة من تحت مكوّناته، ومن هذا المنطلق يكون الجميع متساويًا في مرجعيّاته. إلا أنَّ الخرافة والأسطورة وسلوك العبودية لهما هو ما فرق بين الناس. إنّكم لا تريدون لباعث الشعور أن يحثنا لاختيار ردود الفعل والتعامل مع الناس، وهذا ما لا يتوفر بين يدي أي سبب مقنع لقبوله، ولذا فإنكم لا تجدون غضاضة في إلقاء اللوم على من يتخذ من الشعور دليلاً يحدّد على أساسه نمط تعامله مع الحياة. وفي الوقت ذاته يغيب عن أنظاركم أنَّ إنساناً كهذا من الضروري أن يحتفى به، ليس لأسباب أخلاقية وحسب، كونه اختط لنفسه نهجاً خاصّاً في مبحث الحرية الشخصية، وإنما لأسباب دينية بحتة؛ فهو إنسان توقف عن أن يكون عبداً لما تراه عيناه وحده، وبدأ يتأمل الأشياء بصورها المتباينة في نشاطها، والمتكاملة في اختلاف حركتها. إنَّ سوء الفهم المطلق للدين لا ينبغي التعامل معه - ولا يمكن للأمر أن يكون خلاف ذلك - إلا على أساس كونه شططاً واعتداءً رهيباً، وبصرف النظر عن الجانب الذي يدور في مداره هذا النشاط العنيف، فإنَّه في النهاية لا يقود إلا إلى الكوارث والدمار. أما التأمّل الهادئ، الذي يجب أن تشع به المكامن الفردية الخاصة للإنسان، تلك التي تستحوذ على الروح الكاملة للدين، فهي الغاية الأسمى المبتغى إدراكها؛ لأنها الطريق إلى الورع. ولكن صدى الروح الشريرة، المنطفئة، والكارهة للخير، قد تستحوذ على الإنسان وتقوده، ومعشر الملائكة التي سخّرها ربنا الذي في السماء لكلمته وروحه، لم تكن في مركز هذا الإنسان، وإنما حوله، كما أنها لم تكن عوناً له أو تساعده في ما توجّب عليه هو ذاته أن يقوم به، ولا ينبغي لها ذلك، ولكنها تؤنسه، وتدرأ الخوف عنه، وتغرس في روحه الصفاء



والهدوء، كيما يقدمُ على التفكير والفعل من دون سأم أو ضجر، وقد تتوارى أو تغيب عن نظره في لحظة ما، حينما تدفعه الحماسة بقوة إلى تحقيق فعل بذاته، ولكنها سرعان ما تحوم من حوله مجدداً؛ لتحفه بضياء من البهجة والسرور. ولكن قبل أن أدخلكم لجّة هذه الآراء والمشاعر، التي سيقع خطابي القادم لكم ضمن دائرتها، اسمح لنفسي أولاً بلحظة، لتمثُّل شيءٍ من الحزن، لأني لا أستطيع أن أتكلم عن المعتقدات والمشاعر الدينية، إلا بفصلهما عن بعضهما، وبذا فإن خطابي لا يرقى لمستوى المساس الحقيقي بالفاعلية الداخلية لروح الدين، وإنما هو خطاب لا يكشف إلا عن النزر اليسير من ذلك السر الكامن في الدين، ولا يدنو من بناه الإشراقية، إلا بشكل متذبذب وغير مؤكد.

ثمّة حاجة لهذا الفصل بين المعتقدات والمشاعر الدينية، ليس لتعيين النظر في فعل داخلي للعقل والإخبار عنه وحسب، وإنما لإعادة صوغ هذا الفعل نسيجاً للتأمل والبحث، مما يجعل من الفصل أمراً لا مفر منه، لأن السائد هو الأكثر تأثيراً في المتلقّي، والأقرب إلى تشكيل ورسم صورة أوضح، قادرة على خدمة الموضوع على نحو أدق، إذ تمنح نسيجه قدرة التلامس مع ما يضطلع به بناء فكري ذو خلفيات متقابلة. وكذا هو الحال مع الفعل الأعمق للشعور الديني، إذ يبدو وكأن سلخه أو خلعه عن سواه قدر لا يمكن تجنبه؛ ولا خلاف في كون هذا النموذج من الوعي هو الوحيد الذي نستطيع عبره إنتاج ما يتمخّض عن الشعور الديني، من ذاتية اجتماعية مشتركة، ودعمها، ثمَّ رفعها مرة أخرى إلى السطح، كمقدمة للنفاذ لداخلها وتدارسها، ثمَّ التبليغ بها. آمل ألا يذهب بكم الظن - وهذا واحد من أخطر



الأخطاء - على أن المعتقدات الدينية والمشاعر هي في الأصل في ما يمكن أن يقع تحت الإفراز الأول لقانون العقل، فالعقيدة لا تعني شيئاً، إذا كانت مجردّة من الشعور الديني، أو حبيسة أصول معرفية، أو تشي بالنفور عن مواقف التجربة الدينية؛ لأنها لا يمكن أن تمثّل أصل الحق، ولا قوة الحق، والشعور الديني مجرداً من الرؤية العقائدية هو أيضاً لا يعني شيئاً؛ ومن هنا يكون كلاهما مستقياً لأهميته وضرورة وجوده من الآخر، لأنهما أساساً جوهر واحد.

تلك اللحظة الأولى الغامضة تحدث مع كلِّ إدراك حسي، وهي سابقة على الحدس والشعور، حيث يتداخل المعنى العقلي المدرك بالخلفية النفسية والعاطفية، والإسقاطات الذاتية على الموضوعة المراد إدراكها، يعزز كلٌ منهما الآخر؛ ليشكلا جوهراً واحداً. أمَّا عنِّي، فأنا أعلم عن هذا الجوهر ما يعجز عنه الوصف، وأعرف أيضاً سرعة تلاشيه، حين يقدح في الذهن بذلك الحضور العقلي الموقت، على أنَّ ما أردته هنا؛ هو أن تعتقدوا بذلك، وأن تستدلوا على تلك اللحظة المتعالية؛ لأنها ما سيقودكم لقيمة النشاط الديني الإلهي، وللتعرّف على العقل من زاوية أخرى. يمكنني هنا، ومن المسموح لي أيضاً أن أتحدّث عن ذلك النشاط الإلهي، أن أومئ إليه، من دون أن أفقده شيئاً من قدسيته. إنَّه شعور رفيع متقلب وشفاف، كعبق العطر الأول، الذي يتنفّسه الندى بعد يقظة الزهور، رقيق وحساس؛ مثل «قبلة العذراء»، دافئ ومثمر، وكأنّه احتضان الأحبة لحظة الوداع، نعم إنَّه هو وليس مثله شيء، لأنه كلُّ هذا وسواه. شعور سريع، يحدث بطريقة سحرية، يتجلّى فينشر طاقة، تتطوّر لتشكِّل صورة للكون بأكمله، صورة تبدو لي وكأنها شكل الحبيبة، التي لا يُطلب من روحي لحظة مثولها إلا أن تهرب إليها،



تتماهى معها ولا تنظر إليها كظلٍ يتوارى، وإنما كجوهر لذلك المقدّس الباعث للبهجة. إنني في روح العالم اللانهائي في ذاته، وأشعر باقتباس جميع قواه وأبديته، وهو في اللحظة ذاتها جسدي الذي أتحسس كل تقاسيمه، وتتحرّك في الأدق من تلافيف عروقي وحواسي وذهني مظاهر وجوده المطلق. شعور يتملك كل ما ينبض بالحياة في داخلي، ينبعث من أعماقي؛ ليشيعَ حضوره في روحي، فتكون شبيهة بشذا الزهر، الذي لا بد له من أن يتحرّر ويتسع؛ ليعمَّ كل ما يحيط به من فضاء. هذه اللحظة هي لحظة الازدهار السامقة، التي يتحقّق فيها معنى الدين، وأن تمكن الإنسان من خلقها ومنحها للآخر يعني بلوغه رتبة المطلق، إنَّها لحظة الولادة والانبعاث لكل الذين يعيشون في الدين. لحظة انتباهة الإنسان لوعيه الأول، الذي يعود في خلفيته للأصول الراسبة في الأبدية، وظلام الصنيعة الأصلية للخلق، تلك التي خلّفها وعي الإنسان وراءه. الاعتقاد والشعور الديني، ذلك الذي ينشأ ويتطور من تلك اللحظة، هو ما أروم وضعه بين أيديكم. سبق وأن قيل لكم: إذا تمكّنتم من فهم هذه اللحظة، بشكل لا يشوبه نقص غير مستساغ، واعتقدتم بأنَّها لا تقع خارج ذواتكم، أو تنأى بعيداً عن وعيكم فلا يمكن تجاهل كونكم لم تعرفوها من قبل، ولستم بقادرين على الكشف عن ماهيتها فإنكم ستضعون أيديكم على أصل الشعور الديني غير المجزأ، وما يختبئ بين طيّاته من سرّية، لم تكن أرواحكم قد تلقّتها. بقي أن أكشف لكم هنا؛ أني أعدّ أولئك الذين يسيرون بين الناس على أطراف أقدامهم، مباهين من حولهم بمعرفة الدين، غير متدينين، وبعيدين عن جوهر الحياة الإلهية. لأن هناك من له عقائده وآراءه في قراءة شفرات الوجود، وطبيعة صياغة علاقته بها، وآخر سواه يتّخذ من مشاعره وخبراته الداخلية مركزاً ومقياساً لتوثيق تلك العلاقة. ولعل النزاع المتولّد من هذين الاتجاهين



الآن واقع في ما على المرء أن يقبله من تفسيرات العقيدة، وما يجب أن يتدفق منه من مشاعر وأحاسيس؛ كيما يتمكّن من نسجهما معاً لصوغ الباعث الذاتي لمعنى الدين، بأسلوب لا يكون بارداً حدَّ النفور، ولا حاراً حدَّ الرومانسية. هلا أصغيتم لنبض قلوبكم كيف يتباطأ كلَّما مرَّ عليه الزمن، ثمَّ إنَّ لكم ذاكرة وتقاليد حياتية، ولكنكم بلا دين. ولذا فإن مشاعركم أصبحت غريبة عنكم، وكأنها اضطراب سيكولوجي دخيل، أو صورة كاريكاتورية عارضة، وهل تريدون لصورة الدين أن تتألف من هذه الأجزاء الميتة، والملامح الفاسدة؟ هل يمكن للأجزاء الميتة أن تعود للحركة والحياة مرة أخرى، عبر الالتحام بأجسام أخرى؟ إنَّ إعادة الحياة لما تنتجه الطبيعة الحيّة، عبر مكوّناتها المنفصلة، فنٌ لا يقع داخل قدرة البشر، ومن هنا فإنه سيفشل فيه لا محالة، وكذا هو الحال في محاولة خلق الدين عبر تشكيله من مجموعة عناصر تقع خارج الذات؛ لأن هذا يتنافى مع جوهر الدين النابع من داخل الذات. الحياة في الدين تشبه أرضاً خصيبة، لم تزل أزهارها تنمو وتتفتّح، ثمَّ تتجدّد داخل براعمها المغلقة، والمعتقدات والمشاعر المقدّسة، هي الأجمل والأعبق بين كؤوس وتيجان هذه الزهور والبراعم. وحياة الدين تعني التجدّد والنضارة والانتماء لنقاء مناخات الفردوس، تلك التي لا تطالها تقلبات الفصول، وإن ما أريده الآن هو أن أهديكم شيئاً من هذه البراعم والتيجان والكؤوس الزاهية، فضلاً عن شذاها المقدّس.

الطبيعة الخارجية، هي بالنسبة إلى الكثيرين أول وأنبل معبد للإله، وقد تعاملوا معها بوصفها أعمق ملاذات الدين، ولكنّي أقدّم في هذا المقام ما يتقادم على تلك الطبيعة، من جوهر ومحيط سابق عليها. لا تخافوا من القوى المادية التي ترونها متحكمة على هذه الأرض، ولا



تفرحوا بالجمال الفيزيائي للطبيعة، لأنَّهما أمران لا يمنحانكما صورة صادقة وشاملة عن الكون والعقل الحاكم له، فلا ينبغي لكم التعرف على قدرة الله وكينونتها عبر حصرها في السماء والرعد، أو في الموج العاتي الذي يعصف عباب البحر، ولا في انطفاء الزهرة بعد ألقها، أو لطف حمرة الشمس حين تدلف للغروب. من الممكن جداً أن تكون مشاعر الخوف والفرح التي تشيعها هذه الأجواء بين البشر هي أحد المظاهر الأولى للدين، ولكنها مشاعر تحمل قصورها في ذاتها، ولذا فهي ليست الدين نفسه. وكل نذر الشؤم من الغيب، التي تسربت إلى وعي الناس عن هذه الطريق، لم تكن دينية بل فلسفية، ولم تنظر للكون وما يحكمه من نظام روحي متكامل، وإنما انصرفت للسعي وراء البحث عن عوالم تندمج بالسبب والمسبب والعلَّة الأولى. هذه هي البدايات في محاولة الاقتراب من مفهوم الدين، كما هو الحال مع كل ما ينتمي إلى البساطة الأصلية للطبيعة. ولطالما كان الدين كامناً في الخبرة والفطرة الأصل، فإنَّ لديه القوة لتحريك العقل، وتلك هي قمة الكمال، التي لم نزل غير قادرين على بلوغها، وهي قمة ربما يستلهما الفن، ويحولها إلى شكل آخر، قد يبدو أكثر رفعة، ولكنه أمر لا جدوى منه؛ لأنه سيعيق طريق الفهم الحقيقي للدين. نحن نقف على هذه الطريق الآن، وعلينا أن نعرف أنها طريق لا تفضي الحركة عليها إلى التوصّل لمفهوم الدين، وهو الهدف الأسمى، الذي نحرص على بلوغه، لأنّ الغاية المثلى التي يستقيم وجود الإنسان عبرها على الأرض؛ لا يمكن لها أن تتحقّق من دون تدمير سيادة قوى الطبيعة على الإنسان؛ والتوقّف عن الارتعاد أمام ظواهرها. فكيف يمكننا النجاح فيما نسعى إلى التغلب عليه، إذا كنّا نعلن الهزيمة أمام جزء من مشاهد وتجليات الطبيعة؟ فمنذ أن صنع لنا البركان درعاً ضده لم يعد



البرق ليروعنا. وهكذا تهلك تلك الآلهة التي اختلقها الخوف والطمع واحداً تلو الآخر، بعد كلِّ ما بسطته من خوف بين بني البشر، وهنا يقف الإنسان مبتسماً كما المنتصر في حرب فُرضت عليه.

أن نحب روح العالَم، ونبتهج لمشاهدة صنيعها، تلك هي غاية الدين، وليس هناك أي خوف من المحبة، فالدين لا يختلف في جماله وحسن وجوده عن سواه من قيم الجمال التي تنبثّ في ثنايا العالم، كيف لا وهو الفيض الذي يغمر الإنسان كرامة ومحبة منذ نعومة أظفاره. إنَّه تفاعل دقيق بين ألوان الطبيعة، يجتاح العين بسيل من مسرّات، تتجلّى بمظاهر لا سبيل لشرحها، ولكنَّ نظرة تأملية واحدة كفيلة بحمل متعة لا تسعها الأرض. والدين قطب كاشف عن براعة الوجود، بصورة لا تنحصر في النظر وحسب، وإنما تضوع بعطرها، وتشعّ على مجمل ما للإنسان من حواسَّ، وهنا عليكم أن تتساءلوا إن كان لما تبشرون به من دين ماهية كهذه. أنا لا أشك في أنَّ ما تتخذونه ديناً سرعان ما يتلاشى تحت تخطي العقل لحدود الحدس، وسيبدو لكم وكأنه خيط ضياء هزيل لا يقوى على الصمود طويلاً. أعتقد بأن ما يقع علينا هو مسؤولية على مستوى أعلى، وهي ما ينبغي لنا إخضاع أنفسنا لها هنا على الأرض، وعلى امتداد الكون، إنها رحلة البحث عن هوية الخالق المقدَّس، عن وحدانيته وسعته وقدرته. وأظن أننا لا نختلف على حجم دهشتنا، ونحن نتلمّس أطياف ذلك الروح المقدّس، الذي لا بد أنَّه سينعش وجداننا بلذة المعرفة، وأظن أننا لا نختلف على أن هذا سيكون شيئاً آخر أعلى بكثير من مجرَّد مشاعر الخوف والحب.

أما وقد بلغنا هذه النقطة الآن فلا بد لنا من التذكير بأننا لسنا



بحاجة لسماع سخرية جهابذة العقل بينكم، ممن جعل الدين مرتعاً للمتخيّل، وموضوعاً للذم والاحتقار والتجهّم، ومنها أن ثمة من يقف الآن متحايلاً ليدفع بالناس نحو دهاليز الدين وممراته؛ عبر ما يقدّمه من مادة هابطة وشِعر فارغ الدلالة، ولكن على من يمتلك نفساً مرهفاً حساساً ألا يصدِّق أن من السهولة بمكان الوصول لفهم معنى الدين من دون جهدٍ مضنٍ. طبعاً، أنا أدعوكم لتأمّل الأكثر أهمية بالنسبة إليكم، وهو الجسد الفيزيائي للطبيعة، اللانهائية بحد ذاتها، وذلك الكون الواسع، وما يحكمه من نظام وجودي دقيق، يسري بمنتهى الكمال، على الرغم من سعته الهائلة، كلّ هذا وسواه ألا يضع الإنسان العاقل في رهبة وذهول لحظة يكون على يقين من إدراك معالم هذا الكون الفسيح؟ ولا يمكن تجاهل كون الفضاء والكتلة ليسا هما ما يؤلف روح العالم، ولا هما بجرثومة الدين، أما من يروم البحث عن مشروعية سؤال اللامتناهي بين هذين البعدين فهو لا يتعدّى من يتخذ إحدى ومضات الطفولة أداة لتناول فكرة عميقة. فالكون لم يكن أقل روعة أو أرهف جمالاً عما هو عليه الحال الآن، حين كان نصف عوالمه لم يكتشف بعد، ولم يكن يمرُّ على خاطر الناس أو وعيهم أن تلك النقاط المضيئة في السماء هي أجرام سماوية، ولذا فإنَّه لم يعد هناك عذر لمحتقري الدين؛ لأنه لا يوصف بشكل عيني. هل تغافلتم عن كون ماهية الوجود، والحياة الخارجية، ونداءات الشعور الديني وما بين مطاويها، لا تتجسّم في الأحجام والأرقام والكتل، وإنما في ما يتوارى خلفها من نظام محكم؟ ارفعوا أنظاركم قليلاً، واجعلوها تتّسع لمساحة أوسع من الآفاق، ترفّعوا عن العرضي العابر، ودقّقوا في الصغير الهامشي، فضلاً عن الكبير من هذا الوجود؛ لتحدسوا وتستشفوا ما تبطنه ملكته من قانون كامن، يتوزع بين جزئياته، ويرفرف



في كلِّ نسمة هواء، ثمَّ قولوا بعد ذلك: إنَّ رحلة بحثكم لم تسفر لديكم عن تجليات الوحدة الإلهية، وثبوتية الأبدية في العالم. إنَّ التصور الأول الذي يمكن أن يكون أكثر شيوعاً وإدراكاً لعين المتفحّص هو ما لقوانين الوجود من إيقاع متراتب، يتكرّر بمنتهى الدقة، ليضبط كل ما يجري على الأرض، ويشد إليه كل حركات النجوم والأجرام في السماء، ثمَّ مبدأ التوافق والانسجام في مظاهر الذهاب والإياب، لكل المكوِّنات العضوية في الكون. أما عمّ يقع تحت طائلة أنساق العلاقة الميكانيزمية بين الخلق، وما يتمخض عنها من قراءة لمنظور الطبيعة، سعياً لإثبات كونها الظاهرة الأبدية الوحيدة، فهو مما لا يثير اهتمام ونظر وتفسير من يحاور الكون عبر رؤى وآفاق أوسع.

إذا توفّرت لكم رؤية واحدة من الأعمال العظيمة في الفن، ولكنكم لم تتأملوا منها سوى زاوية صغيرة واحدة، أي إنّكم تجاهلتم ما تضمه تلك اللوحة من أجزاء مختلفة، تتكامل معالمها بمعايير وعلاقات ونسب جمالية، وتحاور كل لحظة من لحظات تأمل وإدراك ما تغاضيتم عنه فيها من امتدادات الزمن الوجودي للوحة، فإنكم في هذا الصنيع لا يمكن أن تدعوا رؤية قطعة فنية عظيمة، لأنكم وبكل بساطة تركتم لعقولكم فرصة معالجة جزء منها من دون سواه، ولذا يمكنكم القول إنكم رأيتم زاوية صغيرة من عمل إبداعي كبير، أليس كذلك؟ هل ستقيِّمون لحظة التأمل الجزئي المفتقد بذاته للمنظور العام، على أنَّه أسلوب خالٍ من الشجاعة والحماسة والزخم الروحي، وهو أسلوب لا يجب أن يتبدى ويشاع؛ لأنَّه معاقبة صريحة للعقل المتفتح؟ إنَّ تصوّر الوحدانية السامية لا يقوم إلا على نسق عقلي وفكري واسع وخصيب، ولا بد له أن يشتمل، بالإضافة إلى



الاتجاه المعرفي العام، على منطقه ونظامه الخاص، وينسجم مع ما هو ضروري من أدوات لفهم الدين، ومن هنا فإنَّ للظروف الفردية الوجدانية والسيكولوجية دورها البارز في خلق نسائج هذا التصور. انظروا إلى صورة العالَم من حولكم؛ ألا يحق لها أن تكون عملاً إبداعياً فخماً، ولكنكم تشيحون بوجوهكم عنه، ولا تتعاملون إلا مع زاوية من زواياه، وهو ما لا يبسط للعقل مساحة لتأمّل صورة هذا الكون بمظهره المتكامل، إنها نقطة دائرية لا يمكن إقفالها في الذهن من دون حضور مجمل ما تقوم عليه من أجزاء. وإنكم على علم بأن الشخص، المعوَّل عليه خدمة الدين، يرفضه، ويتماهى بدلاً من ذلك مع جملة من المعتقدات والنظم، التي تشكِّل بالنسبة إليه خياراً ذاتياً ذا قيمة أكبر، لأنها المشهد الأقرب لعقله في مثوله، على الرغم من كونه لا يتّصل بالعقل إلا من أضعف وأبسط زوايا حضوره في الوجود. كانت الآلهة في الديانات القديمة موضع خدمة العذارى، وهي ديانات تتكرّر نظم العقائد فيها بنسق متشابه وواحد، حتى تسنّى لكل منها العثور على سياقه الخاص. ولكن المتغيرات الكبرى التي لا يمكن للمرء أن يفهمها خارج إطار الدين، والثورات، التي لم تكن لها سنن وقوانين محدّدة، هذه بالذات أفعال الإله المتحكّم، وما تجلى عنه في شخص المسيح. كما هو الحال في التصادمات والتفاعلات في مجرى النجوم ومسارها، إشارة واضحة لدقة القانون الأعلى المتحكم بها، وهي في هذه الحركة الصاخبة، أكثر ترابطاً وتكاملاً وجرأة مما نحن على علم به من انتظام مداراته الفلكية. أما الحوادث الجسيمة الخارجة عن السياق، فضلاً عن صورة الطبيعة بكل ما لها من مظاهر متداخلة؛ فإنها تجبرنا أحياناً على رؤية الأشياء بأسلوب لا بد له من أن يساوي بين الحقيقة الموضوعية والخيال، لأنه الأسلوب الوحيد



المؤهّل لفهم قوانين الطبيعة والاقتراب من روحها. إلى أي مدى ما زلنا بعيدين عن ذلك المطلق المتعالي؟ وإلى أي حد ستبقى تأملاتنا للكون قاصرة عن بلوغ مستوى الاكتمال؟ تمعنوا في قانون الوجود، الذي يلقي بظلاله على كل أجزاء الكون، ما دمتم قادرين على إيجاد ما يشده لبعضه من علاقات حية وفاعلة، فضلاً عن الثابت في مجمل تفصيلاته، وهو الموت والفناء الذي يربط كل أوصاله. انظروا كيف تدنو قيمة الحياة من قيمة الفناء والموت، فتشدُّها إليها مانحة إياها ولادة أخرى، كما هو الحال في الأحوال المتعدّدة لأشكال الحياة والنمو، والكم الهائل من الجسيمات المادية، وما هي عليه من ولادة واندثار وتجدّد وتغيّر مستمر، لاجتياز دائرة وجودها والانفتاح على أخرى، فيما يخضع كل مصير من مصائرها الداخلية لمبدأ متأصّل في نموه. تأملوا زنابق الحقل، إنها لا تزرع ولا تحصد، ولكن الرب الذي في السماء يطعمها، لأجل ذلك لا يقضّ مضجعها القلق. هذا المنظر البهيج، ذو المعنى الشفّاف الهادئ، والأكثر سمواً، هو نقطة الذروة، وهو مما يمكن للمكتنز معرفة بالدين أن يفوز به حين ينعم النظر في الطبيعة؛ وما لها من غلال وافرة، تمنحنا ثراء لا حدود لعمقه ولا أشد وأبهى من دهشة الجري وراء محاولة اختراق طاقاتها وتوازناتها الكيميائية، فضلاً عمَّ لها من قوانين أبدية، تتشكَّل هيئة الأجسام فيها ثمَّ تدمّر نفسها دونما خلل، وهنا تتجلّى النظرة الأكثر قدسية ووضوحاً لروح هذا العالم. هلا أنعمتم النظر في هاجس الميل نحو الأشياء، وما يقابله من عزوف أو تردّد، إنّه شعور يصبغ مجمل تفاعلنا مع الطبيعة، ترونه ينشط باستمرار؛ وتطغى النسبية عليه، في التعاطي مع مظاهر التنوع والتعارض في جزئيات الطبيعة، لدرجة تكون الفردية فيها اسمّا بلا دلالة. انظروا كيف تنتشر على صفحات الخليقة آلاف



الأشكال التي تبطن في اختلافها وتضادها ذاتاً واحدة. ولا يمكنكم أن تعثروا في سجايا الوجود على مظهر سطحي فاقد للعمق، ولا يقترح صيغ مفاهيمه، لأن كلَّ طبائع التنوع والاختلاف البادية محكمة في بنية متجانسة، لا يشوبها خلل، ولا يتسرب له نقص. تلك هي روح العالم الكامنة وجوهره المتكامل في أدق وأصغر ما في الخلق، كما في أعظم ما يتبدى في آفاقه، فللخلق صيرورة إبداع واحدة، تتشكّل وتتطوّر في كل الآفاق، والشخص الوحيد القادر على رؤيتها في كل مكان، هو ذلك القادر على إدراكها والتماهي معها، ليس في ما لها من متغيّرات وحسب، وإنَّما في كل مظاهر الوجود التي تعمرها قدرة الإله الواحد. أما وأنَّ المعارف، التي يحتفي بها هذا القرن يشحّ فيها تأمل مظاهر الطبيعة، فإنَّ ما يتبقى لدينا هو ما ورثناه من طرائق وحكمة اليونانيين القدماء، ونتاج تأملاتهم العقلية العميقة. ولعله دليل واضح على ما تمثّله المعرفة الدينية من تكامل يزدري أي تعزيز خارج عن إطار الملكة الفطرية، لأنَّه سيستغني عنها بسهولة، فالدين معرفة قامت أهم مفاصلها على مبدأ التجربة، وأخذت مساحتها وانتشرت بين الأفواه، بعد أن نطق بها فم الحكمة والدراية الحرة.

ولكن ما الميل وما التردّد؟ ما الفردانية وما الوحدانية؟ ألم تكن الطبيعة هي نفسها مصدر تلك المفاهيم، التي أدركتم عبرها المعنى الحقيقي للطبيعة؟ ألا تنبع أصلاً من داخل العاطفة، حيث ينبثق تفسير الوجود والظواهر؟ العاطفة من المباني الأساسية التي تشيّد عليها مباحث الدين، وهي بهذا المعنى أحد أهم مصادر تكوين إدراك روح العالم؛ إنَّها الأرضية الداخلية للحياة، التي لا بد من وجودها، ومن الطبيعي أن تحدّد البنية الجوانية للوعي أساساً للفهم الخارجي



للوجود والعلاقة بالكون والأشياء. ولكن يجب على العاطفة والعقل، إذا كانا معنيين بخلق ورعاية الدين، أن ينظرا في مبدئية التعالق بين الأمرين في تفسير الكون. اسمحوا لي أن اكشف لكم سرّاً، كان مخبأً في واحدة من أقدم الوثائق الخاصة بتقصي أرسخ معتقدات الإنسان بالدين، وفيها تتكشّف علاقة الدين بالشعر، حين كان الإنسان الأول متمركزاً حول ذاته وعاطفته بمواجهة الطبيعة، وتملَّكته سطوة الإله، فحاورها بطرق مختلفة، لكنَّه لم يفهم جوهرها؛ كانت جنّته رائعة، وعلى صفحة سمائه، حيث تتلألأ له النجوم بكامل حلّتها، تكشفت له قيمة لا تتدنى عن قيمة الدين، ولكن معنى الحياة لم يخطر له على بال، ثمَّ إنَّه لم يمر بمرحلة التطوّر الروحي الداخلي بسهولة؛ ولكن الرغبة في الحياة حرّكت عقله وعاطفته بهذا الاتجاه. ولم يكن بخافٍ على الإله أنَّ الإنسان ما خلق لكي يعيش فرداً بمواجهة الطبيعة، فخلق له من يعاونه ويرافقه على امتداد رحلته في هذا العالم، وحين بدأ الإنسان بفتح عينيه لتلقّي الحياة بشكل يمازج بين الإدراك - أداة الحس - والعاطفة، أخذ صوته بالارتفاع لفهم وتفسير ما يحيط به في هذا العالم، وبأسلوب لا يخلو من الحماسة. لقد اكتشف الإنسانية في جسده، في لحمه وعظم ساقيه، ولاحت له صورة الإنسان في روح العالم، ومنذ تلك اللحظة أضحى قادراً على سماع صوت الإله، والرد عليه، وعندها شرع بسنٍّ قوانينه ونظمه بذاته، ولم يعد يستلّها من تلاقحه كفرد مع الطبيعة الأبدية. إنَّ كلّ تاريخ القضية يتأتّى بشكل أو بآخر من خيوط هذا النسيج المقدّس. شوق الإنسان للمقدَّس خلق لديه قدرة على التمتّع برسالة الدين، وساعده على التعاطي مع أكثر أقطاب الوجود، فبدت له بصورة أوضح وأنقى. الدين هو اللبَنة الأساسية لتشييد محبة الآخر، ثمَّ إدراك القيمة العليا لتلك المحبّة



كرابط جماعي لا غنى للفرد عنه؛ لأنَّه الوحيد الذي لا يفتقر بذاته إلى إمكانية تحديد مصير البشرية والاقتراب من مفهوم الإنسانية مادة للدين.

تنحصر الإنسانية بالنسبة إليكم في الواقع والكون بما يتمثل لكم من صورته، فأنتم لا تعتبرون بعلاقة خارجة عن هذا الإطار. وأنا لا أريد أن أقودكم للخروج بالحديث حول هذه النقطة؛ ولكني يجب أن أشير إلى أنّه لشدّة ما آلمني، كونكم وعلى الرغم من كل ما تبذلونه من حب للنزعة الإنسانية وكل ما تبدونه من حرص عليها، ما زلتم على غير توافق معها، لا بل وفي نزاع مستمر بأهم منابعها. إنَّكم تعذّبون أنفسكم في محاولة لإعادة تشكيل الإنسانية، كلٌّ منكم على طريقته الخاصة، ولكنّ الذي يحدث في النهاية هو أنَّكم تتبنّون، وبشكل قد يثير الامتعاض، ما لا يمكن لوجوده أن يؤدّي لأي هدف يرتجى، وأعني التحريض على الدين، وترسيخ ثقافة متعالية عليه. ويجوز لي أن أقول هنا إنَّ مردَّ ذلك عائدٌ في الأصل لما لديكم من نقص في الشعور بالدين. مركز اهتمامكم هو الحركة داخل معترك البشرية، ولكنَّكم تبنَّيتم النظر إليها أفراداً وجماعات، ولعل هذا هو ما وسَّع من مساحة الاستياء منكم، ومن أسبابه أيضاً، والتي يمكن أن تصل إلى ألف سبب، وهو السبب الأكثر جمالاً أو الأفضل من بينها، هو أنَّكم أخلاقيون جدّاً، تسيرون على خطى المفاهيم الأخلاقية، إلى درجة تصل حدّ التبعية، التي من شأنها أن تهبط بكم. تأخذون الناس أفراداً، فتكون لديكم فكرة مثالية عن الفردية، لا تتفق معها. ربما كانت هذه بداية حسنة، ولكنها ستكون أفضل بكثير مع وجود الدين. هلَّا رفعتم فكركم قليلاً، لتبصروا ما للدين من أجنحة، يمكنها



أن تطير بكم للاقتراب من فكرة اللامتناهي، الذي يتعامل مع الإنسانية جمعاء بمفهومها الموحَّد؛ وإن كان يبحث في كلِّ فرد! تمعَّنوا في وجود الفرد، لتدركوا ما يضمره من رسالة الوحي لكم، وسترون أنَّ كلَّ ما يقمعكم أو يحيد بكم عن هذا الموقف سيتلاشى، من دون أن يترك وراءه أيّ أثر. ولا يفوتني أن أفخر بنفسي، على الأقل، لهذا الشعور الأخلاقي المنفتح على الدين، ولكوني أتفهم وأقدّر تميّز الإنسان، وأنَّه قد يكون الجماعة نفسها، وأرجو ألّا تنظروا إليَّ بشعور غاضب، يفيض ازدراءً وتحقيراً؛ إذا ما قلت لكم إن الدين يمنحني كلّ ما هو عظيم حقاً، ويؤمِّن لي إطلالة رائعة على مجمل ما للحياة من مفاصل. فكّروا بعبقرية الإنسان؛ بوصفه مخلوقاً أقرب للمثالية، إلا أنَّه رغم ذلك لا يستطيع فعل أيّ شيء، لخلق ما هو غريب أو غير مسبوق في وجوده، وإن كان الأمر لا يتعدَّى محاولة مجردة لخلط الألوان وشحذ الفرشاة، فقد يفكر الإنسان بأشكال لا تعد ولا تحصى، يحاول تجسيمها، ولكنَّ ما سينشأ لا يتعدّى حدود المعروف أو المتخيل. وهناك الملايين من الناس، على اختلاف ما يغطي أجسادهم من أردية الزمن، تشكِّل لوحة الخيال بالنسبة إليهم الحقيقة الأقرب لسد احتياجاتهم وإرضاء أذواقهم؛ لوحات تظهر الذكريات تارة، تكشف عن نذر الشؤم وسواه مما يمكن أن يرافقها من تنبؤات المستقبل البعيد؛ وبعضها انطباعات رائعة، وهي الأكثر لفتاً للانتباه؛ لأنها الأجمل والألصق بالإلهي الأبدي. على أنَّ متطرفي الاتجاه العقلي، الباحثين عن العلل الاستدلالية، ووجهات النظر الإلحادية، يقسمون الأشياء إلى عالمين: أحدهما آني للشرف والرفعة، أمّا الآخر فمعيب ويثير العار، إنّهم يحرمون أنفسهم متعة وجود الأشياء كما هي، وحيثما تقف. لماذا تصرّون على احتقار ما يشكّل اللبنة الرئيسية



لمعنى الحياة، ويكسبها ثروة وثراءً؟ ألا يجدر بكل المخلوقات أن تمجد من بعث فيها نفحة الحياة، وأن تتخذه محوراً تنجذب إليه؟ ولعله من غير الخافي عليكم أنَّ الاشتغال الأبدي للإنسانية في مجمل وجودها وحركتها وعملها الدؤوب هو إعادة خلق نفسها، وتقديم مظهرها بصور عابرة على مسرح الحياة المحدود. خذوا ما شئتم من هذا التنوع اللامتناهي للظواهر البشرية، من مكوِّنات الإنسانية، ستجدون في كلِّ مفصل من مفاصلها تقريباً شيئاً ما يشير لنقاء فطرتها، في المختلط منها والمتداخل ببعضه، المتمازج حدّ النخاع، والمشبع برائحة سواه، لا بد لكم أن تعثروا على تركيبتها النادرة، بصرف النظر عن الوسيلة التي أعدَّت بها. وإن كانت هناك ارتباطات وصلات أخرى يمكن أن تخطر على بالكم، ولكنكم تعتقدون بأنّها لا يمكن أن تدرك؛ فتلك ليست فجوة أو مظهراً من مظاهر السلبية والقصور في الكون، وإنَّما إشارة إلى أن أية درجة من درجات الخيال لا يمكن أن تدرك روح العالم بكامل ما لها من تداخل. الوحي الإلهي الحقيقي، واقع في ما يتخطى حدود الحالة الإنسانية للخيال المقيّدة بأقصى ممكناتها بنبوءة اللاوعي حول ما يمكن وقوعه في المستقبل القريب. أمّا التعدد في صور الوجود البشري، وهيئة الإنسان المكرورة دونما تغيّر جوهري في بصمتها الحقيقية، ووضعها الدين داخل أطر معنوية محدودة، لأن الإنسانية جمعاء، وبصرف النظر عن مدى التمازج أو التباين الواقع في ما بينها، فضلاً عمَّا يبدو عليها من ثوابت ومتغيرات متناهية، تمتح في النهاية من عقل أبدي واحد، لا يمكن لها أن تنفلت عن مداره الذي يضعها تحت أمره وإرادته. من الطبيعي أنَّ قيمة التشابه مع الآخر لا يمكن أن تصل حدَّ التطابق والمساواة، وفي حياة كلِّ شخص توجد لحظة يشبه وجودها بزوغ التماع الفضة بين كمّ



من معادن أخرى صامتة مطفأة، لحظة ترتفع على ما سواها، وترتقي فتدرك ذروة لا يطالها سائر الزمن. تلك هي اللحظة، التي خُلقَ الإنسان من أجلها، وفيها يدرك وجهته الأساسية، ويعيد كلّ ما فقده من طاقة وقدرة استنفدت في مسارب أخرى. وإنَّه لمن دواعي سروري، أن أمدَّ يد العون لتلك النفوس شحيحة الانتماء لهذه اللحظة، أو أن أرافقهم في رحلة البحث عنها، أمَّا من لم يسبق له أن عاش لحظة الأبدية، فهو بطبيعة الحال ممن سيبدو وجوده كلّه كما لو أنَّه زائد ومحط ازدراء محض.

ولكن أليس من الكافي، إذا كان من بين ذلك الكم الهائل من البشرية، التي لا تعد ولا تحصى، بعضٌ ممن يمثّل الإنسانية بصورتها العالية اليقظة، التي تتجلّى في الانسجام والتوافق الداخلي مع الإيقاع الروحي للعالم، الباعث للبهجة والشعور بالرضا لدى الإنسان؟ أنا ألاحظ من وقت لآخر الحركة الأبدية للبشرية، وتقدّم عجلتها إلى الأمام، وكيف يشارك بعضها البعض بشبكة من علاقات معقدة، حيث لا شيء داخلها يتحرّك لذاته أو بذاته. إنني أتفهم شكواكم في كون العقل والروح، الشهوانية والحسّية منزوعة القداسة والأخلاق، العقل والقوة العمياء تظهر في حركتها بصور منفصلة. ولكن لماذا يبدو لكم كلٌّ منفصلٌ عن سواه ويتحرّك لذاته؟ فالعقل والروح طرفا إدراك يتداخلان في ما بينهما موضوعياً، والأخلاق، التي تنتمي الشهوانية إليها، هي من جنسهما، إنّها جزء من ذلك الكل، ولذا فهو الذي يستوعبها، ولا يمكن لها أن تتعدّى أنساقه. هل تعتقدون أنّ هذا الفصل القسري بين الأشياء، وتفتيتها لأجزاء صغيرة، بالكاد ملحوظة، من شأنه أن يجعلها تفهم على نحو أفضل؟ ولذلك تختفي من وجهة



نظري تلك الخطوط العريضة التي حددتموها للعلاقة الشخصية بالدين؛ وجعلتموها تنتقل كالعدوى، وسرعان ما تطوّق كل شيء، وكأنَّها القوى المغناطيسية المحيطة بالغلاف الجوي، والتي تندمج وتتوحّد مع كلٍّ شيء، وتعكس حيوية وانتشار الأكثر ابتعاداً فيكون في تماسٍ يومي مباشر. هذا هو تناغم وانسجام الكون، وحدته الرائعة، وعظمة إبداع خلقه الأبدي؛ ولكنكم تسلبونه هذا المجد، واضعين إياه في عزلة بائسة، لأنّ ما يشغلكم هو كيفية تقديم الأخلاق، وجعلها في المقام الأول للتعامل مع الوجود، ثمَّ إنَّ تفكيك وتقليب مظاهر الوجود ومكوناته أخذ منكم مأخذاً كبيراً، ونمَّى لديكم مشاعر احتقار الدين. ابحثوا تحت كل الظروف، التي ينعكس فيها هذا النظام الكوني، فيما إذا كان هناك ما سيرتفع للفكر يلوّح له كعلامة على ما هو إلهي. اسمحوا لأنفسكم أن تعجب باصطلاح تقادم الدهر عليه، وثمَّة من استمرأ التخلص منه، وابحثوا في سير جميع الرجال المقدسين، الذين أفصحوا للإنسانية مباشرة عن مضامين رسالاتهم، علَّكم تجدون خطاباً يمكنه أن يكون وسيطاً بين الانطفاء في طريقة تفكيركم المحدودة، والإشراق في الصورة الأبدية للكون. امنحوا كلَّ ما بدا مختلفاً من قبل فرصة أن يضاء بانعكاس هذا القبس الجديد. سينتهي بكم المطاف لذواتكم، ستصلونها ولن تجدوا فيها الأسس الأولى لماهية الأجمل أو الأقل جمالاً، الأنبل والأحقر، وسوى ذلك مما نظرتم إليه في جوانب الوجود البشري وحسب، وإنما سيتكشّف لكم أثر تعاقب الأزمنة على درجات وعي الإنسان وقواه ومظاهر وجوده. هذا المزيج شديد الاختلاف والتضاد، الذي تراكم في مكوناته وصقل شخصيته، سيبدو لكم كلَّ هذا لحظات محورية، لا يمكن تجاهلها في حياة البشرية. من هنا ترسم الأنا لديكم صورة واضحة المعالم



لقيمة التعدد، وخاصية التغيُّر التي تطبع الإنسان. إنَّ العودة بالدين إلى الذات وسحبه إليها تكشف عن طريق إدراك اللامتناهي، إذ لا يكون المرء بحاجة لوسيط يكشف له عن صورة الحدس لدى الإنسان.

ولكن النظر إلى الإنسانية يجب ألا يقتصر على وجودها الراهن وحسب، وإنما أيضاً لما ستكون عليه؛ وما اختطته لنفسها من مسارات كبرى لا يمكن لأنساق المرور عليها أن تكون مكرورة، وإنما مكملة لما سلفها من آثار، وهي مسارات تخضع بطبيعتها لدينامية التغيّرات الداخلية، وتتشكّل على أساس الرغبة، في أن تقود لما هو أعلى وأكثر تطوراً. إنّها حركة تصاعدية، لا يريد الدين التعجيل في سرعتها أو التحكم بها، وهو، أي الدين، لا يتقاطع مع فكرة المحتوى المتناهي للوجود، وإنما يراقبه ويعدّه واحدة من أكبر صنائع خلق الكون. ويشكِّل التاريخ بالمعنى الذي ترسو عليه مقولة الخبرات الكامنة أعلى مكوِّنات الدين، التي لا مناص من أن يبدأ وينتهي معها - حتى النبوة هي الأخرى لا تخرج عن مرمى النسق التاريخي، لدرجة لا يمكن تمييزها فيها عن التاريخ، أو فصلها في سياق مستقل عنه -. وكل الوقائع التاريخية الفاصلة، بصرف النظر عمَّ يربض في نسائجها، حدثت لتحقيق أغراض ومقاصد دينية، فضلاً عن كونها تولَّدت غالباً من أفكار دينية. وفي اشتغالات التاريخ تقعُ أعلى مفاهيم الدين، وتدرجها عبر حقب زمنية مختلفة من وجود البشرية في أرجاء المعمورة، والتاريخ كان ولم يزل أرضية معيارية آمنة للدراسة والمقارنة بين المكونات الهامشية والأصلية للدين. وهنا يمكنكم أن تعودوا لقراءة إرث الأرواح والنفوس المقدّسة وأسفارها، والتي تظهر وكأنها قصيدة شعرية تحتمل تعدداً وعمقاً في المعنى، يفوق ما



يمكن أن تعبر عنه أكبر أحداث الكون روعة. وفيها شحذ لهمَّة نفسٍ، ستأتي قريباً بعد توارٍ دام طويلاً، ستعود، إذ لا يمكن للطبيعة أن تنتج مثلها، لا بد لهذه الروح أن تبزغ، ولكن رؤيتها لا تتاح لغير الرائين القادرين على فهم إشارات تعاقب الأزمنة والآثار التي تنتج عنها. قريباً سيحلّ مرة أخرى لقاء الإنسانية بلحظة لم تكن بمنأى عنها، ولذا عليكم اكتشاف مسار الكون، والاعتراف بتماسك منظومته المحكمة. قريباً تصحو عبقرية الإنسان المميّز، ممن أنهى مسلك حياته بين هبوط وصعود على تضاريس حقب وأزمنة متباينة، ليظهر في موقع مغاير وتحت ظروف مختلفة، بحياة جديدة، تزدهرُ فيها منابع العطاء، وتبدو أكثر معرفة باشتراط وجودها، حيث يحسن فيها مناخ الإنسانية وتطيب أرضها. وهنا تظهر لكم شعوب وأجيال من البشر، وتتجلّى وجهة نظرنا السابقة بالفرد. حياة تحظى بالاحترام، لأن الإنسان بارع فيها، وقادر على العمل، قاصداً تحققه العيني باتجاه اللامتناهي. وإذا لاحظتم السياق العام الذي أحدِّثكم به هنا ودققتم في معطياته مباشرة، من دون الانتباه للأصغر أو إلى الأكبر منها، فستجدون المبدأ الأساسي المحرك له هو القدر أو المصير الأبدي، الذي لا فرق فيه بين السبب والنتيجة، أو العلة والمعلول، وسوى ذلك من الاختلافات، التي يمكن أن تطبع الشكل الظاهر للأشياء. سيتجلى لكم خطابي، وكأنّه خليط رائع؛ من عناد وتزمّت، وصرامة جامدة، وحكمة عميقة مرنة، مزيج من عنف ورحمة، ومحبة لا حدود لحميميّتها. أمّا التنافر أو الاختلاف بين الأشياء، فسرعان ما يلوح لكم، وكأنّه شيء واحد يأخذ أدواره بالتناوب. الدين هو الوحيد القادر على أن يظهر الحياة كقيمة مشتركة تجمع مكوناتها القدرة الفريدة على التمازج، ولكنّ ما يدمر الإنسانية هو الغريزة العمياء، والعادة الجاهلة، والطاعة المميتة، وكلّ



ما هو بليد وسلبي من القوالب العقلية الراسخة في الماضي المعبر عن اختناق الحرية. ولا بد من الإشارة هنا إلى ضرورة الاشتغال في الزمن؛ ابتداء من اللحظة الزمنية إلى القرن، واستمرار خوض غمار الحياة، لإعادة تعويض ما فقد من المحبة الأبدية.

لقد حاولت أن أسلِّط الضوء على وجهات النظر البارزة، والخطوط العريضة للدين، في مجال الطبيعة والإنسانية؛ ولكني آثرت في الوقت ذاته أن أصل بآفاقكم إلى الحدود النهائية. أما بالنسبة إلى أولئك الذين يتعاملون مع الإنسانية والكون على حدٍّ سواء، فإنّ قضية الدين لا تشكِّل لهم موضوعة حيوية، ولا يمكن الحوار معهم؛ إلا على أسس تقودك للحديث مرة أخرى عن الفرد وما هو أصغر منه. لا يذهبنَّ بكم الظن إلى أن تلك هي الحدود العليا للدين، وانظروا بدلاً من ذلك، في ماهيته، فهي واقعاً مما لا يقف عند حدود. إذا كانت الإنسانية متحركة بذاتها وقابلة للصوغ والتشكّل، وإذا سلَّمنا بأنَّها لا تختلف على مستوى وجودها في الكون وحسب، وإنما في الكيفية التي يتحرّك فيها هذا الوجود، ألا تشعرون بأنَّ من غير الممكن أو الموضوعي جعلها هي الكون نفسه؟ إنّها بالأحرى على صلة وثيقة به، كصلة الإنسان بالإنسانية، ولكنَّها مجرد نموذج عن الخلق المتكامل، ويجب أن تكون هناك أشكال أخرى لذلك الخلق، ربما تحدّها أو تتعارض معها. الإنسانية مجرد همزة وصل بين الفرد وسواه، مكان للاستراحة في الطريق إلى اللانهائي، ولذا يجب أن تعثروا على قيمة أخرى أكبر وأعمق، يصدق على أساسها ربط الإنسانية بالكون. أدعوكم لتقليب النظر في العدد القليل من المعتقدات الدينية، التي مررت على ذكرها لكم، ستجدون أنَّها لم تكن غريبة عنكم إلى حد بعيد، وهي على



الأرجح تحتل حيِّزاً من عقولكم، لكنني لا أعرف بالضبط ماهية تلك المشكلة الكبرى ومكامنها: أهي في كونكم تميلون للاستغناء عن الدين، أو أنّكم لا تفهمونه؟ ولذا تجعلون آثاره تغيب عن العقل تماماً، لا شك أنَّ بينكم العديد ممن هم على بينة من الدين ويدركه جيداً، ولعل بعضكم يسميه أيضاً الدين، ولكنكم لا تريدون للدين أن يحتل نقطة محورية؛ ومن ثم تحاولون إقحام كلّ فكرة تنبثق من منابع العقل وبالطريقة نفسها، دائرة الدين في محاولة لنزعه ولتجريده عن محلَّه. ما الذي أوصلكم لهذا الوعي شبيه الشظايا والقدد الممزقة؟ دعوني أقول لكم الآن، إنَّكم لم تذهبوا هذا المذهب قاصدين الدين، وهو ما تحتقرونه وتزدرونه، وإنما أردتم الأخلاق، لكنكم لم ترددوا في إعطائها اسم الدين؛ رغبة في أن توجّهوا له طعنة مميتة. إنَّ ما يجب أن تعلموه، هو أنَّ الدين لا يعرف شيئاً من هذا القبيل، وليست له صلة بالتفاضلات العقائدية؛ حتى عالم النظم الأخلاقية، هو لا يعني له حدس الكون برمَّته. للدين القدرة على معرفة واكتشاف جوهر التعامل مع روح الوجود، وكل ما ينتمي إلى عمل الإنسان، في اللعب واللهو كما في ما تمليه محامل الجد، في الأصغر كما في الأكبر من تساؤلات الإنسان بمواجهة الحقيقة. إنَّ ما يكشفه الدين ويفسح المجال لرؤيته يكون قادراً على القيام ببسطه في أي مكان. نعم، لا أجمل من الغرق في الفعل الأخلاقي، سواء أنبع ذلك من الإرادة الأبدية للكائن، أو أنَّه قفز إلى حيِّز الوجود بفعل خارج عليها، ولكن لا يمكن لقطرة من هذا الفعل أن تختلط بالدين، من دون أن تخلخل نسيجه، فتنقص من نقائه وتحرمه من سعته وامتداده.

يتكشف الجهل المطلق بالدين، وبشكل أكثر وضوحاً في طبيعة



المشاعر الباردة حياله، التي لم يزل حضورها شائعاً بينكم على نطاق واسع. ما مدى ارتباطكم بالمعتقدات، وهل من ضرورة لجعلها تفيض من عواطفكم ووعيكم، فتكون أساساً لتفسير الظواهر؟ إذا كشفت لنا روح العالم عن تجلياتها المهيبة، وتأمَّلنا عظمة إبداعها لهذا الخلق، مصغين لما يحكمه من نظام رائع، فهل هناك ما هو أكثر التصاقاً بالطبيعية من ذلك التقديس الحميمي، الذي يخترقنا بطاقة مقدسة غير مرئية؟ وعندما ننظر في آفاق هذا الكون، ثم نعود إلى الوراء لنفحص الأنا التي نحوز، ألا تتبدى لنا بمنتهى الصغر، ولربما اختفت أو تلاشت، إذا ما قورنت بسعة الكون، ألا يدعونا ذلك لأن نتأثر به، ونكون أقرب للتواضع الحقيقي؟ وإذا كنًّا في نظرتنا للعالم غير محصورين بذواتنا، وإنما منفتحون على سائر البشر، فسيتضح لنا كيف أن كلَّ واحد منهم، ومن دون تمييز أو اختلاف في المعنى، يدرك ما نحن عليه من تمثّل خاص لتساؤلات الجنس البشري، ولذا فإنّ الاستغناء عن الوجود الفردي في هذا السياق ضرورة لا بد منها. هل ثمّة ما هو أكثر طبيعية من تبنّي النظر للجنس البشري بأجمعه ومن دون تمييز؟ حتى على مستوى العقل والقوة الذهنية، وما يخرج من تحتها، كالحب، والبعد النفسي للمودة القلبية، الدين هو كلّ هذه المشاعر، وغيرها، مما يظهر فيه ارتباط الأنا بمحيطها الخارجي حاضنة العقل الحي. لقد عرف القدماء ارتباط الدين بالمشاعر من قبل، وحدّدوا مساربها جيداً، إذ أطلقوا عليها اسم التقوى، وجعلوها ذات صلة مباشرة بالدين، وأنبل ما يشتمل عليه من أجزاء. أنتم تعرفون ذلك أيضاً، ولكنكم إذا ما قابلتم شيئاً في هذا السياق، حاولتم على الفور إقناع أنفسكم بأنّه مما ينتمي للقيم الأخلاقية، تريدون للمشاعر الدينية أن تتخذ مكانها على رقعة الأخلاق؛ متناسين أنّها لا تسعى



لتلك الرقعة، ولا يفقدها غيابها عنها شيئاً من تكوينها. الدين لا يتأثّر بافتقاده لشيء من المحبة والمودة، وهو لا ينجذب لتحقيق ذلك بقدر انجذابه للحركة المتأتية من ذاته، وليس عن طريق الملاحظة التي تنتجها تأملات لموضوعات خارجية، مبنية على أسس عقلية. الدين لا يعرف تبجيل النظم والقوانين التي تقدسونها، على العكس من ذلك، إنَّه يدينها، ويعدها مصدراً غير طاهر، هدفه إشاعة الأنانية، ولا يخرج عن ذلك ما يحدث داخل تلك النظم الموضوعة تحت مسمّيات الشفقة والامتنان، جملة من النظم التي تهين وتحتقر مبدأ الخشوع والتواضع، وإذا ما تحدّثتم عن التوبة عنها، فإنّكم ستتحدّثون عن وقت ضائع في موضوعة عديمة الفائدة. دعكم من كلِّ هذا، وعودوا لتسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية، فلا مناص من التعرف على المشاعر الدينية لذاتها، ومن دون إلصاقها بما هو خارج عنها. ألا تظنون أنَّكم بابتعادكم عنها تستمرئون خداع أنفسكم؟ كلّ ما عليكم هو إعادة تلك المشاعر أو سواها المماثل لها، مما حدث اغتصابه من الدين إلى حاضنته، لأنّ الدين هو المالك الحقيقي لتلك المشاعر، ولما يدخل ضمنها من أخلاقيات، لا تشكل إلا جزءاً يسيراً من مضمون الرسالة الدينية في وساطتها للجنس البشري. ذلك هو الموضع الذي يحتله الدين، وخاصة في ما له من تلقائية في المشاعر، وقد سبق لي أن أشرت إلى أن الدين هو الوحيد القادر على تحقيق عالمية الإنسانية، ويمكنني الآن تفسير ذلك بمزيد من التفصيل.

إنَّ مجمل ما للإنسان من تفاعل، سواء أكان أخلاقياً أم فلسفياً أم فنياً، يكشف بشكل أو بآخر عن سعي جاهد لتحقيق مستوى من البراعة، وهو طموح بارد محجم بحدود لا مفر منها، حدود تستهدف



نقطة معينة من العقل البشري. والسؤال المطروح الآن هو: هل يمكن للإنسان من ذلك الطموح أو التوق المحدود أن يحقّق تدريجياً ما يسير به قدماً لإدراك القوة اللانهائية؟ إنّ البراعة الحقيقية للإنسان كامنة في قدرته على الانسجام مع إيقاع حياته، وهو إيقاع سيبدو مشدوداً لملاحظات فردية غير ذات قيمة، إن لم يتسن له الارتباط المباشر بالدين. لأن الصلة بالدين ستجعل الحياة مكتنزة متنوعة، لا حدود لثرائها واكتنازها بأنغام لا تقاوم، وبهذا يمكنها أن تحوّل كل كلمة بسيطة مأخوذة من واقع الحياة المعيشة إلى لحن متناغم وانسجام رائع.

إذا كان هذا الذي قد أشرت إليه، وآمل أن أكون فيه مفهوماً من قبلكم بدرجة كافية، يشكِّل واقعياً جوهر الدين، فإنّ السؤال من ثم سيكون: في أيٍّ موضع يمكننا أن نقيم ما ينضوي تحت مفهوم العقائد والمذاهب، التي تنبثق بالضرورة عن محتوى الدين؟ وهو سؤال ليس من الصعب الإجابة عنه.

لا شك أن هناك بعض التعبيرات المجردة عن المعتقدات الدينية، أما البعض الآخر فهو انعكاس حر لجملة من الأفعال الأصلية التي تتعلّق بالمعنى الديني، ونتائج مقارنة المواقف الدينية مع سواها من وجهات النظر الأخرى. وإنّ الحصول على محتوى أيٍّ عمل هو انعكاس لطبيعة تلقيه أو العمل عليه، ولكن هذا التصور هو خطأ شائع، لا يجب عليكم أن تتعجبوا من وقوعي فيه هنا. مفاهيم من مثل: المعجزة، الوحي، الإلهام، الأحاسيس الخارقة، يمكن للمرء أن يجعلها تجمع بين الكثير من الديانات، من دون أن يخلَّ بشيء منها كمفاهيم، أما من يضع دينه أساساً للمقارنة والاحتكام لما ينتج عنها،



فإنه سيتعثّر حتماً بتعدد المذاهب والمعتقدات، لأنَّها ستعترض طريقه لا محالة، وقد لا يجد حلاً للتعامل معها. انطلاقاً من هذا المعنى، تنتمي جميع هذه المصطلحات لمجال وحاضنة الدين عامة، وهو انتماء ضروري، ومن دون التفكير في حدود تطبيقها أو الحد الأدنى من فاعليتها. أمَّا الخلافات الواقعة في ماهية الحدث الذي بلور المعجزة فعلاً، وفي الطابع الحقيقي الذي شكَّل شخصية المعجزة بمواجهة وجودها، وما عدد الرسالات والوحي السماوي، وإلى أي مدى على الإنسان أن يؤمن بها، ولأي سبب عليه أن يؤمن؟ كل هذه التساؤلات وسواها هي مما أنتجته حماقات الآراء الفلسفية وسخرت العقل له، وهي عمليات صبيانية نتجت عن خلط الميتافيزيقا والأخلاق بالدين. إنَّكم تمزجون الأشياء ببعضها، فتجعلون الدين يضيق بها ذرعاً، لأنه غير معني بمجمل الأحكام العلمية والمادية، ولا ينبغي لها أن تكون بكل هذا الاقتراب منه. أرجوكم لا تكونوا منشدين للمناظرات السفسطائية، وما يتوارى خلفها من مغالطات ورياء، ثمَّ تجعلوا ما يتمخض عنها محسوباً على الدين.

ما المعجزة؟ أخبروني بأية لغة شئتم - وأنا بطبيعة الحال لا أتحدث عن المعجزة التي ستبرز لنا من وجهة نظركم بعد تدمير الدين كله - إشارة أو تلميحاً. إنَّ كل تلك المفهومات المتصلة بها لا تفصح إلا عن شيء من العلاقة المباشرة بالظاهرة اللانهائية للكون، وهو مما يستبعد منه أن يكون على صلة بصورة الظاهرة الطبيعة المتناهية. المعجزة هي الاسم الديني لهذا الحدث، حدث اتصال المخلوقات كلها، حتى الأكثر طبيعية وشيوعاً باللانهائي، ميلها إليه وقناعتها بأنه المتحكّم المطلق بوجودها. المعجزة من وجهة نظري كامنة في كل



شيء، وليس كما تتصورونه عني، وهو أني أضعها في إطار الغرابة وغير المألوف. وكلما كنتم أكثر تديناً كلما تلمَّستم مظاهر الإعجاز في كل مكان، أما عن الخلافات الدائرة عن الحدث الإعجازي وماهيته، فهي في الحقيقة لا تكشف بذاتها إلا عن افتقار مهول في الحس الديني لدى المختلفين. ففريق يلهث وراء تفنيد المعجزة أنَّى توفر له اتجاه، وفريق يحاول، وعلى العكس من الأول، أن يثبت وجودها هنا، أو يشير إليها هناك.

وما الوحي؟ كلّ رأي أصيل وجديد عن الكون وحركيّته هو ومضة من ومضات الوحي، وأظن أن كلاً منكم يعرف ما أرمي إليه بالأصيل والجديد. وما الإلهام؟ إنَّه ليس سوى الاسم الديني للحرية، فكل عمل حر هو في جوهره فعل ديني، وكل عطاء يحمل بين طياته وجهة نظر دينية، وكذا كل تعبير حر يحمل شعوراً دينياً. وما آثار الرحمة؟ كل المشاعر الدينية هي أثرٌ خارق، لأنها مشاعر تتباشر مع الفعل الكوني اللانهائي. وهكذا ما تقدم من مفاهيم وسواها وإذا كان ينبغي للدين أن يشتمل على مفاهيم هدفها الأول والأساسي هو أنها تشير إلى الطريقة الأكثر غرابة بوعي الناس بالدين؛ ولعلها تكتسب أهمية أكثر لأنها تصف ليس المشترك في الدين وحسب، إنما وعلى وجه التحديد، ما يجب أن يكون عاماً فيه.

نعم إن من لا يقوى على مشاهدة المعجزة في داخله، ولا يتأمّل تجليها حيث النقطة التي يقف عليها في هذا العالم، ومن ينأى عن استغوار نفسه وتسلق بواطنها، ولا تتوق روحه لامتصاص جماليات العالم والارتواء من نظم الكون، ولا يشعر بين الحين والآخر بسطوة الإله عليه، بالمقدس الذي يتحدّث ويتفاعل في وجوده معه، ومن لا



يعي على الأقل - لأن هذا هو في الواقع الحد الأدنى - أنّ مشاعره هي حصيلة من الآثار المباشرة للاتصال بروح العالم، وأن ما في داخله من نقاء وصفاء، هو شيء فريد من نوعه غير قابل للتكرار أو النسخ، ذلك هو من لا دين له. الاعتقاد، أو ما يسمى عادة بذلك، هو قبول ما يفعله الآخر بإرادة التفكير، وإرادة التعاطف معه فيما فكّر وشعر به، والدين هو خدمة الإحساس، وبدلاً من أن تكون الأعلى في الدين، كما قد يتصور أحد، يجب أن تكون الأقرب إلى روحية تلك الخدمة وبساطتها، التي ثمّة من يرغب في أن يقحمها في فضاء مقدّس. إنّكم لا يمكن أن تثبتوا أن الدين غير قادر على دفع نشاط الفهم وتقويمه، أو أنّه يتعارض مع رغبتكم في الوقوف على معرفة، أينما حللتم في الطريق التي تسيرون عليها. ولا صلة للدين من بعيد أو قريب بالعبودية على اختلاف أشكالها، ولا الدين بسجن أو مساحة أسر معين، ولذا عليكم أن تكونوا جزءاً منه، لأنّه الحرية، نعم، وأن تكون حراً هو الشرط الوحيد الذي يمكنك بموجبه دخول منظومة الدين. ولكن ومع ذلك، يكون كل إنسان، باستثناء ثلة مختارة، بحاجة إلى وسيط، وهو الدليل الذي يوقظه من الغفوة الأولى، ويوقد إحساسه بالدين، ويمنحه الاتجاه الأول، ولكن هذا الدليل لا ينبغي له أن يمكث طويلاً لأنّه لا يوجد إلا بوصفه حالة موقتة؛ فالإنسان فرداً هو من يجب عليه في النهاية أن يفتح بصيرته للدين، وأن يقيم ما يحتوي عليه من كنوز، وإلا فإنه لا يستحق مكاناً في مملكة الدين، لأنّه غير قادر على اكتشافها.

إنّكم على حق في احتقار المغفّلين، الذين يستمدّون دينهم من مستودعات أخرى، أو أولئك الذين يجعلونه معلقاً بخط ميت،



يتّخذونه مادة للقسم، ومنه يحاولون إثبات كل شيء. كل كتاب مقدّس ليس سوى ضريح للدين، نصب تذكاري له، يشير إلى أن عقلاً كبيراً كان هنا، ولم يعد بعد على قيد الحياة؛ لأنه لو كان حياً وفاعلاً، فهل سيكون من شأنه أن يضع مثل هذه القيمة العالية لحبر على ورق، حبر ربما كان مجرد تعبير خافت المعنى صدر عنه في سياق ما؟ ما من أحد له دين ويعتقد بحدود كتاب مقدّس، أمّا من يقدم على ذلك فإنّما يحاول خلق دينٍ لا يحتاج إليه. لقد أظهرت لكم ما هو الدين في الواقع، فهل وجدتم أي شيء في ذلك ما يشير لعدم تكريم التكوين المعرفي للإنسان؟ ألا يزيد الإحساس بالفردية والانعزال من حجم الاشتياق والتلهف للقوانين الروحية الأبدية للطبيعة وللكون، والسعي للاتحاد والتماسك معها في أفعال النفس؟ ألا يشعر أحدكم في كثير من الأحيان، بذلك التوق المقدّس لشيء مجهول؟ أتوسّل إليكم أن تصغوا لما تهمس به فطرتكم، أن تدركوها وتتبعوا ما يصدر عنها! ابتعدوا عن العاري والكاذب، الذي يزخر به هذا العصر، لأنه يجب ألا يخضعكم إليه، وإنما عليه أن يخضع لكم ولصياغاتكم وصنائعكم! عودوا مرة أخرى لذلك الشعور القريب منكم، الذي فصلتم عنه قسرياً، فتدمّر الجزء الأكثر رقياً وجمالاً من وجودكم.

يبدو لي أنَّ أكثركم لا يصدِّق أصلاً أنَّي لم أرد أن انتهي في هذا الموضع من عملي الحالي. وكأنكم تعتقدون بأنَّ ليس بالإمكان التحدّث بدقّة، لا عن ماهية الدين، ولا عن الخلود، ولا عن الألوهية. أرجوكم أن تتذكّروا ما قلته لكم في البداية؛ وهو أنَّ الأشياء السالف ذكرها لا تشكل المحتوى الأساسي للدين. تذكروا أنّي عندما رسمت المخطط التفصيلي لبعض المصطلحات، أشرت إلى الطريق التي في



نهايتها تكون الألوهية، لِمَ أنتم مترددون في دخوله، وما الذي تملكونه أصلاً لكي تخافوا خسارته؟ لا بد لي أن أؤكّد مرة أخرى؛ أن ليس لدي طريقة تفكير دينية خاصة بي تختلف عن الآخرين؟ أرجو ألّا تعتقدوا بأنّي أخاف قول كلمة حقٍّ عن الألوهية، بسبب خطورة الحديث عنها. لقد قلت كلمتي قبل أن يكون هناك أيّ تعريف قانوني معترف به؛ لله، وللوجود، قد رأى النور وأصبح راسخاً في الامبراطورية الألمانية. ولا يجب أن تذهب بكم الظنون فتقودكم إلى ناحية أخرى، وهي أنّي أمارس خداعاً ورعاً، وأريد أن أكون المتحدِّث بكلِّ شيء للجميع، عن طريق إنزال شأن الأشياء، ثمَّ تقديمها بشكل ظاهري قابل للإدراك. تلك الأشياء التي لا بد أن تكون لها عندي أهمية كبيرة، تفوق ما أروم الاعتراف به هنا. لذلك أود أن أتحدَّث إليكم قليلاً، وأن أحاول توضيح فكرة مركزية؛ وهي أنَّ الألوهية بالنسبة إليَّ ليست إلا رؤية دينية فردية، ليس بالضرورة أن يرتبط بها الآخرون، وتبعاً لوجهة نظري وبموجب فهمي للإيمان، الذي تعرفون «لا وجود للدين بغير إله»، ولا يمكن لأيِّ شيء أن يكون من دونه. وفي ما يتصل بالحياة الأبدية أريد أن أقول لكم رأيي بصراحة. ولكن أخبروني في البداية عما يجول في خواطركم بخصوص الألوهية، وماذا تقصدون بما تذهبون إليه فيها؟ لا وجود لتعريف غير قابل للنقض، ثمَّ إنّ أكبر الخلافات في الرأي الموجودة في هذا السياق، مردها إلى اختلاف التعريفات والمفاهيم. الله باعتقاد الغالبية هو ليس سوى الروح الخلاقة للكون، والإنسان هو الصورة المثالية لإله ذلك الكون، أما الإنسانية فهي كلُّ شيء محوري تدور طبيعة فهمه على محور المعتقد الذي تدين به الغالبية، وخصوصاً بالنسبة لخبراتها وتجاربها، إذ تتجه لتحديد عقيدة وأصل ما يؤمنون به من إله.



الآن وقد قلت لكم بوضوحٍ كافٍ؛ إنَّ الإنسانية لا تعني بالنسبة إليَّ كلّ شيء، لأنها قد تسير كما أسلفت بعملية مواضعة أو توافق إيماني، ينشد كوناً جديداً، تكون فيه الإنسانية، فضلاً عمَّ يتصل بها، مجرد شيءٍ متناهٍ في الصغر، فهي في النهاية ليست سوى مظهرٍ وحيدٍ وفانٍ. هل يمكن أن يكون الإله الذي هو مجرد الفكرة الخلاقة للإنسانية قمة الإيمان عندي؟ لا ريب أنَّ بعض النفوس قادرة على تخيّل ذلك؛ لأنها ربما أكثر شعرية، وأعترف بأن لتلك النفوس مرتبة أعلى. إلههم هو إلهٌ واحد، يختلف كليّة عن الإنسانية أو الأفراد، إنّه نموذج متفرّد لصنفٍ خاصٍّ به. وعندما يريني الوحي ويعرفني بهذا الإله، الإله الواحد، ولا بد لي أن أعلن عن كون الآلهة الكثر، الذين تجود بهم مخيلة الإنسان وأنا لا أكره في الدين شيئاً أكثر من الهوس بالأعداد - يمكن أن تكون اكتشافاً محبباً بالنسبة إليَّ، لكنني أطمح لنوع آخر من العلاقة بالله، علاقة أعمق وأعلى من ذلك الفضاء السطحي للإنسانية، ولا شك أن كلّ نوع من أنواع العلاقة هو بحد ذاته جزء لا ينفصل عن تبعيته للكون. هل من الممكن أن يكون الله بالنسبة إليَّ بناءً على هذا أكثر من مجرد رؤية وحيدة؟ من المحتمل أن تكون تلك مفاهيم عن الله منقوصة، ولكن دعونا نذهب إلى ما هو أسمى، لمن هو أعلى كياناً، لمن هو روح الكون، لمن يحكم الكون بحرية وحكمة. إنَّ الدين الحق ليس رهينة لفكرة، واعتناق الدين معناه تدبر الكون، وقيمة الدين عندكم ترتكز الى الطريقة التي تتأملون بها الكون، وإلى المبادئ التي تستقونها من صنائعه. وليس بمقدوركم أن تنكروا أنَّ ربط الألوهية بكل رؤية في الكون أمر بسيط ومريح، ولهذا كان لزاماً عليكم أن تعترفوا بأن ديناً بلا إله يمكنه أن يكون أحسن من آخر له إله. الكون يعرض نفسه بصنائعه على الإنسان



البدائي، وهو إنسان لديه فكرة مرتبكة عن الشمولية والأبدية وغرائز غامضة، كل هذا مع عدم وجود الكثير في ذهنيته للمقارنة، عدا فوضى تبدو بذات الشكل المرتبك، وبغير تشعب أو نظام أو قانون يمكن بواسطته فصل شيء بذاته، من دون أن يحدث هذا الفصل بعشوائية لا تعترف لا بالزمان ولا بالمكان. ومن دون النزوع لإحيائه؛ فإنَّ مصير الإنسان الأعمى يقدم له ربّاً بلا خصائص أو ميزات معيّنة، مجرّد صنم أو معبود، وعندما يتخذ من هؤلاء الآلهة كثرة فلا يمكن إيجاد فرق بينهم، في ما عدا تقاليد عشوائية تفرضها حدود المحيط. أمّا إذا نظرنا إلى مرتبة أخرى من العلم، فإنَّ الكون يظهر نفسه بتعدّدية ليست لها وحدة. ليست تعددية غامضة من عناصر وقوى لها صراع أبدي، يحدّد وجوده مصيره الإنسان الأعمى وطبيعته، وإنما هي ضرورة متحمّسة لتحرّي الأسباب والعلل والعلاقة في ما بينهما، مع الأخذ في الاعتبار استحالة وجود التعددية والواحدية على حدٍ سواء. إذا أخذتم فكرة إله لهذا الكون من زاوية التعدد، فإنها تتفتّت إلى عدد لا نهائي من المقدّمات والمقاصد. وكلّ من العناصر والقوى التي ليست لديها قيمة التوحد مع سواها تنفخ فيها الروح بشكل خاص. ومن هنا تتشكّل الآلهة بعدد لا نهائي، ولا يمكن معرفة الفرق بينهم إلّا عن طريق ما يناط بهم من موضوعات ونشاطات وعقائد. لا بد لكم أن تعترفوا؛ بأن النظرة للكون من زاوية الوحدانية الإلهية، هي الأهم والأكثر وقاراً. أليس من الضروري أن تدركوا أنَّ الذي يرفع وعيه إلى مرتبة الوحدانية، وينحني لها، من دون أن تكون لديه فكرة عن الآلهة، سيكون من جهة أمام ضرورات لما تبلغ هدفها، لكنه من جهة أخرى له دين أكثر عمقاً ودراية من عابد الأصنام البدائي؟



والآن دعونا نصعد أكثر، هناك حيث يجتمع كلّ من كان يتصارع في السابق، وحيث الكون كلّ في تعدّده، كنظام، حيث يكون الإله اسماً على مسمّى، ألا ينبغي أن نعدّ الذين يرون الكون وحدة أو كلاً، وأيضاً الذين لم تعد لديهم فكرة الإله مركزية، مع اعترافهم بالانتماء للدين، ملحدين أكثر ثقافة؟ وهذه هي حالة الازدواجية وعدم الجدية كما تعوّدنا عليها، هذه هي العلامة السوداء التي تشير إلى تشويه الثقافة، لأنَّ هؤلاء أكثر ما يرفضون من هم بمستواهم نفسه، وعند نقطة واحدة من هذا المستوى، وهي تلك الرؤى الكونية التي يمنحها الإنسان لنفسه، والتي تتوقّف على إدراكه للوجود، ويكون المقياس الأساسي لتدينه، هو ما إذا كان لديه إله يؤطر فضاءات رؤيته، ويحيط بكل ما يتعلّق بمخيلته. في الدين يتأمل الإنسان الكون، بوصفه مؤثراً وفاعلاً في الإنسان. وحين تتعلّق مخيلتكم بإدراككم للحرية، وبطريقة تجعلكم تتغلبون على حدود هذا الإدراك، عندها يمكن لما تعتقدون أن من واجبه خلق فكرٍ ذي فاعلية أصيلة وأساسية، أن يكون بخلاف التفكير كمخلوق بعيد عن الدين، ومن هنا ستشخِّصون روح العالم، وسوف يكون لكم إله، وعندها يلتصق الخيال بالعقل، بحيث تدركون أنَّ الحرية يكون لها معنى في الحال المفردة وللفرد الواحد، وستملكون عالماً متكاملاً، وليس إلهاً بذاته. أتمنى ألا تعتبروا هذا زندقة، عندما أقول لكم: إنَّ الإيمان بالله يحدّده الاتجاه الذي يسلكه الخيال، سوف تعلمون أنَّ الخيال هو الشيء الأعلى قدراً، والأكثر أصالة في الإنسان، وكلّ ما سواه ليس سوى انعكاس عنه. سوف تعلمون أنَّ الخيال هو الذي يخلق لكم العالم، وأنّكم من دون هذا العالم لن يكون لكم إله.



في الدين لا تكون فكرة الإله بالعلو الذي تعتقدونه، ولم يكن بين المتدينين المخلصين متعصّبون أو متحمّسون أو واهمون بوجود الإله، تركوا برزانة ما يسمى الإلحاد جانباً، فقد كانت هناك دائماً أشياء أكثر ابتعاداً عن الدين، وهي بالنسبة إليهم أكثر من الإلحاد. الله أيضاً لا يظهر في الدين إلا فاعلاً، والحياة والفعل الإلهي للكون لم يكن أحد لينكره. ليست للدين علاقة بالإله الكائن، وقد يبدو الأمر كما لو أن إله هذا الدين لا يجدي نفعاً لا لعالم الفيزياء ولا للواعظ الأخلاقي. ذلك هو سوء الفهم المحزن، والذي سيبقى للأسف كما هو. إله الدين الفاعل لا يمكنه أن يضمن سعادتنا، لأنَّ كياناً حرّاً لا يريد أن يؤثر في كيان حرٍّ آخر، إلا ليعرِّفه بوجوده من خلال الألم أو اللذة. كما أنَّ هذا الكيان لا يجذبنا للسلوك الأخلاقي، لأنَّه لا ينظر لسواه إلا بوصفه فاعلاً، لا يمكن أن تمارس أو تبتكر أفعالاً على ما له من أخلاقيات.

أما بالنسبة للخلود فلا يمكنني فهمه إلا عن الطريق التي يستوعبها الدين، ولكن اشتياق الناس للخلود بذاته ليس دينياً، بل هو ضد روح الدين، لأن أمنيتهم الحسّية هذه ليس لها سبب سوى النفور من مغزى الدين. تذكّروا كيف أنَّ الخلود بكلِّ كيانه ينشد توسعة ملامح شخصياتنا المعزولة لتذوب وتتبدّد في المطلق، ولكي نكون بتدبّرنا للكون في وحدة معه. ولكنكم تتذمّرون من فكرة الخلود بهذا المعنى، لا تريدون الخروج مما أنتم فيه، لا تريدون أن تكونوا شيئاً آخر غير أشخاصكم، إنَّه شعور مركب من الخوف والقلق، يتملككم فيكسيكم فردية أخرى على فرديتكم. تذكروا أنَّ أسمى هدف للدين، هو أن يكشف كوناً متكاملاً من الإنسانية، بكل ما لها من جوانب. وشكوى الإنسانية الوحيدة، هي أنَّها لن توفّق لإدراك ماهية الخلود في الكون. المعنيون بهذا الخطاب لا يريدون حتى أن ينتهزوا هذه



الفرصة التي يمنحهم إياها الموت ليخرجوا من سجن الإنسانية، إنَّهم خائفون من كيفية أن يأخذوها معهم للعالم الآخر، أينما ينشدون على الأقل بصراً قوياً وجسماً صحيحاً. لكن روح العالم تحاورهم بما هو مكتوب: من يفقد حياته لأجلي فسوف يجدها، ومن يبغي الحفاظ عليها فسوف يفقدها. الحياة التي تريدون الحفاظ عليها هي حياة ذليلة، وإذا كان أمرها يهمّكم ومتعلّق بخلود أشخاصكم، فلماذا لا تهتمون أيضاً بخشية أن تردّوا لما كنتم عليه في السابق؟ لماذا تعتنون أكثر بما سوف تكونون عليه؟ وما الذي ينفعكم به المستقبل ما لم يكن لكم ماضٍ؟ اشتهاء الخلود على هذه الشاكلة هو ليس بخلود، ولبئس الخلود، الذي ليس لكم عليه بسلطان، إنَّكم تفقدون خلوداً بإمكانكم أن تحصلوا عليه مؤثرين أن تقضوا حياتكم الفانية مع أفكار تخيفكم وتعذّبكم بلا فائدة. حاولوا التنازل عن حياتكم، حبّاً بالكون المطلق. تطلعوا لأن تقضوا على فرديّتكم في هذه الحياة، وأن تعيشوا في الواحد وفي الكل، حاولوا أن تكونوا أكثر من مجرّد أشخاصكم، حتّى تفقدوا القليل حين تفقدون أنفسكم، وحين ترون أنكم تنسابون مع الكون كانسياب النهر، حين يتشكّل فيكم حنين كبير ومقدّس، فسيكون بوسعنا أن نتكلّم عن الأمل الذي يعطينا الموت إيّاه، وعنِ المطلق الذي سنسمو إليه بكل تأكيد. هذا هو نهجي بخصوص كلِّ تلك الموضوعات. الرب ليس كلّ شيء في الدين، ولكنه واحد والكون أكثر، وهو أيضاً لا يمكن قبوله والإيمان به عشوائياً، إنّكم تريدون أن تؤمّنوا الحاجة إليه؛ ليواسيكم ويساعدكم، لأنَّكم مضطرون لذلك. الخلود يجب عليه ألا يكون أمنية، عندما لا تكون هناك مسألة توصلتم أنتم لحلّها، وهي أن تكونوا في قلب اللامتناهي، وفي وحدة مع المطلق، وأن تكونوا خالدين في اللحظة، وذلك هو خلود الدين.




مكتبة
الفكر الجديد

الخطاب الثالث

عن التثقيف للدين




مكتبة
الفكر الجديد

إنَّ ما اعترفتُ به بمحض اختياري، وجعلته متأصّلاً في شخصية الدين لا أطمح من ورائه لأن أجعل من الملحدين مؤمنين، ليس هذا هو ما يحدوني البتة، ولا هو ما يدفعني ويحرّضني للحديث معكم عن تعليم وثقافة الإنسان وما لها من ظروف واشتراطات داخل السياق الديني كعملية باطنية طبيعية ومتعالية على حين، لأن الهدف النهائي للدين لا يعرف طريقاً أخرى غير تلك التي تنهض بمبادئه ويعبِّر فيها عن نفسه بحرية. وإذا ما تحرَّكتم بكل ما لكم من قوة لوضع كلَّ الثراء العقلي الذي تحوزون في خدمة حركية الدين، وعلائقية الخارج والداخل في كيانه ذي البنى التبادلية، فيجدر بكم داخل هذا المقام أن تتوقعوا اختراق اشراقية الدين لكلِّ فرد منكم حتى النخاع. نعم، كلّ فرد وعلى اختلاف ما ينتمي إليه من أجواء يتنفّس داخل حاضنتها ستتأثر فيه تلك الجزيئات المتجانسة والمتناغمة داخل وعيه ووجوده بأجوبة الدين وصوتها، الذي سرعان ما سيجعل الآذان صاغية لما يرمي إليه من مرجعيات وخبرات تأملية قادرة على النفاذ إلى الطبيعة البشرية. وبهذه الطريقة فقط من التعبيرات الطبيعية عن حركيته يحاول الدين خلق اضطراب مماثل في من يتناغم معه ويشاطره المسار. ولأنَّكم لم



تنجحوا في العثور على مسار الدين رفضتموه منجذبين وبفخر لكلّ محفّز غريب، ولكلِّ أسلوبٍ عنيفٍ، مستأنسين بقناعة مريحة، كما لو أنَّ الساعة لم تحن بعد حيث يمكن للحال أن تتغير بكم أيها الأخوة. هذا المَخْرج الفاشل ليس جديداً بالنسبة إلي. كم من مرة عزفت فيها على أوتار موسيقى الدين في محاولة منِّي لتحريك الحاضر في باحة الخليقة، وقد رفعت أصوات ناعمة متماهية مع اندفاع الشباب بشوق، تصاعد تدريجياً للانسجام الكامل مع المشاعر الدينية: ولكن لا أحد منهم تأثّر بالخطاب أو ردَّ عليه.

كم عدد من ستكون هذه الكلمات بالنسبة إليه، والتي أنا على ثقة تامة بمرونتها وما تشيعهُ من أجواء خيِّرة سليمة، فرصة للرد بشكل قد يبعث الحزن، من دون أدنى فهم أو يقظة واعية لما ترمي إليه من مقاصد؟ وكم من مرةٍ سيتجدّد لي أنا ولجميع الدعاة إلى الدين ذلك القدر الأكيد ابتداءً؟ ولكن هذا لا يثير فينا الحنق والمشقّة على الإطلاق، لأننا نعرف منذ البداية أننا لا يمكن أن نُواجَه بشيء غير هذا، فضلاً عن كوننا لا نجبر أحداً على الدين بأية طريقة كانت، لا الآن ولا مستقبلاً. إنَّما افتقد إليه في داخلي لفهم ذلك الجوهر الخاص بالتأثير في البشرية جمعاء ليس بقليل أبداً، ولذا فلا عجب إن كان عدد كبير من الناس، لا يجد غضاضة في نفي الدين.

الدين جوهر الحياة وغذاؤها الكبير بالضرورة: وإلا كيف يتسنى لنا أن نتصوّره ونحدس وجوده وما له من حدود تفصله عن كل ما يجاوره أو يتماحك معه مما للإنسان من نظم ومعارف؟ إلى أي مدى يمكن للإنسان أن يحقّق حضوره هنا وهناك من دون الدين، وهو الذي يوقفه تارة ويدفعه أخرى؟ هل من مكان يحتوي شتّى مصائر الإنسان



وضروب وجوده من دون أن يخالها شيء من اضطراب أو تتزعزع كيما يمكن للمرء أن يحدّد مساحته في العالم؟ لا شك أن للدين رؤيته السامية، إنّه يتجلَّى الآن أكثر من أي وقت مضى، إذ أدرك وجوداً حيَّاً لم يتسن له منذ قرون. من ذا القادر من دون ذلك الرابط المصيري على إنقاذ نفسه من صخب هذا العالم وزحامه؟ ومن يستطيع التصدي من دون الانعتاق عن الدنيوية والانتماء إلى الجوهر الروحي العاطفي لقوة الانجذاب لمنطق الفائدة والمصلحة المحدودة؟ من ذا الذي يترك الخطّ العريض المتأصّل في كيان التاريخ ويملك الهدوء والقدرة الكافية لكي يبقى صامتاً متّقد الحدس؟ ولكن حتى في أزمنة تألق الدين، ومع وجود أفضل النيات، لا يقتصر دخول منظومة الدين على فكرة وجود الرسالة وطبيعة التعاطي معها، وإنما على كيفية غرس الدين ورسم السبيل المؤدية إلى التديّن: والسؤال الآن أين نجد هذا النهج؟ ما يمكن للفن أو أيّ نشاط نادر ومتميّز أن يسببه للإنسان، هو ذلك وحسب، أن ينقل إليه ما يريد إبلاغه من رسالة فيجعله كرّاساً لأفكار وتصورات تستعيدها ذاكرة الإنسان في الوقت المناسب، ولكن ما لا يمكن للفن أن يخلقه في الإنسان هو أن يمنحه إمكانية لأن يبوح بذاته هو من دون أن يجعلها أداة للبوح بذات آخر سواه. لعلكم تدركون التناقض، الذي لا يتعسّر انتزاعه أحياناً من بين الكلمات. لا يمكنكم الاعتياد على حمل شخص ما على انطباع معين، فكثيراً ما تأتون بالرأي لكي يكون مقدمة لرد فعل معين، ولذا قلما يحدث أنَّكم تداخلتم مع الآخر بنشاط عقلي حر مبني على تجاوز هذا النسق من الارتباط. وباختصار، يمكنكم العمل على آلية تضطلع بتفسيرات العقل، ولكنكم غير قادرين على العمل بالطريقة نفسها في تلك الورشة المقدسة من الكون، لأنكم لا ترغبون في تغيير أي شيء وتحريكه في



دائرة تحويل الدين إلى ذات مستقلّة عن قابلية ادراكها عقلياً، كل ما يمكنكم عمله هو أن تنسحبوا، أن تعودوا القهقرى، أو تتواروا بشيء من الريبة والتوجّس.

إنَّ ما ينتمي للحياة الحقيقية للإنسان هو اللب المكوّن للدين، وينبغي أن يكون محركاً دائماً حيوياً وفعالاً في أطوار الحياة. ومن هنا يكون الدين ذاتاً روحيّة متعالية ومتجذرة في الإنسان، مستمرة النشاط ونابضة بالحياة، يمنح كلَّ شيء كينونته الخاصة، ويقيم لكل حدس أو فكر أو عمل موضوعه السماوي المتخيَّل. وكلُّ ما يحقق وجود الدين بوصفه سلسلة متّصلة في التنامي في العقل البشري، يقع بعيداً عن مجال التعليم بالمفهوم العقلي الصرف للمصطلح.

لا شك في أننا قادرون على إخبار الآخرين بالصراع الدائم فينا لتشكيل ما لنا من آراء ومذاهب، بصياغات فعلية تومئ لمحصلة جيّدة من الفهم. ونكون هنا بحاجة إلى لغة قادرة على الاقتراب من سلطة الروح ومحاكاة ما لها من قوة الإلهام ودوره في الخلق الشامل. ولكننا في الوقت ذاته نعرف جيداً أن هذه اللغة ومهما بلغت قدراتها فهي ليست سوى ظلال وإشارات لحدسنا ومشاعرنا، وهي قاصرة بذاتها عن التعبير عن التصور الذهني المنفلت من الإطار اللغوي. ولكن صفوة القول هي أنَّ اللغة، وإن كانت لا تخلو من الابتسار والتعسّف، الوسيط الوحيد المتمكّن من جعل الاقتراب والفهم من تلك التأملات والمشاعر قابلاً للادراك.

التأمل موقف وجودي ذو خلفية إيحائية غير قابلة للتعلّم، إذ ليس من الممكن المرور إليه إلا عبر أنفسنا، أنفسنا التي امتصت ضياء الكون وتعشَّق في كيانها منذ أن وجد، وحدها موهبة الخيال حاضنة



طاقة النفاذ للتأملات وتقلقلاتها التي تتخلل الروح، ولكن أهذا هو الدين؟ أمَّا إذا أردتم مقارنة معنى الكون بالفنون فيجب عليكم أن تتعاملوا مع هذا التدين السلبي - إذا جاز لنا أن ننعته بذلك - بما لا يضعه بمواجهة أفكار لم تقوَ على إنتاج أعمال فنية كبرى تستفز المتلقي تمسّه وتخاطبه تصريحاً أو تلميحاً، لأنَّها تقترب من الدين، بوصفه اشتغالاً على الإيقاع الداخلي للإنسان، وصلة فنية تتخذ من الوجود بأسره مسرحاً لها. العالم كله هو من المنطلق الديني معرض موضوع تحت تصرّف التلقي الديني لأنّه نقطته المركزية، وذاته التي يتشكّل منها، وأن تصوّب الفهم نحو المركز يعني أنّك تتجه لفهم الكل الشامل، الذي يجعلك محيطاً بالأجزاء. ربما بإمكانكم مقارنة الدين أيضاً بتلك الأعمال الفنية الرفيعة التي تجلب معها حاجة ملحّة للتأويل، لأنّ جوهرها لا يتشكّل إلا عبر تجاوز سطحها واجتياز الهوة للنفاذ لبنيتها التحتية، أرضيتها التي عجزت بلاغة اللغة عن إصباغ المعنى عليها. هذا هو الهدف، والقصد بأقوى صوره المتعمّدة لكل ما ترمي إليه فكرة تعليم الدين. دلّوني على من له بصيرة نقية، وقدرة على التأمل وحذاقة في الملاحظة، ودماثة في الخلق وملكة الشعور بقيمة الفن وجوهره، لأنّي سأقصده من فوري لأتعلم بين يديه معنى الدين. في الدين وحده لا في سواه ينظر المعلّم المحترف والتلميذ المبتدئ إلى أفق واحد، لأن فهم الدين لا يقع خارجه. على أنَّ من يحاول فهم صورة دينه عبر نقضه لصور ديانات أخرى، يكون قد وضع دينه قيد أسر سواه، لأن فكرة الدين حرة، ولا تستقيم حريتها إلا حين تعيش بذاتها، تتغذى على فردانيتها وتقطع طريقها وحدها. تعلّم الدين توسيع لأطر المعرفة، ما إن تنبلج بواكير الضياء المقدّس في روح الإنسان حتى يشعّ النور، يبدأ بالاتقاد والتوهّج فيها ليصبح شعلة



حيَّة تستقي حياتها من ذاتها، فتغدو روحاً حرة تنشر ضياءها في آفاق رحبة، ربما ابتعدت عن مركزها ونقطة وجودها الأول.

قد يبدو الأمر كما لو أنّي أريد تعليمكم، أنتم وغيركم، دينياً، أو أنّي أجتهد في رسم منهج يقود للتثقيف الديني قصداً. وأنا لا أريد هنا الخروج عن مجال الدين، وإن كنت أود القيام بذلك، ولكني أفضّل البقاء معكم لفترة أطول داخل هذه الدائرة. الكون يعربُ عن ذاته بلا وسائط فيرسم لمتلقيه ومراقبه سبل ادراكه وكيفية التعاطي معه، وهذا ما نرغب في ارتياده وفعله ما أتيح لنا ذلك. إنكم على دراية مسبقة بالطبيعة الفردية إذ تحكمها علاقة مركّبة لا تترك لها فرصة للتعبير عن ذاتها إلا بمقدار انشدادها لسواها وتحررها منه في آن، وعبر هذا التداخل الحي تكتسب فردانية الأشياء والأجسام وجودها وحدودها، ثمَّ تتواشج في ما بينها لتنتظم ضمن إيقاع حركة الكون. وبهذا المعنى تشكّل سائر المخلوقات الوجود، ويكون كلّ جزء منها هو الكون كلّه، وتلك هي النظرة الوحيدة التي تقدّم لنا متناً كافياً لتعلّم الدين ودخول عالمه الذي يوجب عدم إغفال الجزء ككل. وما أطمح إليه هو أن أقودكم لفهم الدين داخل هذا الإطار المحكوم بعلة وجودنا وزمننا وواقع حياتنا المعاصر، أريد أن أكشف لكم عن كينونتنا وما جعلنا على هذه الشاكلة، وأردت أن تكونوا على بيّنة من تأثير وجود الجزء في باحة الخليقة، وعلى منظومة الكون الحركية ككل.

يولد الإنسان في إطار نظام ديني، مثله مثل سواه من الأنساق والأنظمة الأخرى، ولو لم يقدّر لحتمية هذا النظام أن تقع تحت طائلة القمع، ولو لم يتفاقم التباسُ الوعي بما يجمع بين الإنسان والكون من مشتركات - وذلك هو عصب الدين وعماده - لبقيت سحنة الإنسان



جامحة من دون أن تشتبك عليها الطوايا، ولكن فناء تلك السحنة يبدأ دبيبه وللأسف مع سنوات الطفولة المبكرة، وتلك هي أولى مظاهر احتقار الدين. يعتصرني الألم كلّ يوم وأنا أنظر لسيطرة الغضب على الفهم، ولاتفاق حزمة قوى لحصر الإنسان في إطارٍ متناهٍ في الصغر، بقعة ضئيلة جداً تسدُّ عليه نوافذ إصلاح ذاته فتجعله راضخاً لها.

من الذي يمنع نمو الدين؟ من المؤكد أنهم ليسوا المشككين ولا المستهزئين، وإنْ ران الصمت على غالبهم إذا ما تعلَّق الأمر بأثر الدين على علاقة الإنسان بالطبيعة وتقرير الإرادة، كما وأنَّهم ليسوا اللاأخلاقيين كما يتبادر إلى ذهن المرء، لأنَّ تطلعات هؤلاء وأفعالهم تخوض في لجّة أخرى وهي قوة مراوغة تختلف عمّا للدين من مخيّلة وتقلبات في ملكة الادراك. إنَّ من يعترض طريق الدين هم أولئك المتعلمون البراغماتيّون، وهم من يمثّل الثقل الأكبر في توازنات الحالة الراهنة لقوى العالم، وقد أتاح الوزن المترهِّل لهؤلاء أن يلعبوا دوراً هزيلاً، وألّا يدّخروا جهداً للوقوف بوجه الدين. إنّهم يسيئون معاملة الإنسان في خرقهم لطفولته الأولى، وأعني قمعهم، سعيه وطموحه لإنعاش وحدات الفهم وللنظر إلى اللامتعيّن، الكلي، اللانهائي. إنني أنظر بتفانٍ كبيرٍ لتلك الروح المنتفضة التي يحملها الشباب، وعقولهم المتشوّقة لفهم جوهر الطبيعة، ومحاولتهم خرق قيم الأشياء المتناهية ومعارضتها بالبحث عمَّ يطالها من ذلك الحدس والتأمّل المتواري خلف ما تتجلّى به الظواهر الحسيّة من قوانين ومن صور. إنّهم يعبّرون عمّا يمتلئ به رشدهم من شهوات دنيوية، ولكنَّ أرواحهم لا تشتعل فسقاً، بل تغمرها نشوة معرفية تبدو كما لو أنَّها مصدر طاقتهم القادرة على ضمان ديمومة حياتهم من دون غذاء. وهنا يتجلّى قبل كلِّ شيء



الدافع الأوّل للدين. سنكون واهمين، بطبيعة الحال، إذا حاولنا تلمّس اللامتناهي خارج حدود المتناهي، إذ لا مجال قط لمعرفة نقائض المفاهيم والأفكار بالابتعاد عن السطح المباشر لما يتضادّ معها. ولكن أليس من الصعب تعلّم هذه القيمة العليا اللامتناهية على من لا يدرك المتناهي؟ ألا تشيعُ روافد الوهم لتغمر الطلبة وعامة الناس؟ أقول لو كان هناك من يرعى الدين ويحسن التعامل مع حامليه لأصبح من السهل تصحيح ما اقترفه الإنسان من خطأ بحق طبيعته أو طفولته الأولى، ولعادت لروحه التماعة ذلك الشباب النضر، حيث يترك لتأمّل المطلق مساحة في وجوده.

هناك من يذهب إلى أن خيال الشباب الديني هو في جوهره لا يختلف عن خيالهم في الفن، لأنَّ طاقة هذه المخيلة تجد في الفن والدين فضاء أرحب للاختراق والتسرّب عبره. نعم ولذا فإنَّه ليس من محض المصادفة أن ارتبط الدين أو توافق بشكل مدهش بما يكفي من الأساطير والحكايات المقدّسة، وكلّ ما انضوى تحت جناح سرديات خطيرة استحالت جزءاً من الدين، فالرب، والأرض الموعودة، والملاك الحامي، وسوى ذلك مما يكتظ به المخيال الشعبي من صور تجد لها أرضيَّتها في ذاكرة طفولة مبكّرة تداولت سرديات الجن. وكان ذلك بطبيعة الحال سبباً مبكراً من أسباب وقوع الدين في لجّة الشعر، ثمّ غرقه في الميتافيزيقا، التي تناهبت ما له. ولكن هذا لم يقف حائلاً أمام وعي الإنسان بذاته، واحتكامه لما يضوع منها من فطرة سليمة، غير مرتابة بكلِّ محاولات العقل لوضع معنًى نهائيٍّ للأشياء، فلم تنل منه غواية تطوّر العقل العلمي ما قدّمه، واستطاع بعد حين أن يجد طريق الخلاص من هذه المتاهة. على أنَّ ما يحدث الآن هو قمع هذا



الاتجاه بالقوة منذ البداية، فكل شيء خارق ومعجز بات محظوراً، ولم يعد من المرغوب فيه شغل الخيال بصور لحقول فارغة، إذ يمكن للمرء التعامل مع أشياء أكثر شيوعاً وأقل تعقيداً وهي في الوقت نفسه تجعل من استعداده للحياة أكثر واقعية. هذا شأن النفوس المتعطشة لأمور خارجة عن المألوف، نفوس سرعان ما تشعر بالسأم والملل إزاء تاريخ الأخلاق والمعرفة، وما يؤثره من رؤى عقلانية قابلة لإيقاظ الغابر من الجماليات، يلتقطون مفاهيمهم من غلال أخرى، متجاهلين إقامة أيّ اعتبار لكون المعنى يرتقي على محدّدات العقل ومقولاته، أمَّا ما يحتاجون إليه فعلاً فلا يقع بعيداً عمَّ لديهم من وعي قد يفيض عن حاجتهم. ولحماية المعنى، إلى حد ما، أمام ادعاءات وذرائع تنتمي لأصول أخرى، لا بد لكل إنسان من العودة لتكوينه الغريزي وشعوره المتصل بالضرورة بكل ما يقوم به من أفعال ليست بمنأىً عن الروح، لكي تنفتح بصيرته على التلقي والالتقاط والتحري، وتلك قدرة لا تنشأ بمعزل عن البحث في المظهر المشترك للحياة داخل الكون. ولكنكم تنأون عن هذا الفهم بعيداً لفرط ما تهبُّ على أرواحكم من ريح خمول وكسل جعلتكم تتهاوون، منغمسين في بحبوحة ركود مريح. هذا الكسل والتسيب، هو من وجهة نظركم قوام الحياة المدنية العقلانية. لا شك في كون الغايات أو المقاصد حاضرة على الدوام لتوجيه أيَّ فعل إرادي، ولكن قد يتلعثم العقل في إيجاد علّية العلاقة بين الفعل والغرض، والشيء الرئيس هو فهم العلل الأولى لفهم الفعل، وما ينضوي تحت ذات الرائي الذهنية من قدرة على سوء الفهم، لأن الطريق التي يسير عليها الفهم، هي ذاتها المؤدية إلى سوء الفهم. المعنى الحقيقي لا يظل هائماً أو مبهماً، إنَّه يبحث عن صورة المتأمل للمعرفة وعن سبل فهمه ويوفرها لمن يقبل



عليه محاولاً معانقته، كل ما عليكم هو أن تمضوا إليه كي تضمنوا إقباله عليكم، لأنه لا يقدّم إمكانية العثور عليه لمن لا يهيم به ويطلب إيجاده.

كم من مرة عليَّ أن أقول لكم: اقبلوا على معنى الحياة لكي تفهموه، تلقّوه كما هو، ترفّعوا عن الجري وراء ما تلوّح به الشهوات جرياً غريب الأطور، لأنّه صخب بلا جدوى. قد يبدو الأمر مروعاً بالنسبة لكم ولكن تأكدوا أنكم من دونه لا يمكن أن تكتشفوا صور ومعنى الكون. مزية المعنى أنّه يطمح لإدراك الكلّيات، لأنّ الإحالة للكلِّ هي ما يجعل الأجزاء قابلة للفهم، وبلوغ ذلك الانطباع غير المجزّأ، ومعرفة كيف تتجلّى فيه صور الأشياء بذاتها وتختزل في الوقت نفسه طبائع وصور سواها. السؤال الآن هو، إذا ما كنتم مؤهلين لبحث إمكانيات فهم الماذا والكيف؟ لأنّ ما شغلكم على الدوام مستنزفاً كل طاقاتكم هو السؤال عن الأين ولأجل أي شيء، وكلّ ما يبدو ملائماً للمنظور العقلي. أليس هذا هو أقصى غايتكم في الفهم: مصادر الأشياء وأنساقها داخل سلسلة المناهج التي تصنّفون، ثمَّ مآلاتها؟ أمّا إذا قلتم إنّما يشغلكم أكبر من ذلك، فهذا يعني أن لا مناص من الحاجة لفهم الدين، بوصفه الوحيد القادر على أن يقدّم لكم فهماً متكاملاً للوجود من دون تشريحه أو تقطيع أوصاله. ولكنكم تتعاملون مع الدين بجفاء لمجرد إرضاء العقل المجرّد، فيما تظنون أنّكم في أعلى فعاليته، على الرغم من درايتكم بأنَّ هذا بحد ذاته محض تمويه وافتراض زائف. هلّا انتبهتم لكون الفنون هي في طبيعتها كصنيعة بشرية لا تنشأ عن محاكاة الطبيعة بصورتها الكلية، وإنما تنتج عن تأثير التفاصيل وأنها، أي الفنون، يجب أن تفهم مما



يمكن استخلاصه من أوصالها، أي من هذا وذاك بعد اقتطاعه وهدمه من كليّته. سوف يتعيّن عليكم الاعتراف بالحاجة إلى الفهم الكلّي وتعلّمه لأنّه في الواقع أصل حتى في طبيعة التعامل مع الناس. ولا بد لكم من الاعتراف أيضاً بأن المعنى الأصيل والغني دلالة ينتمي على الدوام إلى دائرة الفهم المتكامل، وإن أفلتت بعض الجزئيات من هذه المعالجة، ولكن في النهاية هناك خيط يشد كلّ الأشياء والأفكار في كليّة تتكامل وتنسجم أجزاؤها، ابتداء من صغائرها، وصولاً إلى أعلى سطوحها، وأعني الدين، هناك حاجة حقيقية للفهم الكلّي غير المجتزأ عمَّ يجب أن يخضع له من قوّة جذرية.

لشدّ ما تتصوَّرون تفاعلات الإنسان في ومع الطبيعة بأنّها ليست سوى تجلّيات لقضية علاقته العقلية بها وانسجامه الداخلي مع مكوناتها، وكأنّ وجود الإنسان غير متعلّق البتة بأي شيء آخر غير ظاهر أفعاله. ويتجسّم معنى الوجود بما فيه الكفاية، كما تقولون، لحظة نظر الإنسان في اللوحة التي أمامه، متناسين أنّ نقطة النظر التي أمامه لا تتمحور إلا على ذاتها ولا يمكنها الاتساع بدائرتها إلى ما لا نهاية. ولكن فهم اللوحة بهذا الأسلوب يحوّل الحب النقي للشعر والفنون إلى شكل من أشكال الفجور، الذي يمكن التسامح معه، فقط لأنه ليس سيئاً تماماً، كسائر أشكال الفجور الأخرى. من هنا تزداد الحاجة إلى التعامل مع المعرفة بناء على مرتكزات من الاعتدال والحكمة والواقعية، بحيث لا تتجاوز هذه الحدود، لأنَّ فهم الوحدة المتكاملة للوجود يستدعي عدم فصم أصغر شيء منها لما له من أثر يهدف لما هو أبعد من مظهره الحسِّي.

أن تكون هناك كائنات وجدت لكي تنفذ إلى عمق معين، هو شر لا



بد منه، على أنّ هذا لا يزعزع، في الوقت ذاته، الامتنان للخالق، لأنّها مخلوقات لا تزال مثار اهتمام وميل لا يقهر ولا يتخلّى عن مركزيته في حركية الوجود، وإنْ بدت أحياناً كما لو كانت ضحية طوعية لسبات روحي جلي عن تجليات الرحمة المقدسة. أمّا أعظم الشر فهو أن يترنّم أناس طيبون بكون عملهم دون سواه ذا صبغة عالمية شاملة لكل الإنسانية. لأنّ هذا هو سبب تشوّه كلّ شيء، ولا سيّما حين تتعاظم التهويمات فتكون مقصّاً لا يبقي على ظاهرة أصلية خارج إطار هذا الفهم المضجر المفتقد للقيمة، حتى الظاهرة الدينية، أو ما ينبثق من مقاماتها. ومن اللافت أن هذا المسار يكرّس ما يعتقده من وجهة نظر شاملة في دائرة صغيرة قاحلة يتلاشى فيها الانتباه للعلوم، والأخلاق، والفن، والحب، والروح، وحتى الأبجدية. باختصار، هو وعي جاف وظامئ لكل شيء لأنّه من دون أي شيء يشغف المرء ويستدرجه لاكتشاف العالم. أولئك المتعجرفون يظنون، بطبيعة الحال، بأنّهم يستحوذون على بواطن الكون، ولديهم فهم العالم الحقيقي والفعلي، الذي يمكن أن يضع كلّ شيء في السياق الصحيح له. هلا أدركوا أنّ كلّ شيء يجب أنْ ننظر إليه بوصفه جزءاً مركوزاً في الكلّ يتنازعه العموم وينمو فيه، ومن الضروري لفهم طبيعته وكماله بأعلى مستوياته، أن ينظر إليه بشكل مطابق لذلك الكون غير المتشظي. وحدة الكون، تجتاح لا محالة مجمل آثاره وصلاته، وهي بحاجة لملكة تسبرُ بواطنها لتقترب من جوهريتها، التي تستدعي قبل كلّ شيء التعاطي مع الموجودات بما هي عليه كماهيات لا يكبح انفصالها وجود سواها، ومن هنا لا يمكن الانطلاق من وجود معين لفهم سواه، فمركزية الوجود وتكامله وتفرده بين زمن أفل وزمن قائم وآخر قابل، هي كيان غير قابل للتصدّع. أما أن نغتنم فرصة النظر



في نقطة واحدة مجردة من مظاهر الوجود ونتخذها ملاذاً لفهم كل شيء، فتلك طريق تعاكس تماماً السبيل للمضي بالفهم بعيداً، وهي في الوقت ذاته ابتعادٌ عن الترفّع بالفهم عن الانغماس في الحد الأكثر سطحية وبؤساً.

ثمة إشارات تحيلُ إلى المطلق وآفاقه في علاقة الإنسان مع العالم، وهي لحظات يمرُّ بها كلُّ إنسان في طريقه لإيجاد وسيلته لاكتشاف الوجود، وفيها تستثار المشاعر، التي وإن كانت لا تنتمي للدين مباشرة، إلا أنّها تتغذى عليه. ولكنكم تسدّون حتى هذه الآفاق، التي لا تنشأ من فراغ، لتصوغوا بدلاً منها أبعاداً متناهية، تحاولون وضعها على أنقاض ما خلّفه غياب المشاعر الدينية من صورة سيئة، فتبدو صورة قابلة للاضمحلال والتفتّت لبناء فلسفي كاريكاتوري. إنّ لحظة الولادة تنتمي للنقطة ذاتها التي ترسي عليها لحظة الموت، فكلاهما ينبعُ من نقطة زمنية لا يمكنُ الهروب منها، لحظة تحيط بنا كإحاطة المطلق بالأنا الخاصة بنا، وما يثيرهُ فينا من شوق صامت لتلك الرهبة المقدسة. ولعلَّ عمق التأمل وفخامته ليسا سوى إشارة، على أقل تقدير - لذلك المطلق المتعالي: ولكن كلّ هذا لا يدغدغ من مشاعركم شيئاً، لأنكم ترنون لقطف ثمار أخرى تتفاقم فيها معطيات قياس نظم الحياة، كوزن وحجم وطبيعة كرة الأرض وقطرها، أو تلك النظرة المجرّدة للموت والحياة. أما مقدار ما قد تحدّث عنه الدين في هذا السياق فهو مما لا ينصت له أحد منكم. إنّها لعقوبة قاسية حقاً، أن يفقد المرء تلك الفسحة المتعالية، أينما يمكنه الوقوف باحثاً عن جرثومة الحياة وشفرة الكون منشداً حكمتها الكبرى من دون أن يكز على أسنانه خشية هاوية السقوط في فضاء من الخنوع. كلّنا وُلد تحت



مظلة فاحت منها رائحة دين ما، ولم يخطر يوماً على بال أحد أنّه في موضع شجار أو عناد أو معاناة مع دينه، أو أنّ الدين يقف حجر عثرة في طريقه لمواكبة النمو والتطوّر والتواصل مع الآخر. هؤلاء الناس - أنتم متلقو كلامي، لا يمكن لي وضعكم ضمن ما وصفته من عقول، لأنّكم لا تحتقرون الدين، على الرغم من كونكم تدمّرونه، ثمَّ إنكم لستم المتعلّم الذي أعني، على الرغم من أنّكم عصب الحياة، وأساس تثقيف الناس فيها، وتلك مهمة تحبّون تبنيها لدرجة تثير الشفقة - هم الجزء ذو الهيمنة الدائمة، أمّا أنتم ونحنُ فلا نعدو كوننا قلّة قليلة نترصّد وجودنا في مساحة صغيرة. قلّة ولكن ذات ديمومة لا بد أن يتم تعليم مدن وبلدان بأكملها وفقاً لمبادئها، وإذا ما سرى أسلوبها وساد على الوعي، فستتبدى رؤية الدين من جديد ويكون العثور عليه مرة أخرى يسيراً في المجتمع، وفي العلوم والفلسفة: نعم، لأنَّ الدين ليس فكرة خسرت رهانها في الحاضر ولم يتبق لها غير الإستحواذ على الماضي القديم بدعوى أنّه منزلها الحقيقي، وإنّما هي فكرة قادرة على الانعطاف بنفسها نحو الجديد، لأنّها لا ترتابه أو تتجنّبه. الدين هو أفضل طرق الاتصال بالحياة. وإنني حين أتحدّث عن الماضي والحاضر أو القديم والجديد بهذه الصرامة فإنما رغبة منّي في أن يتبدى الأمرُ منسجماً مع ما تلتزمونه الآن من استغراق في الفصل بين مستويات العقل تاريخياً، ولا سيما في الفلسفة التي ما لبثت أن تهاوت لديكم تحت مسمّى القديمة، والحديثة، والأكثر حداثة وسوى ذلك مما اقتضته ضرورات تجييش مراحل التاريخ. وبسبب التأثير القوي للمصلحة الدنيوية التي جعلت معنى الوجود محكوماً بآليات عقلية لتفسيره، فضلاً عن المظهر المخادع للاعمال الخيّرة، والتي يختفي في نسيجها الانقسام المجتمعي، لم يرق التفكير الديني إلى مستو



يبتعد به عن الضغط والتعارض مع كلّ حركة يكشف الدين فيها عن حياته وقوته الكاملة لفهم الحياة. وحدها روح المعارضة القوّية ضد الاتجاه العام الذي يسفّه الدين، تمكّن الدين من أن ينتشل نفسه مما تحشرج فيه ليستمر بالعمل كما ينبغي له أن يكون، أي بالصورة التي يجب أن يظهر عليها كنمط رئيسي يجعل الحياة تكشف عن نفسها بشكل أفضل، وإن كانت صورة طالما باغتّموها بالكراهية والبغضاء.

المتديّن هو المستغور لذاته، الباحث في طيّاته، المتأمّل لشعوره والمتخذ من حدسه أداة للتواصل مع عقله، وهنا يقع الأعم الغالب من المثقّفين في شجار مع هذه المواقف، فلا يستعين أحدهم على ما يصبو إليه من حكمة إلا بمقدار مناوأته وما يأخذه من حذر من الدين. على الرغم مما هيّأَهُ الدين من قنوات هي بطبيعتها أكثر سهولة وأقل تعقيداً للتعامل مع اللامتناهي، ولكن معارضي النظرة الكونية للدين دفعوا به خارج نقطة المركز، بالنظر لطبيعته الكونية. ومن هنا يمكنني القول إن الأمر متعلّق، ومنذ زمن بعيد، بما يتميّز به العقل الديني حقّاً من قدرة على قبول واستيعاب الصبغة الباطنية للتعامل مع الأشياء، ومع الصور الرائعة التي تظهر عليها الطبيعة، والتي لا تحب أن تحصر في منهجيّة عقلانية دنيوية ضيّقة. ولعلي لا أجانب الصواب إذا ما ذهبت إلى أنَّ جوهر الدين ماثل، على اختلاف النسب، في كلِّ جزئية من جزئيات الطبيعة، لأنّها، أي الطبيعة، وإن اختلفت ألوانها وتنوّع خليطها، لم تزل تعبّر عن الظاهرة الدينية بوضوح. وأقول الظاهرة الدينية، لسبب بسيط، وهو أنّي لا أتوقع أكثر من هذا التعريف في الوقت والوضع الذي نعيشه الآن، فضلاً عن كون الطبيعة الخلابة تفتقر بذاتها لما يفسّرها من خارجها، أي من الخبرة الجماعية للعقل،



بدعوى قدرتها على الاستحواذ على الجوهر. والطبيعة هنا لعبة لذيذة تحدث، في كثير من الأحيان، بالتناوب الخفيف مع ما لها من تركيبات عشوائية وغير موضوعية تماماً، فتتجلّى عيونها بأعلى مستوياتها لتقدم العميق والداخلي، الذي لا يمكن اختزاله أو اختصاره بوضعه داخل الأطر العقلانية.

إنّ ما تسعون إليه واقعاً هو تلك اللانهائية الكلّية في فهم وتفسير نظام الكون كشهادة جميلة اعتدتم الحصول على مثلها، من دون أن يخطر على بال أحدكم أنها يمكن أن تكون أقل أو أكثر من تخوم ذلك المعنى المطلوب إدراكه، وبالتالي تبقى جميع وجهات النظر متقلّبة وقابلة للهدم. ربما ستلتهب معطيات العقل لديكم، ولكنها ستبدو بوهج تافه غير مستقر، لأنّ كلّ ما لديكم هو ومضات من مفهوم الدين أو خربشات على قشوره الخارجية وحسب، شأنها شأن ما لكم من الفن والفلسفة وكل ما هو عظيم وجميل. أما النقيض من ذلك فهم أولئك، الذين ينتمي تكوينهم الفكري للدين وعلى أساسه يتشكّل جوهرهم ووعيهم الداخلي، ولكنهم مع ذلك لم يتسن لهم كشف الستار عن كلّ ما ينطوي تحت الدين، لأنّ الدين في الوضع الحالي في العالم يفتقر لمقومات الحيازة أو القدرة على السيادة، ومن السابق لأوانه الآن الحديث عن أبطال أو مواهب فذة. وهناك اتجاه قوي وكبير للتصوف يُنظر فيه بخشوع وتبجيل لأكبر الناس سطحية وسذاجة، لأنّه اتجاه يحطُ من شأن التوجّهات العقلانية، مستنداً على ما يحوز عليه من عبقرية نقية وبسيطة وازدراء لأولئك المتبجّحين فخراً بالحياة.

المسألة المهمة في ما نريد إبرازه هنا هي أن تعليم الدين لا ينتج ذهنية متخمة أو يطغى عليها الحدس والتأويل الخارجي للكون، وإنما



تكون منكفئة على ذاتها، منقبة فيها عن مفاتيح كلّ ما تجده غامضاً خارجها، مهما ضأل حجمه وقلت أهميته، وعلى قناعة تامة بعظمة وجرأة ما تملك من الإيمان. إنّه من غير الضروري ولا الواجب أصلاً مغادرة التنقيب في الذات والاعتماد على ما سواها، لأنّ الروح بحد ذاتها وما تنطوي عليه يغني عن الانفلات بعيداً عن دائرتها للنظر في مظاهر الخارج. وهذا يعني أنّها شخصية تقرر، وإلى الأبد، اغلاق العين عن كلِّ ما لا يكون إياه ولا يكون سارياً فيه أو كامناً في قرارة ذاته، على أنَّ هذا التعالي هو ليس من الجهل بشيء، وهذا الارتفاع بالدين لا يعني الانغلاق بالمعنى ولا يعني الفشل. ولكن هذا هو الحال مع الناس: إنّهم لم يتعلّموا رؤية أي شيء آخر سوى أنفسهم لأنهم جميعاً مشتركون في أسلوب سيئ يتغافلون فيه عن كلّ ما يرقى على المعرفة المشاعة أو السريعة، وقد ثبت لدي الآن، أنَّهم ليسوا بالحس ولا بالضياء الكافي الذي يستثير التأمل الذاتي لاختراق ظلام الفكر الغابر الذي رسّخ الوهم، ليسوا بمقبلين على الزمن بحماسة وغضب لهضمه والتفاعل معه، بدلاً عن إلقاء اللوم عليه وكيل الاتهامات له. ولذا فإنّ صورة الوجود في ذواتهم فقيرة وغير رفيعة التشكّل، وأفق نظرهم محدود، كما لو أنّهم معتقلون في حاضنة من مشاعر وأحاسيس غير مشذّبة ومجبرون على التحرك في دائرتها الضيّقة بشكل مفرط، وإلى الأبد. وكنتيجة لكل هذا يموت المعنى الديني للحياة في نفوسهم لغياب كل ما يحفّزه على النشاط أو يدعوه لتجاوز ضعفه. بالنسبة لأولئك الذين يشعرون بالقوة الكبرى للكون، ولكن ينقصهم التعليم، عليهم أن يشرئبوا بأعناقهم قليلاً ويقلّبوا أنظارهم بحثاً عن آفاق جديدة. فهناك في الطرف الآخر من الوعي ثمة نهاية تكشف لكم سوء الفهم وعدم التناسب مع الزمن، وهي نهاية



رهيبة لأنها تعني الموت، أو القتل الرحيم إذا شئتم، - إنّها انتحار العقل، في انحساره وتضاؤل قدرته على فهم الوجود، والتناغم مع جوهره، وذلك حين تستهلكه المشاهدات الصغيرة، وينخدع باختلاط الظواهر -. ابحثوا في الوجود وآثاره، وأينما كان أبداً، حاولوا ولو على مضض إدراك ايقاع الكون الداخلي ومظهره الخارجي من دون تمزيق، طاردوا العقل اللاواعي، تحرّوا نهايات الجنون المقدّس، تلك التي لا يدرك مصدرها أحد، انصتوا إلى ذلك الصراخ العالي، غير المفهوم لضحايا ازدراء وسوء معاملة قلب الإنسان. أمّا من يفشل في اجتياز الامتحان الأخير فلا يمكن أن يحسب بين أولئك الذين تبعوا حدوسهم واستغوروا أعماقهم.

أما عن الشكوى من أنّه لا توجد لدينا للدين بنية ثابتة معترف بها في كلّ العالم، وأنا هنا لا أريد العودة لما كنت قد أشرت أو ألمحت إليه أو ادعيته، وهو أنَّ هذه النظرية لا تعني أن الدين أبعد من سواه أو أكثر تعقيداً في مدى مناسبته للعصر الذي نعيش. بالتأكيد، الدين لم يفقد وزنه وحجمه في العالم، ولكنه - كحضور مجتمعي - مجزّءٌ ومتباعد جداً، وتلك نتيجة طبيعية لما يتناوبه من ضغط هائل لم يترك له فرصة في التجلّي إلا على مستوى ظواهر صغيرة، خفيف وزنها، لأنّ عليها أن تكون أكثر زيادة وتنوعاً وتعميماً، ظواهر يحدوها أمل أن تفرح عين المراقب أو المتلقي، لا أن تترك انطباعاً كبيراً يشير إلى مدى رفعة الدين وسموّه. إنني على قناعة بأن هناك الكثير ممن يستنشق وينتشي بعبق رائحة حياة الشباب الخالدة، التي يضوع بها الدين في الحب المقدّس والحنين إلى الأبدية، وإنّه في نهاية المطاف قد لا يوجد في هذا العالم على الإطلاق من لم تلوحُ لوعيه ومشاعره، ولو لمرة واحدة



على الأقل، روح الوجود المتعالية، ولعله خجل من نفسه وربما احمرّ وجهه إذ تلعثم متلمّساً قصور عينيه وقيودها التي تعيق اختراق عمق تلك اللحظة، وهنا يقف الدين لكم مرة أخرى ليسهم في خلق وعي ملائم قادر على كسب تلك اللحظة والمضي بها. المميّزون وحدهم، أولئك هم المستبشرون بالدين، من ذوي النفوس الكبيرة المقدّسة، كما رأيناهم من قبل، وهم من نفتقد في مجتمعاتنا وأزمنتنا. لطالما أفكّر في ما حدث للتعليم، وأيُّ اتجاهٍ يجب أن يأخذه لدينا، حين يكون المتدينون وأسلوب حياتهم مسألة نادرة في الواقع، في الوقت الذي ينبغي أن يبدو فيه نتاجاً طبيعياً للحياة. أعتقد أنكم ستفلحون في استهداف سبل رجعة الدين إلى يوميات الإنسان من خلال ما تبذلون من جهود لا بد لها أن تكون سخية، وفي بعض الأحيان عبر ما تقومون به من فعاليات عامة، أو ما تقدّمونه جزئياً من حراك فكري داخل حلقة ثقافية نخبوية تسلّط الضوء على الأفكار النبيلة لبعض العقول والنفوس غير العادية ذات الدور المميّز في تقدم البشرية. إنَّ نطاق وحقيقة الإدراك يعتمد ولا شك على حدة واتساع العقل، أمّا الأحكام غير المستندة إلى استشفاف معنى الحياة بالدين فلا تقترب من فهم الدين إلا كاقتراب الجاهل من وجهة نظر صحيحة. لذا يجب أن يبدأ الإنسان بوضع حدّ لكل أشكال العبودية التي لا تدّخر وسعاً لتعطيل تطور الإنسان روحياً، إذ لا تترك له فرصة المضي في اكتشاف مؤهّلاته في الحدس والتفسير والشرح، وهذا هو غرض التعليم الذي سوف نعمل من أجله ونتوسّم أن تبذلوا فيه طاقتكم. على أنَّ الحال في تحسين التعليم قد لا يكون إلا على شاكلة ما يحدث في جميع الثورات، إذ لا تبدأ من أعلى ما تضمره من مبادئ، فتنزلق تدريجياً مرة أخرى نحو المسار القديم للأشياء، ولا تحدث التغييرات إلا في



بعض الأشياء الخارجية. التعليم المعقول والعملي لا يختلف إلا قليلاً جداً - هذا القليل لا بالإدراك ولا بالعمل - عن الميكانيكية القديمة. لكن، قريباً سيتم كسر هذه الحواجز، وستكون للقوة الفطرية البديهية قدرة الاستحواذ على الحدس، ستتفتّح كلّ مجسّات التلقّي، وتكون للأشياء قدرة التماس مع الإنسان بكل وسيلة ممكنة. وهنا قد تنشأ من هذه الحرية غير المحدودة إشكاليات أخرى تدفع بالمعرفة نحو اتجاه ثابت وواحد فتقيّد نشاطه. وهذا هو الطلب الأهم الذي يمكن للأفضل منكم الخروج به الآن وإظهاره لمعاصريه وللأجيال القادمة. إلا أنّكم متعبون من التصدي للثقافة الموسوعية العقيمة، وما حولها من أبعاد غير مثمرة، ولكن لا أحد منكم يستطيع أن يرى الحقيقة أفضل من ذلك الذي نضجت لديه اعتبارات كليّة المعنى، لأنه الأقرب لإدراك ومعرفة ماهية الموجودات، وعدم قدرتها على الوجود بذاتها ما لم تكن مفصولة بذاتها، وفي الوقت نفسه مرهونة إلى ما سواها.

إنّه لمن دواعي سروري أن يكون العمل معكم في هذا الاتجاه أكثر تقدماً. أكاد أجزم أن إقبالكم سيكون على الدين متميّزاً بشكل رائع، لأن رفضكم لأيٍّ شكل من أشكال المحدّدات لا ينحصر بالضبط في الاقتصار على تقييد المعنى، وإنّما يعني أيضاً الحد من السلطة، وهنا تكمن بالتأكيد أولى أسباب تخطي المسافة في الطريق الممهّدة إلى المطلق، والتي تعيد فتح سبل علاقة المجتمع بالدين، تلك العلاقة التي ظلّت مقفلة لفترة طويلة. إنَّ منْ شاهدَ وعلم الكثير، وكانت له من بعد ذلك قدرة الحكم على الأشياء كذوات مستقلة، لا يدّخر وسعاً من قوته لتحرير إرادته. ولكنّه هو الآخر لا يستطيع، كسواه من الناس، ولا يمكنه إدراك المطلق القائم لذاته وبذاته، لأنَّ هذا يعني وقوعه في



التناقض، ولو قدّر له أن يعرف المزيد عن ذلك لدفع بإدراكه لأقصى ما يستطيع، في محاولة منه لبلوغ القمة، والتي ما إن يجد نفسه عليها حتى يكتشف أنّ صيرورتها ما كان لها أن تتشكّل لولا وجود ذلك الخارج عن إطارها كقمة. هذا الإنسان العاقل الذي يحاول جاهداً إسباغ المعرفة على كل ما هو غريب عن ذاته، إنما هو بعبارة أدق يقوم بمحق ذاته، وفي الوقت نفسه يبدو مطلب المحبة أو الاحتقار لكل ما هو محدود أو متناهٍ غير معقول أو ممكن من دون محاكمة اعتباطية لكل الوجود، ومن هنا يبدو من البديهي بالضرورة تصاعد الرغبة في معرفة المطلق، كجوهر متجلٍّ في كلّ شيء. الاتجاهات الثلاثة المختلفة للمعنى يعرفها الجميع ولكن كلاًّ من وعيه الخاص، البعد الأوّل هو ذلك النابع من أنا الفرد وذاته المعرفية بوصفها حاضنة الفكر، والثاني هو الموجّه إلى الآخر الخارج وما يكمن فيه أو يرافقه من مكوّنات وحمولات تبدو غير واضحة ولا مؤكَّدة. أمّا البعد الثالث فهو ذلك الرابط بين البعدين السالفين، وهوَ تلك النقطة الرابطة لمعنى يتأرجح بين فهمين ويستقي وجوده من حلول أحدهما في الآخر، وهذا هو الاتجاه الذي تنتهي إليه حدود الفهم في الفن وغيره من أعمال الإبداع. ربما تمكّن واحد فقط من بينكم، من أن يتحكّم بما يسود على الإنسان من ميول، ولكن الجميع متساوٍ في عثوره على طريقة ما تأخذه للدين، وأنه سيعمد لاتخاذ شكل مغاير وفقاً لتنوع السبل التي عثر عليها. انظروا لانفسكم وهي تلازم ذلك الجهد العقلاني غير المجدي، هلّا اجتهدتم، دعوا نظركم ينصب على ما فيكم، على ما تأتلف منه ذواتكم، واستبعدوا عنها ما لا يرتع فيها، امضوا بالمعنى لأقاصيه، هيموا به، فكلّما عمدتم لإذابة ذواتكم كلَّما تبدى لكم الكون أكثر وضوحاً وتناهت لأبصاركم مواقفه، وكلّما ظهر لكم



أكثر جمالاً كمكافأة لكم لما احتملتموه من رعب جرعة تدمير الذات داخل الشعور بالمطلق. انظروا إلى أيّ شيء خارج هالة ذواتكم، لأي عنصر في العالم، لخصّوه في مجمل كيانه، تفحّصوه ليس بما هو عليه وحسب، وإنما بما تنطوي عليه ذاوتكم منه وبما يقيمه من وشائج مع تميمة الوجود برمَّته، كرروا المضي على الطريق كثيراً وبمسافات وزوايا متعدّدة من المحيط إلى نقطة المركز، ستجدون أنفسكم تترح في المطلق، بعد أن فقدت بعد زمن متناهٍ لا يحرّض العقل والجسد والروح.

أتمنى، إنْ لم يكن من الفاحشة بشيء، ولرغبة ما تدوّي في داخلي، أنني يمكن أنْ ألقي نظرة واضحة على كيفية تخطّي الحس الفني لدائرته وولوجه للدين، وكيف تسنّى للعقل، على الرغم من حرص الفرد على الغرق في الممتع والابتعاد عن المعاني الضاجّة، أنْ يشعر دفعة واحدة بعناق الحدس والتأمّل للمضي باتجاه يمكن أن يؤدّي إلى فهم الكون. ولكن لماذا يؤْثر أولئك الذين ارتادوا هذه الطريق الطبيعة الصامتة؟ إنني لا أعرف الطريق تماماً، تلك هي أشد محدّداتي، وهي الفراغ الذي أشعر بمكنته الكبيرة في أعماقي، ولكني في الوقت ذاته أعالجه بمنظور يغمره الاحترام لنواميس الكون. إنني لا أحدد نظري لكي يستدل أو يستلهم ما هو صنو الوجود، ولكني أعتقد بأن امكانية سبر طوايا المعنى ماثلة أمام عيني، إلا أنّها وبرغم انبهار عيني بها لا بد لها أن تظل لغزاً بالنسبة إلي. نعم، إن هناك تحولات سريعة، مناسبات يكون من خلالها الإنسان، الذي لا يفكر بأقل من أن يرتفع فوق حيّز المتناهي، ليرتقي إلى درجة سامية ولحظة تفيق بمعنى الوجود لأنّها موشّاة بنور داخلي مباشر يفصح عن بهائه. إنني أعتقد



أكثر من أي شيء آخر بأن لا وجود لأي من الأعمال الفنية العظيمة والسامية يمكن أن يؤدي هذه معجزة اكتفاء الدين بذاته عمّا سواه، إلا أنني لن أصدق أبداً: إنَّ هذا الاعتقاد أكثر تعبيراً عن المستقبل بدلاً من الماضي أو الحاضر. في الطريق إلى الأكثر تجريداً من التأمل الذاتي للعثور على سبل استنطاق الكون تقع أعمال التصوّف الشرقي القديم، وكيف تتعاضد مع جرأة مثيرة للإعجاب، إذ لا تضع اختلافاً محورياً بين العظيم اللامتناهي وسواه المتناهي في الصغر، فيما يستدل عليه من إدراك التعادل المباشر بينهما، وأنّ كلّ وجود هو في الحقيقة ليس سوى اقتراب من حدود العدم. إنني موقن من أنَّ كل دين يترنّم في فضاءات التأمّل طلباً لفهم الطبيعة والحياة عبر تنقيبه وتمعّنه في حدس الوجود، ولعلّ الحضارة المصرية القديمة، متعدّدة الآلهة هي الأكثر مثالية في الركون لهذا الاتجاه من الوعي، الذي يمثّل أنقى رؤية لأصول تأمل المطلق، والعيش في التسامح والحلم المتواضع المستعين على وجوده بالاقتراب من أعمق أشكال الخرافة والأساطير الأكثر حماقة وهلعاً، ولكني لم يسبق لي أن سمعت أي شيء، عن شعوب وأمم وعصور هامت بما يسمى دين الفن أو كلّ ما على شاكلته. إنّ ما أعرفه هو أن معنى الفن ما كان قد اقترب أبداً من أشكال الدين، إلا بمقدار الحاجة لرمسها في مواضع الجمال والقداسة المفعمة بالتأويلات، والتي تضمن قطعاً قدرة على الانفلات اللطيف خارج حدود الدين. وهكذا، تم تحويل الدين إلى شكل أجمل وأكثر سعادة من قبل شعراء وحكماء الإغريق، وهنا رفع أفلاطون تلك الآلهة إلى أقدس وأعلى قمم التصوّف في اللاهوت والناسوت. واسمحوا لي هنا أن أشيد بتلكم الآلهة المجهولة التي تمكنت من رعاية وحماية فكرة الدين لدى الإنسان.



الدين والفن يقفان جنباً إلى جنب، كما ترتبط روحان بعلاقة ودّية داخلية، وفي ما إذا كانت علاقتهما مشوبة بشيء من الغموض والإبهام ويعاقب فيها كلُّ منهما الآخر، فذلك أمرٌ مجهول بحاجة لأنْ نتمعّن فيه مراراً. فبهاء التأملات حمالة الوجد، وما يتحشرج في القلب من أهواء وعواطف يطفو على سطح الشفاه، على أنّ اللغة لا تقوى على أن تقذف به إلى الخارج، لأنها تعجز عن أن تجد له أسلوباً يقترب مما هو عليه، وأرضاً خصيبة يمكن أن تحمل كلّ ما لهذا الوجد الراسخ من شوق لأنْ يكتسي بالمعنى، وهنا يلوذ المعنى بالصمت، إذ يعجز عن العثور عمّا يتوق إليه، فيعود في نهاية المطاف خالي الوفاض. الدين ليس الفن ولكن الاثنين يتوازيان على مستويات شتى، فالفن والتأملات الدينية ينتظران كشفاً أكثر تفصيلًا، ويوقع كلٌّ منهما الآخر تحت الضغط والمعاناة والتنهدات ذاتها، ربما مع ميل ظاهر ومشاعر عميقة، ولكن من دون حب حقيقي لأحدهما دون الآخر. هل يمكن أن يكون هذا الضغط المتبادل بينهما هو المولّد لأسعد الحوادث واللحظات في وجودهما المتداخل؟ ولكنَّ ما يحدث الآن ليس الاستغناء عن هذين النوعين من الإلهام وحسب، وإنما باتت موضوعة التعاطي مع الفن والدين تتراجع على نحو أسوأ من المعتاد. وليس من أحد بمقدوره أخفاء قوة وعظمة ما يحمله مصدرا الحدس والتأملات، الدين والفن، من قوة اختراق للماورائي في وقت يشهد تشييد سيادة نزعة علمية، تدعي تحرير المعنى وتطهيره، على الرغم من كونها مفتقدة في جوهرها للمبادئ الحقيقية.

كيف يمكن تطهير المعنى الديني مما علق به؟ كيف يمكن للمرء أن يخلق للتأملات الدينية والفن السلطة والثروة الكافية، لإخصاب ما لا ينفرط عقده بسهوله ولا يحيق به الزوال من الأرض؟ انظروا لهدف



جهودكم التعليمية السامية، إنّها تعني أيضاً قيامة الدين! إنّ ما تبذلونه من جهود هو ما يهيئ مقدمات تحقيق هذا الحدث، وإني لمن أول المحتفلين بكم، إذا ما كنتم ولو بشكل غير مقصود من منقذي الدين ومقدمي الرعاية له. لا تغادروا أعمالكم أو مواقعكم، حتى تتفتح لكم أعماق المعرفة ويتجلى لكم حرم العلم الحقيقي والتواضع الكهنوتي، حيثما يدخل الجميع تحت خيمة واحدة، ويتبادل أبناء الدين مسارب الفهم، فتبدو المعرفة الناقصة خاسرة فادحة. ولعلَّ الانضباط الأخلاقي في تلمّس مواضع الجمال السماوي بعيداً من الغيرة والغرور الاستبدادي، هو مدخل القيثارة السماوية والمرآة السحرية التي يتجلى عليها الوجود صحبة ذلك الشكل الصامت، والخطير من الأصوات الإلهية، وكيف ينعكس صداها وترى في أشكال لا حصر لها من ذلك الكل اللامتناهي.

الدين فلسفة الإنسان التي ترتفع إلى مفهوم تفاعله مع العالم، وتتعامل معه ليس باعتباره مخلوقاً وحسب، وإنما باعتبارها خالقاً في الوقت نفس، فلسفة لا تتركه يعاني، إذا ما شهد مطامحه ومراميه تتهاوى أمام عينيه تباعاً، لأنّه سيترك عين عقله ثابتة في بحثها عن الوجود داخل النفس وليس خارجها. الدين فلسفة لكسر حاجز القلق، إنّه اللب، وكلُّ ما عداه هو جزء منه داخل في تكوينه، كلُّ شيء هو انعكاس له وللروح التي ترتع داخله، تلك الروح التي يمكن أن نعدها بصمة متكاملة للوجود برمَّته، روح يمكنها أن تبحث وأن تبحر في فضاء التأمل دونما تخبط أو خروج يبعدها عن جوهرها، وتلك روح لا تستنفد قدرتها على التأمل لأنها كامنة في ذاتها. في الفيزياء التي تنقّب وسط الطبيعة وفي أرجاء الكون بخطوات جريئة، لن نعاني طويلاً لتلمس تلكؤ مناهجها في تناول مظاهر الكون بشكل



مجتزأ، مبعثر وعقيم، لإنّه علمٌ إنما يتعقّب قدرته في ممارسة لعبة الاكتشاف حتى في المواطن الأكثر سرية ابتداءً مما هو متحرّك في الوجود وصولاً لورشة العمل الصناعية من الحياة العضوية. أمّا في الدين فيتبدّد الوهم ويظفرُ بالطبيعة حيث تثبت العين ويشرق المنظر بلوحات ومشاهد لا يزيدها فرط ما تتزيّا به من مظاهر إلا اقتراباً من اللامتناهي الذي تتمحور حوله. إنني أرى بالفعل بعض الشخصيات المهمة، التي تدشّنُ عودتها لدخول أسرار هذا الحرم المقدس، شخصيات لا ينقصها سوى أن تتزيّا بزي الظهور الكهنوتي.

إنَّ أعظم عمل فني هو ذلك الذي يشيّد جوهر الإنسانية، ويقتنص لحظة الوجود دونما وسائط، ولكي ينعم بهذا الغرض لا بد له ألّا يتهاون في الانفتاح بما يجب فتحه من معانيه ومفرداته، لأنَّ الأعمال الفنية الضخمة التي تنبني على الجرأة والقوة، تكشف إذا ما تم نصبها كهياكل جديدة تتقدم المعابد عن تداخل واختلاف الزمن، والعمل الفني الرفيع هو ما يترصّع ظاهره بآثار السابق ويكشف محتواه عن مقاربات اللاحق. دعونا نحتضن الماضي والحاضر والمستقبل، معرضاً لا نهاية له من الأعمال الفنية الأكثر سمواً، وهي تتلألأ على آلاف المرايا الساطعة أبداً. اتركوا للتاريخ فرصة أن يتحرّك كما هو، أن يوقف العالم على وصاياه وعطاءاته للبشرية، وأن يعلن امتنانه للدين بوصفه أغنى مصادر طاقته وأكثرها عناية به، تلمّسوا قوة الدين الأبدية وحكمته الحقيقية، تلك التي تبعث اليقظة المقدسة في نفوس المؤمنين. انظروا كيف تتبرعم في قلوبكم وحقولكم ومزارعكم محطات سماوية، وتزدهر من دون تدخّلكم أدلةً صريحة تعلن عن سرور الإله، وعن بديهة الخلود، إنها جوهرة وتعويذة تزيّن الوجود وتحميه.



الخطاب الرابع

البعد الاجتماعي للدين بين الكنيسة والكهنوت




مكتبة
الفكر الجديد

أقول لأولئك منكم، ممن دأب على النظر للدين كما لو أنّه مرض عقلي، وهي فكرة سهَّلت عليهم طبيعة التعامل مع الدين والمتدينين انطلاقاً مما يتمخّض عنها من ضرورة للتسامح السلبي، أقول لهم، وبصرف النظر عمَّ أفضت إليه هذه الفكرة من مشكلات ومعاناة على مستوى الأفراد: إنّ ما تذهبون إليه ينذر بخطر جدي يضع أهم قيمة من قيم المشتركات الاجتماعية موضع تهديد ربما أدى إلى أن يضيع معه الجميع. ولكن وعلى أية حال، قد يبدو من المتاح العثور على طريق يتواشج على نحو ما مع ما يمكن تسميته العلاج المناسب. كما لو أننا إزاء بحث عن نظام غذائي سليم، وهواء صحي منعش كفيل بإضعاف نوبة مرضية، أو قضية صحية غريبة الأطوار، لم يسبق لأحد أن هزمها تماماً، في محاولة منّا لتمييع آثارها الضارّة. على أنَّ هذه الحال توجب على المرء التخلّي عن أيّ أملٍ في النفوذ إلى الجوهر رغبة بالخلاص الكامل. وإذا ما ذهبنا إلى ما هو أبعد من ذلك في التعاطي مع المشكلة فسنلحظ بما لا يقبل الشك ما تضمره من شرٍ يتعاظم ليكون أكثر تدميراً، إذ سيرافقه حتماً خطر الانتقال إلى عمق المجتمع بدلاً من التعلّق بقشوره، ثمّ شحذ همّته والإحاطة به من



كل جانب. هذا يعني أنّ النفر القليل المنشد لاختفاء فكرة الدين من الواقع سرعان ما سيجعل الأجواء كلّها سامة غير قابلة للحياة، أجواء لا تشيع سوى العدوى لتجعل أصح الأجسام عرضة لاكتساب لا يشوبه الشك للإصابة بذلك الوباء الفتاك. وهو وباء مُجفِّفٌ لإكسير الحياة، ماحقٌ لما لها من سبل ومناهل روحية، جنونٌ محمومٌ، قادر على تفريغ الوجود من حمولاته الروحية والمعنوية، سواء أكان ذلك على مستوى الأفراد أو الجماعات وحتى أجيال وأمم بأكملها. وبالتالي، فإنّ النفور من الكنيسة الحقيقية[1]، ذات المساحة الذهنية والوجدانية البيّنة، والوقوف ضد كلّ حدثٍ أو مناسبة يكون القصد منها الافراج عن المشاعر الدينية، لا يزال أكبر من الوقوف ضد الدين نفسه، ولذا، فأنتم بوصفكم دعائم وأعضاء فاعلين في الواقع لتنشيط وبث مثل هكذا مناسبات، كنتم وما زلتم الأشد بُغضاً ومقتاً بين الناس.

ولكن حتى أولئك بينكم، ممن لديهم عن الدين رأيٌ أكثر تساهلاً وأقلّ صرامة، وأعني أنهم يتعاطون مع الدين بوصفه حالة خاصة، وليس بناء على كونه ظاهرة خطيرة تحتل من الوجود موقع المركز، وضعهم المجتمع على اختلاف مستوياته ضمن الإطار ذاته المشنّع على الدين وداخل المسميات السطحية عينها. وأود أن أشير في هذا المضمار، إلى أمر مهم بالنسبة إليّ، وهو أن عواطفي تجاهكم سيعتريها النقص وستفتقد للكثير من الوضوح، إذا ما تقاعستُ عن

---

(1) الكنيسة الحقيقية: أينما يذكر شلايرماخر الكنيسة مشفوعة بصفة الحقيقية فإنّه يقصد بذلك الكنيسة البروتستانتية، لأنها لديه الكنيسة الأصل، البعيدة كل البعد عن الكنيسة الكاثوليكية، التي لم ير فيها شيئاً ذا نفع. والكنيسة الحقيقية لديه هي الأقرب للإصلاح الروحي ولجذور العاطفة الدينية. المترجم.



بذل قصارى جهدي لأقدِّم لكم هنا وجهة نظر لا أعدم الأثبات على صحتها. كم من كائن بشري من ذوي التطلعات ليست من سنخ الدين والمصائر المحزنة، ما انفك يلقي باللائمة على الدين وعلى كلّ ما يتشكّل تحت صوره من مظاهر دينية، ولا حاجة بي لتكرار ما يلهج به هؤلاء، لأن الآلاف من تلك الأقوال والادعاءات تلقَى قبولاً وأذناً صاغية بينكم.

إنّما يشغلني الآن هو أن أوقف هذه الاتهامات، وأن أقوم على دحضها واحداً تلو الآخر، عندئذ سيبدو جلياً أنَّ للشر مكامن وأسباباً أخرى: دعونا بالأحرى نعيد النظر في ما لنا من منظومة مفهومية، نحاول اخضاعها لنمط قرائي مغاير. يمكننا أن نقترح نقطة وسيطة ننطلق منها لإعادة الفهم، غير مبالين بما أنجزنه الفعل القرائي قبل هذه النقطة، ولا مكترثين بما أنتجته خبرات سابقة على ما سينتجه وعينا.

الدين كما أفهمه هو رباط وجداني مؤنس وضروري ليس لطبيعة وجود الإنسان وحسب، وإنّما لوعيه بوجوده. ولا بد لنا من أن نعترف هنا، أنّه من غير الطبيعي ولا المقبول، أن نشوّه الدين بحبسه داخل مسوّغات معرفية لا تفضي إليه لأنّها محض نظرات ضيّقة تحجر عليه، وتحجّم صيرورته الفاعلة والمتأصّلة في خلق الإنسان. لقد ثبت لدي أنّ للدين أهمية لا تتجلّى على مستوى التفاعل العملي في معترك الحياة وحسب، وإنّما في مضمار التفاعل الفكري، لأنّه تجربة منوطة بالوجود، ينفرد برؤى ونواميس قادرة على التعبير والإخبار عن كلّ شيء. الدين طاقة أبدية غير قابلة للنضوب، دينامية وحراك تتخلل الحميمية طبيعتها، وهو أقوى من أن يضمر تحت تأثير ما يجابه به من عنف أو تسطيح، لأنّه لصيق فطرة الإنسان، التي لا يعني احتجابها،



تحت أي ظرف كان، انعدامها. يمنحنا الدين قدرة على أن نرى الآخر كرؤيتنا لذواتنا، أن نتعاطى مع شرعية وجودنا عبر ما نضفيه على الآخر من شرعية للوجود.

الهدف الأساسي، الذي يقودني لصب جلّ اهتمامي على بحث موضوعة الدين في هذا السياق، هو بلا شك رغبتي في معرفة شعورنا حيال ذلك الرباط متين العود، وأصل معاناة الكائن البشري المبثوثة في كلّ مفاصل الوجود. كما وتدفع بي قوة الحدس والشعور للتعرف على تلك الهواجس الغريبة والعنيفة في الوقت ذاته، التي تجعل المرء يحيد أو تضعف إرادته لتفسير الدين أو حتى الاقتراب من تخومه. ولعل كلّ هذا هو مما تصدّر موضوعات شغلت الإنسان منذ طفولة العقل البشري، في المقام الأول تلك التي أتاحت له أن يستغور حواسه ومشاعره لكي يستعلم عبرها ما يدور حول فكرة الأصل، المنشأ الذي يعود إليه، والذي سيهدّئ من مخاوفه إزاء ما سيؤول إليه. أيعقل أن يتحوّل قلقُ الإنسان الآن، وهو الأقدم والأكثر إلحاحاً، بمواجهة إشكالية وجوده، إلى مجرد أثر علمي للكون نفسه؟ كيف يمكن للمرء أن يفهم الكون، أو أن يثبّت وجوده في وجدانه وضميره، بمعزل عن منظومة الدين؟ وهي الحاضنة ذات النفوذ الأقوى والأشد تعلقاً بفطرة الإنسان، وإن كانت هي بحد ذاتها لا يمكن التعرّف عليها من تلقاء نفسها، إذ لا بد من ملاءمتها بالدين.

لم يزل طموح الإنسان الأكثر مثولاً في وعيه هو أن يعثر على وجهة نظر دينية واضحة يركن إليها، أو أن يخترق روحه شعور بالتقوى يقدّم له إشارات كافية لتفسير وجوده، ولفهم ما يعتري فكره من هزّات كلّما آثر التراجع الروحي. وإذا كان الإنسان بطبيعته مجبولاً على الاقبال



على الدين، فتلك الطبيعة هي ذاتها التي تجعل تلقّيه له، الصامت أحياناً، قادراً على التقاط أية شفرة تقوده إلى اللحظة الدينية. ولا سيما تلكَ التي تشعره بلا نهائية الدين ومحدودية إدراكه لأبعاده. إنّ الكائن البشري على دراية بكونه لا يدرك من الدين إلا جزءاً يسراً، أما ما خفي منه، فلا جرم أنَّه يحاول الاقتراب منه عبر وسائط، وإن كانت دخيلة أو غريبة على جسم الدين ذاته، على أقل تقدير. ولذا تراه مهتماً بكل ما يتجلّى من مظاهر ربما كانت أعتم مما يمكن للدين إيضاحه منها، منصتاً لأدنى ما يدلّ عليه، دأباً لإكمال ما لديه من صورة. وهكذا، يتعيّن عليَّ رفد قنوات الاتصال المتبادل عبر الحوار والتلقي على حد سواء، إذ لا غنى عن أهميتهما للاقتراب من فهم الدين. ولكن الرسالة الدينية لا يمكن العثور عليها في الكتب والمناهج، كغيرها من المفاهيم والنتائج العلمية الأخرى. وهي، أي تلك الرسالة إذا ما زجت في هذا الوسط، الذي ابتلع كل شيء، فقدت الكثير جداً من طابعها الأصلي، لأنّها لا تنسجم مع النسق الرتيب والعلامات الموحدة التي يتسم بها هذا الشكل من أشكال الفهم. فضلاً عن كونه فهماً مزدوجاً أو متعدداً لا يغدو يسيراً أو مستساغاً في جلِّ تمثلاته، وليس من الثابت تحييد ما يفضي إليه من تأثير سلبي على المتلقّي، وبصرف النظر عن ذلك فإنّ للدين بعداً حيوياً لا موجب لشلّه أو قتله داخل أبجدية علمية عاطلة.

ولابد لي أن أضيف أيضاً، أنَّ نمط الحوار الديني، المتعلّق بأعمق إرادات الإنسان، ليس له حضور يذكر في المحادثة العادية. وهنا فإنّ العديد من أولئك الذين يتعاطون مع الدين بنيات حسنة يتّهمونكم بتغييّب اللحظة الدينية عن واقع الحياة، فأنتم كنخب وأصدقاء على استعداد لبحث كل ما يطرح من موضوعات وأفكار سوى تلك



المؤدية لنقاش موضوعة الخالق وعلاقته بالخلق. وأنا أريد أن أدافع عنكم في هذه الجزئية على الأقل، لأنّي أراها لا تبطن بالضرورة ما تحدثت عنه من ازدراء أو لا مبالاة بالدين، وإنما هو توجّه صحيح جداً دلّت عليه الغريزة. فحيثما يتسيّد المرحُ والضحك ويبسط هيمنته حتى على اللحظة الجدّية، إذ يغلب على الأشياء أن تأتي متوافقة مع المزاح والنكتة، أقول في مناخ كهذا، لا يمكن أن يكون هناك أي مجالٍ للتصدّي لقلاع الدين، حيث تتشكّل محاطة بالرهبة والخشوع. ثمّ إنّ وجهات النظر والمشاعر الدينية، وما لها من انعكاسات كبيرة على مجمل الحياة الإنسانية، هي موضوعات من السعة والعمق بمكان، من غير الموضوعي أن يتم تناولها كفتات صغير يرمي به بعضنا البعض، كمادة لمحادثات خفيفة تجري على عجل: لأنَّ تعلّق الخطاب بالمقدس يجعله عرضة، أكثر من سواه، لفقدان المهارة المطلوبة والسقوط في هاوية الانشغال بصنائع السطحية والتخبّط، إذ يحتمل كلّ سؤال إجابته وما يطعن بها في آن واحد. وبهذه الطريقة التي يكون التغيير فيها سريعاً وسهلاً لا يبدو التعامل مع الأمور الإلهية منطقيّاً. الحديث في المقدّس يجب أن يحدث على نطاق أوسع، ويتم التواصل بالحوار في طبقاته داخل مجتمع قادر على أن يكرّس له فهماً مختلفاً عن الفهم السائد للأفكار، وما ينشأ عنها من وعي، وربما غضّ الطرف عمَّ يجب ألا يغضَّ الطرف عنه.

إنّ انصراف الخطاب للتعبير عن المقدّس يتطلّب أحياناً الالتصاق به، ولذا فلا بد له من الانتماء الى أعلى ما يمكن أن تحقّقه اللغة من اشتغالات في بناها المعنوية والدلالية، لأنه خطاب معني بالمكتنز المليء بالمجد والعظمة وإن كان فهمه محصوراً بحدود استخدام



الكلام البشري. وأنا لا أعني هنا تزويق الخطاب بحلية خارجية دخيلة على جوهر ذلك المقدس، أبداً، إنَّ ما أردته هو القدرة على كشف قوته وقدرته وكرامته وتمثلاته في ذواتنا. وهذا هو السبب الكامن وراء استحالة تناول الدين بشكل يحيد عن الخطابية بكل ما يجب أن تتحلّى به من جهد لغوي وفني وبلاغي رفيع، خطابية تكون على استعداد لتبنّي كل ما تقدّمه الفنون المرموقة من إبداع، تساعد على جعله خطاباً مقبولاً وفاعلاً. هذا النوع من الخطاب لا يتفوّه به إلا من كان قلبه عامراً بالحاجة لذلك المقدّس، لأنّه سيكون دليله للمعنى. وددت لو كان بإمكاني أن أصور لكم مشهد الحياة في مدينة لا ينفصم فيها شيء عن عروة المجد الإلهي، تماسك سكانها، ومظهر ما لكلّ واحد منهم من طاقة وقدرة تتجلّى للعيان لتكمّل سواها، فتستوعب وتمس ذلك المقدّس. مدينة حين يتقدّم أحدُ سكانها على الآخر رتبة ومقاماً، فإنه ليس تشريفاً أو تكريماً له ومن ثمَّ تنصيبه، ولذا فلا فخر ولا غرور، ولا افتراض بأنّه ملهم بما يفتقده سواه. إنّها موضع لحرية حركة الروح، والشعور بالوحدة القلبية التي تكشف عن وجودها وتماسكها في كلّ شيء، والمساواة الأكثر مثالية، والتدمير المشترك لكلِّ أمر لا يحمل في طيّاته أولاً وأخيراً غير بعدٍ دنيوي وضيع. إنَّ الاقتراب من ذلك المقدّس، ومن لحظة الحدس الديني، هو ما يدفع بأحدٍ دوناً عن سواه ليكون أميناً على المشاعر الدينية مطلقاً خطابه في الأفق، يحاور ويصمت ويتأمّل مترقباً استقطاب خطابه أصحاب النفوس المتعالية. وكأنّه معني بالكشف عن حجب خفية، أو إدخال ما لم يكن بعد حيّز الكينونة، أو أن يضيف حصانات وأمثلة جديدة لتصورات فطرية قديمة، وكأنه يرتفع بمخيلته النارية ليترك لها فرصة أن تلتهم الرؤى السامية الكائنة في أجزاء أخرى من الوجود، لتعيد



ترتيب الأشياء وترسم للَّحظة الراهنة نظاماً آخر منعتقاً من أيّ فهم متحجّر. إنها رحلة البحث عن المعنى، عن الأسرار المقدّسة لذلك المتواري خلف الآفاق، المستتر رغم وضوحه وملازمته للقلب، وقربه من المشاعر. وهي في الوقت ذاته رحلة إبحار داخل اللغة، غوص في أعماقها لانتشال ما اختبأ فيها، علّه يتناغم مع الوجد الذي يدفع بالقلب نحو صروح المقدّس.

ولكن ليس بالضرورة حبس الخطاب داخل أطر الكلام، ألا ترون أنّ للموسيقى أيضاً، وإن تخلّت عن الغناء والصوت، قدرتها على السمو باللحظة والارتقاء بها، إنها الكلمة والتعبير الأكثر وضوحاً وحميمية، من دون الحاجة إلى الكلام. لأنّ علاقة الموسيقى أو انسجامها الحميمي مع الدين لا يزال واحداً من الأسرار، وكانت دائماً أروع الأعمال مثالية، وأكثرها اقتراباً من المقدّس، وخصوصاً إذا ما ترنّم بها طلاب نجباء، وقاموا بتقديمها على عتبات المذبح. وفي التراتيل والجوقات المقدّسة، حيث تترفّق كلمات الشاعر الفضفاضة بالمتلقّي وتدفع به لفكر متجدّد، يتنفس المرء في كوّته معنى قد يستغرق الكلام وقتاً أطول إذا ما أراد البوح به، وهكذا تبدو نغمات الفكر أحياناً منسجمة مع الموسيقى.

هذا هو مدار العمل الذي ينشده المتديّنون، إنّه ارتباط بعضهم ببعض، ولهفة علاقتهم الطبيعية والأبدية. لا يثير غضبهم كون بصائر أفئدتهم ورباطهم السماوي، وهي النتيجة الأكثر مؤانسة للإنسان في اغتراب وجوده، لا يمكن إدراكها واقعياً إلا إذا تمَّ الاعتراف بها من قبل جهات سياسية عليا، لا رابط بينها غير ذلك الدنيوي المتدني، الذي لا يقوى على النظر في الأهم والأعمق في الوجود. أين هي



وجوه التعارض والعداء بين الكهنة والملحدين، والتي طالما عدّت مصدراً للكثير من الشرور؟ ثمّة مظهر زائف أعمى بصيرتكم: إذ لا فرق بينهم كبشر، إنما الفرق محصور في الموقف والحالة وطبيعة التلقّي. كلٌّ إنسان كاهن في حقله، أو المنطقة التي يروم سحب الآخر إليها، وكلٌّ علماني في قناعته بالفنون والآداب وما لها من مظاهر قد تكون غريبة على جسم الدين. الطيف الكهنوتي مجتمع، يمكن أن يوصف بالنظام المتكامل، إذ لا وجود لطبقة أرستقراطية مستبدّة فيه، وحيث كلّ إنسان يكون هو القائد وهو المجتمع على حدٍ سواء، كلّ يتبع مصادر القوة في الآخر، وهي ذاتها التي يشعر أنّه يحوز عليها وأنّه متبوع لأجلها.

أين هي روح الفتنة والانقسامات، التي تتحدّثون عنها وتتعاملون مع وجودها كما لو أنَّها نتيجة حتمية لا تنفلت عن شراكها الأديان؟

أنا لا أرى أيَّ شيء ينفصلُ انفصالاً كليّاً عن سواه، فاستقلالية الأشياء لا يمكن أن تتجلّى إلا في قابليتها على الاندماج بسواها، أما الخلافات فهي، وإن كانت موجودة حقاً داخل الفضاء الديني، إلا أنّها لا تعني القطيعة والانغلاق، إنّها تتدفّق برفق في بنى الاتصال الاجتماعي، ثمَّ يلاحم بعضها البعض. أنا شخصياً حرصت على الدوام أن أجعلكم على علم بكون حديثي عن الدين والتدين ينضوي على درجات متفاوتة، لقد ألمحت لأغراض وأشكال واتجاهات مختلفة، لا يجمع بينها سوى الخيال، الذي هو كما أرى أعلى السقوف التي يمكن أن تمنح الدين فرديته.

هل تعتقدون أنَّ ثمّة حاجة لأن نؤسّس للطوائف، ونعيق التنشئة الاجتماعية الحرّة في الدين؟ ربما أشارت الفكرة المثالية المتداولة إلى



أن الاختلاف والتناقض بين العناصر يدعو بالضرورة إلى انفصالها، إلا أننا نغفل هنا عن عمد مبدأً أكثر أهمية وعمقاً، وأعني النظر للأشياء في كليّاتها، وفي ما تعود إليه من جوهر واحد يردم الفراغ ويدحض الفواصل في ما بينها. من الطبيعي أن تكون العناصر الأكثر تماثلاً، هي الأشد انجذاباً إلى بعضها البعض على أنَّ ما تفرزه من كليّة لا يعني بالضرورة واحديتها كعناصر متباينة، ولكنها متجاذبة إلى مركزها بوصفه مدارها الرصين. لأن درجة القرابة بين الأشياء كما الأفكار تتباين انجذاباً وتنافراً، وبصور تدريجية، ومع التحولات الكبيرة يبدو التنافر المطلق أو الفصل التام بينها غير مدرك. خذوا ما شئتم من هذه الكتل الكبيرة التي تحيط بنا، لو لم يجرِ الفصل بين ما تتشكّل منه من عناصر، كيميائياً وبقوة العملية الميكانيكية لما بدا أيٌّ من عناصرها فردياً منعزلاً عن سواه، فلكلّ عنصر من العناصر قابليته على الارتباط والتلاحم مع الآخر، الذي ربما انتمى إلى كتلة مغايرة تماماً. لا شك أن درجة قرابة العناصر هي ما يحدّد قوة التصاقها، ولكن هناك على الدوام ذلك العنصر المبهر الذي تتحقّق عبر وجوده إمكانية خلق الأواصر مع الآخر، إنّه نقطة الارتباط الواعية بين ما خفي وما ظهر من قابليات تلك العناصر المتباينة. إن مبدأ الترابط بين العناصر المكوّنة للوجود هو جوهر الوجود، وهو ما يسير عليه لب الدين وفحواه، إذ يتناغم مع ماهية الوجود ويضفي الطابع الكلّي على الخلق، ومن هنا فلا خلاف أو تناقضاً في النسائج المكونة للأديان إذا ما كانت مشدودة لجوهر وجودها المقدّس لأنَّه المنبت الأم.

إذا حرصت الجامعات العلمية الحرّة، على الشرط الأول والأصلي لمعنى الدين، بوصفه أجمل وأنضج ثمرة من ثمار وجود الإنسان،



فإن علاقة الكائنات البشرية به ستكون أكثر وضوحاً، وسيتبين لكم أن العالم المتديّن كلٌّ متكامل لا يمكن فصل أجزائه عن بعضها، وإن تفاوتت هنا أو هناك. وحدها الدرجات المتدنّية من الوعي، تلك التي تقف عند تخوم الأشياء وتهاب استغوارها هي ما تتجلّى فيها هوّة الانقسام في ماهيّة الدين والتديّن، لأنّ التعمّق في ضروب الفكر يكفل إزالة قشوره أو ما ليس من أصله.

الصوفيون والفيزيائيون في أسلوب تعاملهم مع الدين، والملحدون وغير المؤمنين بوحدة الوجود، أولئك الذين لا تستقبل أنظارهم غير تلك الصورة الخارجية المنظمة للكون وعناصره، أو ما يصفونه بالفوضى الظلامية، المحيطة بأجزائه، كلٌّ هؤلاء يمكن وضعهم في إطار واحد لا يتجاوز أحدهم حدوده إلا لو أخرج بالقوة والتعسّف، وهو إطار العلاقة بالذات، مدى اقترابها أو ابتعادها عن الالتباس والوضوح في رسم الخطوط العريضة لنمط التفكّر بماهية الوجود. ما الذي حلّ بنهج قراءة التجربة الدينية، كشكل فردي فطري يكشف عنه نمط التديّن، وأين هو ذلك الشعار الرهيب: لا خلاص لنا خارج ذواتنا؟

المجتمع المتديّن كما بيّنت لكم من قبل، وكما يجب أن تكون عليه طبيعته، هو مجتمع يقوم على المواقف المتبادلة بين الناس على أساس كون متلقّي الخطاب الديني هو ذاته منتجه ومرسله، ولذا فهو مجتمع لا يتحقّق وجوده إلا بين أناس لهم دين. وحين أخصُّ الدين هنا فأنا لا أعني به ديناً محدّداً، لأنّ الدين امتداد لا نهائي لبحر لجي غير قابل للحصر والتحجيم. وتديّن الإنسان لا يعني بالضرورة الوقوف على الدين كلاً متكاملاً غير قابل للثلم، ولذا أقول إنّ كلّ من



له ومضةٌ، أو نزرٌ يسير من التجربة الدينية، يراها كافية لإحياء روحه، هو جزء لا يتجزأ من المجتمع المتديّن. إنَّ مبدأ الحاجة إلى الدين هو الثابت الأهم والأعمق في وجوده في حياة الكائن البشري، أمّا ما يحدث من أحجام أو قبول لهذا المبدأ، فتلك من خصوصيات الأفراد داخل كل دين.

لا شك في أنّ دوائر الرباط الديني، حيث تتجلّى متعة الحدس والتأمّل للوجود فتمنح اللحظة جمالاً وسمواً، وتجعلها مشرّبة بمشاعر مقدّسة، تحوم بالإنسان وترفعه لأعلى قمة من قمم الحياة، إلا أنّها تعود به أيضاً ليختطّ وجوده في الأوطأ أو الأدنى الذي لا مناص من ظهوره في مشهد وجود الكائن البشري. ولعلّ عزاء الإنسان في هذا التأرجح بين الأسمى والأقل قدراً من آفات ومفاسد هو اكتشافه لمقدرته على الحياة. الدين وحده القادر على منح الإنسان قوة قبول الحياة في أقصى درجات انحدارها. فهو، أي الدين، يهب الإنسان فطنة من نوع خاص، ولربما شعر بوجوده بين الملحدين أكثر رقياً، من وجوده بين متديِّنين همج، لأنّه مع الملحدين سيأمل في استنبات الرؤيا في بعض منهم عبر ما ينشده من نغمات السماء، وما يطرحه بينهم كشخصية كهنوتية، من معانٍ تنم عن السمو. الكهنوتي واضح في تعبيره، مشرق في دلالاته، وفي كيانه كلّه. وإذا ما تأسس انطباع لا يليق بالدين، بالمقدّس الإلهي، أو بأيّ شيء مماثل من مفاصل التجربة الدينية، فسرعان ما ينبري لإزالة نذر الشؤم عن الدين ونقله إلى مزاج مغاير لا يغيب عنه الفكر. ولعل في هذا ما يمنحنا دليلاً آخر على قدرة الدين على الازدهار في مناخات غريبة وقاسية.

إنّ هذا الانشغال والحرص على نشر نفحة الدين يشبه في جوهره



الشوق النقي الذي يدفع بالغريب حنيناً إلى دياره، رغبته في حمل موطنه على أكتافه والسير به بكلّ ما له من أعراف وعادات وتقاليد، كيما يمنحه فرصة أكبر ليرى ويستخبر ما لم يكن على علم به. وبناءً على ما تقدّم لا أحجم عن القول إنّي أتفق هنا مع من يرى منكم أنّه من غير المتاح لكلّ كائن بشري معرفة بلاده على وجهها الأدق، ثمّ القوة على حملها أينما سارت به خطاه. وأنا إذ تحدّثت عن نفحة الدين فإنما ألمحت إلى ما اشترطته الكنيسة الحقيقية على نفسها من مقاصد وغايات، لا إلى ما آلت إليه الآن أو ما يحيط بصورتها من خبرات. وأود أن أؤكد لكم، مع ذلك، أنني لم أتكلم عمّا يفترض أن يكون، ولكن عمَّ هو كائن، لأنَّ الكنيسة كانت في الواقع على هذه الشكل، وما زالت كذلك، وإن كان ثمّة من لا يرى ذلك، أمّا المدان على أية حال فهو أنتم، حين وسّعتم من دائرة سوء الفهم إلى ما لا نهاية.

أنا أدعوكم هنا، لا بل أتوسل إليكم أن تفكّروا بإعادة تداول الدلالة القديمة للكنيسة، تلك التي لا تنشغل بالمتنازع عليه في بنيتها، بقدر انشغالها بما حققته من نجاح غير مكبّلٍ بنبذ الآخر، لا تكترثوا بالكنيسة، تلك التي تختطّ طرق البغض والنفور لتقاتل ضد جميع ما يقع أمام التعليم الديني من عقبات، وهي عقبات لا بد من وجودها لأنها من سنن ما يفرزه زمن وحال وجود البشر. امنحوا تلك الكنيسة التي تتخطّى الصعوبات سهماً أوفر عبر إعادة تشكيلها وصوغها لذاتها. كنت قد استشهدت لكم من قبل بمثال مجتمع قدَّم لأبعاد الظاهرة الدينية ما توجّب من الوعي بها حتى باتت وجهة النظر الدينية واحدة من المهيمنات التي تقوم عليها حياته، وآمل أن أكون مقنعاً في ما ذهبت إليه في أنّ الإنسان يجب أن يتلقى بعض التعليم



الديني، ولكن الكثير من القدرة لتشخيص هذه التعاليم واستلهامها، التي ربما بدت الآن في أضعف صورها بين الناس. ولكن هذا لا يعني تجاهل تلك الأصوات التي تنبعث من جموع الناس الواقفة في المعابد، وهي تنشد لله الأناشيد، هديرٌ من أصوات تصم الآذان، وهي ذاتها ما قد تحدث في فناءات الكنائس الكبيرة. ولا أظن أن هناك من سيختلف على أن جميع المتدينين حقاً لا يظهر عليهم تدينهم في الإيمان وحسب، وإنّما بذلك الشعور الخفي المتّقد في دواخلهم وبالانتماء إليه، ثمّ إلى بعضهم البعض، وهذا هو ما يبطنه المعنى الحقيقي للكنيسة. هذا المركب الكبير، الذي لم يتوان أحدٌ منكم عن كيل الاتهامات له بين التصريح والتلويح، هو في الواقع، أبعد ما يكون عن المجتمع المتدين، الذي رميت إليه، إنّه في نظري لا يعدو كونه مجموعة من المواقف التي تكرّس مناخات تربوية يسعى رجال الدين لتثبيتها، ولذا فمن الطبيعي جداً أن تكونوا على غير توافق معه في جميع النواحي تقريباً.

يؤسفني، أن أذهب بكم، إلى الكثير من الأمور الدنيوية الأرضية، رغبة في أن أوضّح مقاصدي، وعليّ أحياناً الدخول بكم متاهة تعصف بها ريح الشقاء، أعرف ترددكم وأتفهمه، فلا شيء يحدث من دون مبدأ التعارض مع سواه، هلّا اتبعتموني. ربما وجدتم شكلاً مختلفاً جداً من المتعة والمؤانسة، فيما لو أبديتم اهتماماً بما أقول، وربما وجدتكم مقتنعين برأيي أساساً. آمل أن تكونوا على توافق معي حول ما أشرت إليه من قبل، وهو أنَّ ما ينبعث عن اللحظة الدينية من مشاعر وإحساس يقيني بالوجود لهو أكبر وأعم مما في جعبة الرسالة الدينية من حمولات للآخر. فالمبدأ الذي يدفعنا للالتصاق بالدين قد يبدو



على حين ذات المبدأ الذي يحدو بنا للتخلي عنه، إنّه مبدأ البحث عن القيمة الغائيّة، عن العلة والشعور بالاغتراب إزاء الوجود. ولكن ما من شك في أنَّكم لا تحبذون الحديث في كون الدين مادة قابلة للاكتشاف في الذات. الدين أصل جوهري ثابت في التكوين الفطري، وليس بمقدوركم أيضاً خلق نقيض له مساوٍ له في التجربة والتجذر. وإذا جاز لي استخدام صورة من صور العلم، على الرغم من كوني لا أفضّل التعبير بها إذا ما تعلّق الأمر بالدين، فأود أن أقول كم إنَّ طاقتكم الدينية سلبية، وهي تدفع بنفسها الآن لتدخل بنية متكاملة من النظم رغبة في التوحّد مع المبدأ الإيجابي للدين. ولكن أنّى لها ذلك وهي تفتقر بدورها إلى القدرة على الاندماج ببنية الدين، لأنّها تناشزه. هذا هو في بضع كلمات شكل الحياة الدينية، وطابع الميل الاجتماعي، الذي يرتبط به ارتباطاً وثيقاً. لعلي لا أجانب الصواب إذا قلت إنّ سياق حياتكم اليومية والمدنية، وصولاً إلى أكبر الحوادث التي تمر أمامها لا يخرج دوركم فيها عن دائرة المتفرّج، وخصوصاً إذا ما تعلّق الأمر بإبداء بعض المشاعر الدينية.

ما الذي سيتبقّى بعد غياب الدين غير فكر قاتم يتوهّم القضايا على مرامه ومزاجه، ألم يشغلكم سؤال كهذا؟ سيبدو الموقف من الوجود كما لو أنه انطباع ضعيف تحدوه الحاجة لإثبات ذاته، ككتلة من صور لينة جدّاً، سرعان ما تذوب، وتسيح الى درجة تضمحلّ فيها المعاني. ستجرف أمواج الحياة العملية كلّ شيء، ستدفع بالوجود إلى أن يُختزل في منطقة مختارة من الذاكرة، هناك حيث مدفن الأمور الدنيوية.

ثمة من لا يشعر بحجم النقص ومساحة العوز التي يخلقها غياب



الدين، وهنا علة عدم ثقته بنفسه التي تجعله يسعى لإكمال ذاته بطلب مساعدة لا تتّفق وماهيته، فيكون كمن ينظر في المرآة ليكتشف ملامح سواه. إن من يبحث عن الدين على هذه الشاكلة، هو في نهاية المسعى يسيء فهم ذاته. وليس سوى الخداع ما سيتعرّض له دائماً، لأنه لا يملك لا المفهوم ولا النظرة الحقّة للدين. ثم يكرر المحاولة جرياً وراء أمل عقيم، علّه يصيب الحقيقة في جانب من جوانبها وهي محاولة ستتكرّر لألف مرة في جانب من جوانبها، على أنه تكرار لم يزحزحها عن مكانها ولم يدفع بها الى ما هو أوضح. لو تسنّى للمرء الاقتراب من الجوهر الفطري للدين لتمكن من الزراعة في أرضه والتمتع بفيء ظلاله التي ستخرج حتماً من السلبية التي تشتت انتباهه وتنأى به عن دائرة الدين، وأقل ما يمكن أن يقال فيها إنها مركز نشاط الروح واتّقاد الفكر. أما الكنيسة فهي غير مبالية بتلك العلاقة الباردة بالدِّين، كل ما يهمها هو ظهورها بمظهر المتلقّي الفخور بما هو عليه، وليس هناك أكثر وضوحاً من إصرارها على إهمال غير المتدينين، كما لو أنَّ التعاطي مع الدين مقصور على الكنيسة وأتباعها.

ماذا لو أعدتم النظر بالعلاقة بالدِّين على أساس أشمل من العودة الى اختبار الذات، والانسجام مع ما تبثّه من إشارات وأحاسيس وتصورات عن الوجود؟ أو أنكم لا تفضّلون العوم في مياه كهذه، انها لا تعجبكم ولا تناسب أسلوبكم في تحريك الفكر وانبثاق التصور، القائم غالباً على فردانية تخلق الحواجز مع الروح. إنّ كلّ ما تطمحون إليه لا يخرج عن أطر التنظيرات، وفي المقام الأول بحث المفاهيم والآراء والمذاهب، وكلّ ما يضع الدين، تحت دائرة الضوء، بوصفه عنصراً ثقافياً مجرداً من الذات. إدراك جوهر الدين يعني التصالح مع



جلّ المشاعر والأفعال الرمزية التي ترافقنا كبشر على امتداد التنشئة الاجتماعية التي نمر بها، لأنه، أي الدين، الإشارة الصادقة الكامنة في الوجود والداعية للعودة للمركز المشترك للأشياء. ما الذي يمكن أن تخلقه حماسة الابتعاد عن الدين غير تحويل الفكر الى بنية ميكانيكية، أو إلى هدر وتبديد للقدرات من المتعذّر فهم مقاصده. وما الذي يعنيه هذا النمط من التفكير، وهو نهج لا ينفصل عن التعاطي مع الدين جملة وتفصيلاً، سوى أنَّه فهم خارجي سطحي، قائم على اقحام التجريب في كلِ شيء. وبناء على هذا الشكل من الإدراك تتخذ المفاهيم الميتة مقعداً لها في التفكير الديني. ولكن إعادة امتصاص المفاهيم، ثم تخصيبها وصهرها وإنتاجها ممكنة وقابلة للتحقق، إذا ما كانت مبنية على أمل العودة بها إلى منابع نشأتها الفعلية، تلك التي لا تفصلها عن الحدس الديني، وتلمس البنية الشعورية الحيّة التي تربط الكائن البشري وجودياّ بالبعد الديني. ومن هنا تأتي الحاجة لدعوتكم إلى الفهم الرمزي البعيد عن الميكانيك والوضعية، إذ لا مكان لهما في حدس التجربة الدينية، أو الاقتراب من مجمل الرسالة الدينية. دعوني أغتنم الفرصة الآن لمقارنة الدين بالكنيسة، كإحدى كبريات قنوات وصوله الى الناس، وأنا لا أقصد هنا الكنيسة بصورتها الأقرب الى الحقيقة الموضوعية لوجودها. الكنيسة بحسب ما أزعم ذات وجود متدنٍ على درجة عالية من الابتذال. ولعل مرد هذا التدني راجع إلى طبيعة تعاطيها مع الأشياء، وإنني لا أجد هنا أي مبرر يجعلني أخفي رأيي، أمامكم، بانحطاط الكنيسة. ولكني أعترض في الوقت ذاته، وبشكل رسمي، على أي افتراض يسعى لتقويض الكنيسة والنيل من وجودها كمقدمة لتدميرها ونسف ضرورات وجودها. أقول كلا، وبوضوح، لأن الكنيسة الحقيقية على وفق ما أفهمها، هي من عائدات



الدين، وليس العكس، وهي ما يفترض تأسسه على انبعاثات التجربة الدينية. ومن هنا، فهي مؤسسة دالّة، عليها أن تتناغم مع طبيعة وجودها بكل ما له من مظاهر وتشكيلات وكهنة وأعوان واتباع.

أمّا المؤسسة الاجتماعية الدينية فتكتسب صلاتها المختلفة، بطبيعة الحال، من علاقتها بالكنيسة، وقد تبدو بمظاهر متباينة تماماً. ولا يجوز لي أن أصمت هنا عن كون الرغبة في تشكيل اللبنة الدينية داخل المؤسسة الاجتماعية تعتمد بشكل مباشر على طبيعة الانجذاب إلى المشاعر الدينية والتحرّك باتجاه التجربة الدينية، التي ستخلق بالضرورة تنشئة اجتماعية، أزعم أنها ستقدم وعياً دينياً أفضل حالاً. وهو ما سيسعفنا في تلمّس الطرق المتقاطعة، التي لا مناص من إثبات وجودها، بين الدين والكنيسة، ثم التمعّن بروّية وعقلية سليمة في الانتهاكات التي تسود المجتمع الكنسي، ومحاولة ربط بعضها بالبعض الآخر والتفكّر في أسبابها. عليكم أن تعترفوا بأن الدين ليس مسؤولاً عن انتاج الكنيسة بصورتها المزيّفة. وعليكم إخراج الدين من معادلة الخسارات واللوم ودائرة التشنيع والذم، وتبرئته، ولو موقتاً لحين اكتمال الصورة لديكم، من كل ما ألحقته به تلك الكنيسة. ومن الحري بي أن أعترف أيضاً بأن المجتمع الديني موبوء بطائفية خبيثة، كان وجودها، يوماً، ضرورة من ضرورات وجوده كمجتمع. حيث تُتبنى جملة من الآراء العقائدية كوسيلة للوصول لجوهر الدين. وهي آراء كان يجب أن تقدّم كمنظومات عقائدية متكاملة، لأنها في النهاية ليست سوى منهج غرضه النهائي تحديد معطيات خارجية، لا تتّصل بجوهر الدين إلا على مستوى سطحه أو قشوره، وإن كانت تتكلّم بسلطة الدين، التي تدعي أنه خوّله إياها. ومن الطبيعي أن يكون



كل معارض لهذه الطوائف مصدر قلق وإزعاج مستمر لها ولوجودها الآمن، ومن ثم خطراً على سلطتها. ولعلي لا أبالغ هنا إذا قلت: إنَّ واقع الدين في الأزمان الغابرة كان أنضج وأكثر رحابة فيما لو قورن الأمر بواقعه في زمن الطوائف، لأنه، أي الدين، في ذلك الزمان، لم يكن مقصوراً على مجموعة متحجّرة من القوانين والنظم العقائدية التي لا تترك فسحة لدخول ما يغايرها بنية ومضموناً، لقد كان الدين في ذلك العهد يحيا بوصفه مجموعة أديان تتجاور وتتماسك في ما بينها في كثير من الأحيان، من دون تعارض. ثم تطوّر الأمر تدريجياً ليصل بالدِّين إلى تخوم أزمنة أفضل عاشتها المجتمعات داخل أُطر منظمة إلى حد ما، حيث أصبح الفرد مركز ثقل مستقل، لا تقلل أهميته ومركزيته من أهمية سواه.

إنني لا أجد حرجاً في أن أقرَّ هنا بأن المسلمات الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الديني شديدة الالتصاق بفهم المعتقدات، فضلاً عن مبادئ التعامل والتفاوض والتمسك بالعادات، ولا صلة لها بالحدس والتفكّر، وليس للتأمل فيها مساحة تذكر، يمكن أن يشيّد عليها شيء من هذه المسلمات. وعلى مستوى صورة الدين في التعليم نجد هناك ارتباطاً وثيقاً بالإصلاح والاستنارة، وما شابه ذلك من مفاهيم تتصدّى لما سميته من قبل بحدود الخرافة ومسحة الأساطير. ولكنكم يجب أن تعترفوا بكون تلك المسحة بعيدة كل البعد عن جوهر الدين. ولكن هذا الارتباط بين الدين والاسطورة هو في ظني مما لا يمكن حلّه من دون التفريق بين الكهنة وسواهم ممن لا علم لهم بالدين. إنَّ بمقدور الكهنة فهم الجوهر الحقيقي للدين، وهذا مما قد لا يتسنى لسواهم ممن لا يتحصّنون بالمعرفة والموهبة والقدرة على الحدس.



مع كلّ ما تقدّم ما زلت أسمع منكم من يكيل الاتهامات للدين ولا يتوانى عن قذفه بالادعاءات. ولعلّكم ستذكرونني هنا بأني أنا من قال: إن المجتمع الكنسي لا يخرج عن كونه مؤسسة بدائية لا تأوي غير المتدربين على الدين، ولذا فهي لا تنسجم في كثير من تفصيلاتها مع الطبيعة الفطرية للدين، لأنها تفتقر بذاتها لفهم المبدأ الحقيقي للتجربة الدينية. ربما ستقولون: إذا كانت الحال على هذه الشاكلة، كيف تمكّن المتدينون من بسط نفوذهم وسيادتهم، حيث لا يعلو على أصواتهم صوت، ولا تجد من ينطق منهم من دون أن يذكر بأنه صوت الدين؟ ما المناقض في هذا لروح الدين؟ ولم يحقّر الكائن البشري ما يجدر به أن يعظّمه ويحسن إدارته؟ لأجل أي شيء يحتمل المرء أن ينطفئ في مهجته وهج العاطفة وتحتجب روحه بعتمة حالكة، ما كان لها أن تنوجد لو قدّر لها أن تظل تحت أيدي الدين؟ من هم روّاد الكنيسة، هل هم ذات الأشخاص، ممن تصح تسميتهم بالمتدينين، أو الموهوبين بإدراك جوهر الدين؟

إنني أدعوكم بقوة لتقليب النظر في ما أدعوكم له من تساؤلات، وانا لا ألتمس العذر لكم، وفي الوقت ذاته لا أخدعكم، إذا ما قلت لكم: إنّ مواقفكم ضد الدين غالباً ما تقدمون عليها باسم الفلسفة، وإنّكم إذا ما انتقدتم الكنيسة فإنّكم تفعلون ذلك باسم الدولة. هل ستصمونني بصفة المخادع الماكر، وأنا أضع نفسي الآن أمامكم، كما لو أني المدافع عن أولئك المتدينين، عن مآخذهم في محيط المجتمع الديني، وفشلهم في تنظيم تعاملهم مع الدولة؟ ولكني آمل، مع ذلك، أن تكونوا قادرين على إدراك حقّي في ضرورة التعبير عن الأصل الحقيقي لكل ما يحيط بنا من شرور. كل عقيدة أو وحي جديد، كل



تأملٍ عميق للكون، يحفّز الفكر ويدفع به باتجاه زوايا لم يتم التقاطها، لا بد للدين من أن يغذّيه وأن يكتسب منه على حد سواء. فالدين هو المركز الذي تدور حوله الأفكار الحيّة، تلك القابلة على التغيّر والتجدّد في قراءة الكون وفهم وجود الكائن البشري داخله، ثمّ وضع علاقته في أطار وجودي معين، وإنّ له مدرسته الخاصة، التي تفرز تلقائياً كجزء من الكنيسة الحقيقية والشاملة، تلك المؤسسة الهادئة والبطيئة في اتحادها الناضج مع كل ما قد يبدو متعارضاً مع فكرة الروح العظيم.

الدين قبل كل شيء شكل خاص من أشكال التلقّي، يتغلل في الروح، ويجعل الذهن متّقداً، مفعماً بمشاعر جديدة، تعبر بعنف لا يقاوم عن حاجة ماسّة لإطفاء حريق داخلي يدعو للانتماء إلى الوجود، والانصهار فيه. بما ينسجم مع هذا المعنى يعبّر، من بعيد أو قريب، كلّ من تناغم مع ذلك الدفق اللانهائي الذي يحمله الدين بين طيّاته. إذ يتحوّل كلّ خطاب إلى رسم وجهة نظر معينة عن الدين، أي نصيحة وأي رغبة، أي كلمة طيبة أو ثناء متحمّس لمسار خيّر، كلّ هذه البواعث ستعرف طريقها إلى المعبد الوحيد الذي تنشدُّ إليه، وهو الدين. إنّ من يعرف ماهية الدين لن يستغرب الحديث عن وجوده في كل هذه التفصيلات وسواها. ولا يقف مشكّكاً بتلك الحماسة اللذيذة التي يزخر بها الدين، سيجدها أحد التجليات الطبيعية المنبعثة من دفء وهج الدين، إذ يغمر الروح ويتفشّى في جلّ الحياة اليومية، دفء يجتاح كلّ شيء، بيد أنّه يستبعد في الوقت ذاته كلّ مظهر سطحي زائف، لا محل له في الذات. وهناك الآلاف من المظاهر السطحية التي تشي بشيء منقوص ولا غاية لها غير إفساد اللحظة الدينية. ما



الدين غير ذلك الألق اللامتناهي لطاقة المقدّس الكامنة في الداخل، حتى لدى الشباب، بكل ما لهم من عنفوان واندفاع إلى الخارج، إنها ذات الطاقة التي تسبغ على الوجود معناه.

أما الاستهانة بذلك النبع الوجداني الأصيل، فهو لا يعني غير إفساد لعلاقة الإنسان بذاته من دون كوابح أو حدود، وبلا حاجة إلى سبب خارجي. وهو إفساد لا بد للكنيسة الحقيقة، وإن بدا وجودها صعباً ومعزولاً عن وقائع الحياة اليومية، من أن تصحّحه وتعيده لمساره. لعلَّ ما أصفه هنا حدث ويحدث لكلّ الشعوب وفي جميع الأزمنة، بصرف النظر عن دياناتهم. ولكن إذا ما تعامل الإنسان مع الدين على أساس هادئ قائم على عدم التملّص أو الاغتراب عن الفكرة لأنها ذاتية موجودة فيه وليس خارجه، فإن حالة التجاذب بينه وبين الدين لن تكون خارج إطار اليقين. هلّا رأيتم تشكيل الفخار من مواد وعناصر مختلفة، إنها تتجاذب في ما بينها، على الرغم من اختلافها الجوهري أحياناً، لتشكّل على أساس من الانسجام التدريجي بين الأجزاء شكلاً جديداً سرعان ما يغلب عليه طابع الهدوء والسكينة، وهو ينتصب ليأخذ حيزه الطبيعي في الوجود. وكذا هو الأمر في المؤسسة الاجتماعية الدينية، لأن هذا هو المسار الطبيعي للأمور، إذا ما استندت لما ألمحت إليه سلفاً.

إنَّ الكنيسة الحقيقية، هي التي تفرز، هادئة، مقومات اللحمة والتواصل مع الدين، للتمتع والاستئناس باللحظة الدينية المألوفة في وجودها، والعليا في قيمتها، تلك اللحظة التي ينتجها الفعل الجماعي. ولعل أهم ما يجب أن يميز هذا النوع من الكنائس ضرورة حيازتها على رهبان وكهنة يهمّهم خلق مجتمع ديني واعٍ، يباركه الرب ويغبطه



كل من لا ينتمي إليه. مجتمع أقل ما يمكن أن يقال عنه إن طوبى له. أعرف أنّها أمنية غير مقدّسة، ولكنّي أظنّها قريبة، إذا لم تحكموا أنتم عليها بالفشل. ولطالما سيطرة فكرة فهم الكنيسة، بوصفها مؤسسة، كل ما يهمها حيازتها على امتيازات خاصة يتمتع بها أشخاص لهم سطوتهم داخل الطبقة البرجوازية. وهو ادعاء خطير إذا ما عُمِّم، لأنَّه يشتمل في كثير من الأحيان على قدر كبير من التضليل الخبيث، ولا سيما في إقرار كون الكنيسة صرحاً من خراب لا أمل فيه ولا رجعة في كونه غير قابل للإنقاذ.

على من يجب أن نوقع اللوم إذا كان من يتبوأ مكانة كنسية تحيط بها القداسة لا يستحق أن يكون في هذا المكان، وإذا ما بدأت تتسرّب من بين أصابعه أحكام ومواقف مخالفة لروح الدين؟ بالتأكيد أن لا أحد غير الدولة، بكل ما لها من مواقف مقرفة، هي من يتولى هذه المسؤولية. والدولة هي في الوقت ذاته السبب المباشر الكامن وراء انفراط عقد العلاقة بين الكنيسة الحقيقية والمجتمع المتديّن. لقد حيَّدت الدولة، بشكل أو بآخر، الكنيسة عن الاهتمام والرقابة في مجال التعليم، وهي بذلك أقصت رعاية الدين للتربية والتعليم، وركزت على ضرورة فهم الشعب لإرادة القانون الوضعي المجرّد، الذي يتيح مستوى من العلم بواجباته وفهم القوانين الخاصة بها، أمّا قوة الدين وتعاليم الكنيسة، فقالت إنّها حق من حقوق مواطنيها لا صلة لها بهم فيه. هذا يعني أنها قدمت جملة من الخدمات، ولكنها في الوقت ذاته سرقت من المجتمع - وهو أمر حدث تقريباً في جميع أنحاء العالم المتحضر، حيث هناك مسافة ما انفكت تزداد وضوحاً واتساعاً بين الدولة والكنيسة - حريَّته. لقد عاملت الدولة الكنيسة



بوصفها مؤسسة من مقتنياتها، هي من أوجدها لغرض واستخدامٍ معيّن، وبطبيعة الحال، تكون أخطاؤها وتجاوزاتها كلّها تقريباً من اختراعها. وبناء على هذا الأساس فالدولة وحدها من يقرر من الذي يتقن نموذج الكاهن ويتحدّث باسم الدين داخل المجتمع.

والسؤال هنا هو: ما حجم ثقتكم بالدين في ظل تلك النفوس البعيدة عن المقدس؟ ولعلي بوصفي هذا لا أضع بذلك حدّاً لاتهامها، لأنها نفوس ملوثة، حتى في أعمق ما تحمل في داخلها من نزعة تشدها للدين. لا شيء في الكنيسة الآن يشير إلى الدين وحده، لا حدود واضحة الآن للكشف عن المحور الرئيسي في منهجها وفي ما تطرحه في إطار ما تقدّمه من خطابات وتعاليم مقدّسة، تتطرّق فيها وبشيء من الغموض والرمزية إلى شيء من العلاقات الأخلاقية والسياسية، محوّلة كل شيء بعيداً عن هدفه الأصلي المفهوم. هناك الكثير ممن يتولّون مواقع متقدّمة في المنظومة الدينية الكنسية على الرغم من كونهم لا يفهمون شيئاً من الدين، ومن بين رواد الكنيسة من لا يتبادر إلى ذهنه السعي لفهم علاقته بالدين.

إنَّ المجتمع الذي يمكنه أن يواجه بمثل هكذا إشكالات، لا تخدمه ولا تقدّم له ما يمكن أن يؤول عليه بنفع ما، على أنّه وعلى الرغم من ذلك، لا يجد ضيراً في استقبالها بوداعة وتواضع، هو لعمري مجتمع جدير بالالتفات إليه. كيف لا وهو على استعداد لقبول الآخر، وإن كان نفساً ضالة، يمكنها، بما تملكه من سلطة دخيلة، إن تسيء لحرية ذلك المجتمع واستقلاليته، التي هي من أصول فطرته الأولى، في محاولة منها لتحويل تلك الحرية إلى صورة فارغة باهتة الملامح. ولعلَّ أيَّة إشارة مختصرة لظروف المجتمع الكنسي ستكون، كما أعتقد، خير



دليل على حقيقة ذلك المجتمع، الذي ينأى بظروف خلقه وبطبيعة تكوينه عن جوهر الدين. والسؤال هنا هو ما شكل البنية الكنسية التي على المجتمع أن يقبلها، وكيف يمكنه الفصل بين الكنيسة الحقيقية وسواها؟ من الطبيعي أنّ إجابات كهذه لا تقدّم بمعزل عن بعد الزمن، لأنّه النضج الوحيد القادر على فرز جواهر الأشياء، عبر ما يتمخض عنه من آلاف الطرائق والاتجاهات التي قد تقود إلى هدف واحد. إنّ كلّ ما أردت أن أؤكد عليه هنا هو أنّكم تتحاملون على الدين وتأخذونه بجرائر سواه، كفّوا عن محاسبة الدين على خطايا تقوم بها الكنيسة.

دعونا نرى ما الذي يمنع في الواقع من بناء مفهوم، غير مشوّه، عن الدين. ألا يمكن لشيء كهذا أن يحدث في الوضع الراهن. أنا لا أريد أن أذكّر الجميع هنا بأن الدولة الآن هي القائد والموجّه الأساسي للمجتمع والقائمين على تعليمه - وأنا لا أخفيكم سرّاً، أني لا أميل لاستخدام مصطلح الدولة، ولكني أضعه هنا بدلاً من الحكومة لأن الأخيرة لا تحمل في هذا السياق السعة ذاتها التي تحملها الأولى، وإني لأجدني مضطراً لوضعها هنا - وهي، أي الدولة التي تختار، وفقاً لرغباتها، من يؤمّن لها وسائل الاتصال بالمجتمع عبر ما تراه هي مناسباً من نظم وسياقات وقنوات. لقد تمكّنت من بناء نظام تعليمي ذكي للغاية، وأخلاقي قد يثير نقاؤه الإعجاب من دون أدنى حاجة للتعرف على الدين أو ما يحمل بين طواياه من تجارب وخبرات لا تخلو من المرارة. ولكن نظرة دقيقة تكشف عن كون ما تقدّمه الدولة ليس بغريب عن جسم الدين الحقيقي، الذي لا يختلف في جوهره وتشكيله عما تصدح به الفنون من إبداعات يتحدّد وجودها بطبيعة تلقّيها وهضمها وإعادة انتاجها من جديد، ربما بشكل مغاير أو غير متوّقع.



لنتذكّر قليلاً محنة الإنسان في بحثه المستمر عن ملامح علاقته بالوجود وعن رسم مسيرة حدسه للمتناهي، وكيف قاده بالضرورة للخوض في سؤال اللامتناهي، ذلك السؤال الذي لا طائل من حضور الدين فيه إذا ما رام المرء استغواره بعناية. فكّروا بتعدّد الإمكانيات التي يمكننا من خلالها فهم الوجود، وبالآلاف من وجهات النظر، ذات الأصول والنظم والمفاهيم المختلفة، كلّها اجتمعت في ما بينها لينير بعضها البعض، كلٌّ منها يسعى لفهم الدين والاقتراب من منشأه وموقعه في ذاته الفردية والاجتماعية. لا شك في كون سؤال الدين مؤرق لمن يرغب في معالجته، لذلك المتحمس لملامسة كنهه، ولكن ليس بالضرورة البتة أن يستلهم المرء الدين عبر كلٍّ ما يتجلّى على صفحات الوجود من إشارات تدل على خلق الكون. لأنّه من غير المتاح للجميع بلوغ الحدس الصوفي، وعلم اللاهوتي، وموهبة الفنان وروحية الربوبية المقدّسة، مرة واحدة. ولا بمقدور الجميع الاقتراب من رسالة النبوءات والرؤى والصلوات، وتمثل التاريخ بكل حمولاته. ولكن ربما كان من الممكن جمع كلّ هذه الفروع الرائعة التي وهبتها الشجرة السماوية، وتأمّل جودة وضعها وتوزيعها على تاج المعارف الكهنوتية.

إنكم تدركون بشكل لا يكتنفه لبس أو غموض أن كلّ ما يتصل برغباتنا داخل دائرة المجتمع المتديّن هي نفسها تماماً إذا ما قورنت برغبات سوانا، نعم هي نفس ما يطمح إليه مجتمع آخر لا تصح تسميته بالمتديّن. إنّ ما يقف بطريق رافضي الدين، أو مزدريه، هو ذاته، مع وجود استثناءات بسيطة، ما يقف بطريق رواد الدين، ممن يرى أن في جوهره ما يصلح أن يمنح البشرية آصرة أكثر ثباتاً وأسمى



رسالة. وأرجو أن تغفروا لي هنا تكراري الممل لهكذا معنى. ومن بين ما يربطنا كاتجاهين، متضادين، في موقفنا من الدين، هو أن كلاً منّا يروم ممارسة عمله، والتقعيد لاتجاهه بحرية، من دون ضغط أو تعقيد، لطالما عرقل عليه مهماته داخل حاضنة المجتمع. كيف يمكن لهذه الحرية، النسبية، أن تحدث بيننا؟ هل نحن بحاجة لصدمة كبيرة كتلك التي حدثت داخل بلدان مجاورة لنا؟ أو إن الدولة، وعلى الرغم من مضيها على مسيرة فشلها في فسخ عقد قرانها مع الكنيسة، ستسن بيننا، عبر ما لها من وسائل، صيغة اتفاق ودي، من دون أن تدعو لزوال الطرفين أولاً، كمقدمة لإعادة خلقهما من جديد؟

أغلبكم يحْذر، في كثير من الأحيان، الدين، يتخلّص، قدر ما استطاع، من شراك الخوض في أيٍّ حوار يقود إلى النسيج الأخلاقي الديني تحاشياً لأزمة الوقوع في ألّا يكون منصفاً. ولكن ما عساني أن أقول لأولئك الذين مرّوا على دائرة عبثية من علومٍ أقل ما يمكن وصفها به هو أنّها باطلة، آلتْ بردائهم الكهنوتي إلىَ الفشل؟ لقد حوّلوا الكهنوت إلى خدمة رخيصة همّها التكسب. ولذا أقول لعائلة متراصّة أخلاقها مكفولة حرية ضروب المعرفة تحت سقفها، على اختلاف صورها، أكرم وأكبر من الكهنوت برمته. إنها ملاذ الدين، الذي يكرّس قوته وقدسيته وصلته بالروح. وهي الكهنوت الأول من نوعه في العالم القديم، الطفولي المقدّس، وستكون الأخيرة، والوحيدة، التي لا خيار في ضرورة وجودها. ما الذي يمكن أن يضيفه لنا تعليم ميكانيكي مبرمج، إذا ما فُرّغت العائلة من دورها في بناء مجتمع، لا ينأى عن الدين قصداً. لقد فشل الجيل القديم في تربية مجتمع، بعيد عن أساليب القمع والاذلال، التي كانت تتخذ كإطار للتربية، والتي خلقت بدورها شرخاً في الشخصية الاجتماعية. وهي،



أعني تلك الأنماط المشوهة من التربية، تشكل في ظني سبباً مباشراً في تعثّر فهم المجتمع لجوهر الدين، ولفضاء الحرية الذي يمنحه الوجود، إذا ما كان الدين مفتاحاً لفهمه. لعلّي لا أجافي الصواب إذا قلت: إنَّ أكبر عقبات الدين وتحدياته، هي خوفنا من تحرير أنفسنا من ذلك العبد القابع فينا.

دعونا نحرّر القوة الكامنة فينا مما فرضناه عليها من قيود وعوائق غريبة عليها، أن نعري خرافة العالم المادّي من كلّ ما ألصق به من أوهام. لم لا نترك للروح فرصة أن تجوب صروح الرب، الذي لا تحول بينه وبين إرادته إرادة. تلك هي اللحظة التي يصح أن نسمّي الإنسان فيها حراً منذ الولادة، وهي في الوقت ذاته لحظة بزوغ فجر جديد على الحياة، تكون فيه أكثر عملية وهدوءاً، إنّها لحظة رسوخ المحبة وشيوع السلام. ولكنها لحظة لا يدركها سيئوا الحظ، لقد أفقروا أنفسهم عنوة إذ أزالوا عنها بريق الفطرة مستبدلين إياها بأخرى لا بيرق لها، مجرّد قوة عضلية لا نفع لها. لعلّ اللقاء بهم يقود لفتح عيونهم ولو لدقائق قليلة عابرة، تمنحهم قيمة أخرى للتواصل وتجدد نظرتهم للوجود. وإذا حلّ الزمن السعيد، حيث يمكن لكلّ إنسان أن يمارس حريته ويقول رأيه بلا خوف أو تردد، فسيكون إيذاناً لتلك الصحوة الأولى. صحوة الشباب الفتي، لأن يكون شريكاً في الحياة الدينية، بما له من قدرة وأقدام، ترعاه ولا شك حكمة الآباء، ومعرفتهم لسبل الدين. آباء لا تكفيهم مكافأة أبنائهم بإدخالهم أطر حياة أخف وطأة وعالماً أكثر سهولة وسعادة، وإنّما دعوتهم مباشرة للاجتماع بالمقدّس مع أولئك المصلّين للأبدية. وهو جمع تسوده الروح المقدّسة، وإن كان عدد قليل جداً ممن تجمعوا فيه، جاؤوا باسم الإله.

لا ينبغي لي أن أخفي عليكم، من جانب آخر، ما قد تستقبلونه



بالإعجاب والاحترام، وهو أن الكهنوتية باتت في جوهرها أكاديمية من الكهنة. أكاديمية يقع الدين فيها موقع القلب، الذي لا ينبض إلا بطاقة الفنون والمعارف، تلك التي يحملها روّاد هذه الأكاديمية. حيث يسود التنافس النبيل، ويعم شعور ظاهر بأن الكل ينتمي لهذا الضياء المقدّس، الذي يربط الجميع كما يليق بهم كفنانين أو موهوبين. أمّا محرّك هذا التجمّع فهو الرغبة في تقديم شيء يستحق الوجود، فضاء يقدّم للمرء فرصة الاغتذاء على الروح المقدس، روح تدنو ثمارها من القلب العاشق لسحر الكون، والفكر المتقد باستيعاب وتأمل بهاء اللحظة المزدان بإبداع الخالق. والكهنة داخلِ هذا الإطار يبدون كما لو أنّهم جوقة موسيقية من أصدقاء يعرف كلٌّ منهم أنّه جزء من صنيعة هذا الكون، وأن عمله في الحياة لهو في جوهره كشف عن بعده وموقعه في رسالة الإله. إنّه ضرب من العلاقة مع الوجود تشيّده رهبة الالتحام بمقومات الإنسانية، والانفتاح على كلّ جزئية منها. لماذا يجب أن نخفي شيئاً من الإنسان، وكلُّ ما فيه مقدّس لأنّه ينبضُ بروحٍ إلهي؟

كمجموعة من الإخوة، يعيش الكهنة الحياة مع بعضهم البعض، وربما يغيب عني الآن وصف أو تعبير أكثر حميمية من كلمة أخ وما تتضمّنه من دمج تام وطبيعي، ليس على مستوى الكينونة والاستعداد، وإنما على مستوى المعنى والفهم. وكلّما اقترب أحدهم من رؤية محله في منظومة الوجود، ازداد التحامه بالآخر. لا أحد منهم يعي ذاته الدينية في الوجود على أساس انفصالها عن الآخر، ولذا فإنّ كلَّ واحد منهم ليس الإنسان وحده، وإنما الإنسانية جمعاء، بما تمنحه من حرّية ومحبّة وخلود.



هل سبق لكم أن عرفتم أو وجدتم شيئاً بكل هذا السمو في أيّ مجال من مجالات الحياة البشرية أو في مدرسة أخرى من مدارس الحكمة؟ قولوا لي لو تكرّمتم: لأنني من جهتي قدّمت لكم ما أرى.



الخطاب الخامس

حول الأديان




مكتبة
الفكر الجديد

إنَّ على الإنسان أن يكون ذا بصيرة شاملة للكون ترتكز على الاحترام الذي تشوبه الرهبة إزاء كل مظاهر حياته داخل الوجود؛ أما ألَّا يكون بمقدوره إدراك هذا المرتكز فذلك موقف لا يعني بالضرورة جفاف حدسه أو عدم تضمّنه للقدرة على الشعور بتلك الكلّية. لطالما بدا من السهل عليكم احتقار أولئك الذين عمّروا وجودهم وملأوا عقولهم بأشياء وقضايا بسيطة أو سطحيّة بالنسبة إليكم؛ ولكنَّكم ستحاولون عبثاً الاقتراب من جوهر تلك الصغائر التي شغفت القلب ونجح في أن يمتصَّ رحيقها، ليجعل منها أكبر ما يغتذي عليه من مناهل. لا أراني بعيداً عن الصواب إذا ما زعمتُ أنَّ مشاعر الحب أو الكراهية، هي ما يربطكم بكلّ من يقصر نشاطه على تشكيل وعي مغايرٍ لوعيكم، أو ذلك الذي يلتقي مع ما تذهبون إليه من مسارات. ولكن الشعور الأفضل والأشد اقتراباً من الفطرة الإنسانية هو ذلك القائم على المساواة، وهو ما لستم بقادرين على الإمساك به.

إذا ما كانت الفكرة التي سبق وأن قدّمتها لكم من داخل الدين، قد نجحتْ في أن تنتزع منكم قيمة احترام الدين، تلك التي غيبتموها وفقاً لمفاهيم مزاجية، فهذا مما لا يمكننا معرفته الآن، لأنَّكم بقيتم



تتمهّلون، إن لم أقل تتكاسلون في فهم الأمور التي وصفتموها بالعشوائية، وكثيراً ما أسأتم فهمها وحرمتم أنفسكم من لذة ادراكها. وإذا ما كانت أفكاري حول علاقة هذا الهاجس الروحي الساكن فينا بالطبيعة وبامتيازها الإلهي قد شجعتكم لتأمل حميميَّة كياننا الإنساني وما يؤول إليه، فتلك أيضاً مما لا أستطيع تأكيدها.

أما الآن، فلي معكم مهمة مختلفة، لأقل إنّها شكل لمقاومة جديدة، تتعاطى مع المقدس وتحدثكم عنه بوصفه ذلك الضياء المنبعث من الرب، وقد جسّم حضوره فصار جسداً. أريد أن أظهر لكم الدين بعيداً عن تلك الصورة المتداولة، التي أثبتت في كثير من الأحيان كونها سطحية واهية. لأنها لا تحاول اكتشاف الدين من داخل نظم مسيرة الأديان، ولذا لم تتجل لكم ملامح ذلك الجمال السماوي، على الرغم من كونه ما انفك يكرّر نفسه بمظاهر شتى.

لو ألقينا نظرة على الحالة الراهنة ومسيرة الوعي الديني في الوقت الحاضر، حيث تلتقي مواقف الكنائس والأديان في أكثر من مكان تقريباً، فسيتجلّى لنا أن الدين قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بإفرازات الكنيسة، وهو شأن لا نقرّه ولا نشجعه. الكنيسة، أينما تربى الكثير من العقائد والمذاهب والطوائف على اختلاف صبغاتها، ليست بمكان مأمون على الدين. وهذا يمكن أن يقودنا لسهولة الاعتقاد بكون تعدد الكنائس لا يعبِّر بالضرورة عن تجذّر الدين وعمقه في الوجدان العام بقدر تعبيره عن تعدد الطوائف والمعتقدات، هذا هو رأيي أقوله وآمل ألّا يساء فهمه تماماً. لقد سبق لي أن أدنت تعدّد الكنائس: ولكن تحديداً في ما يتصل بطبيعة الوعي بالدين، بوصفه كلاً متكاملاً تضيع داخل نسيجه الخطوط الفاصلة، وتختفي جميع المحدّدات والعقائد،



ليس العقل وحسب وإنّما كل الأفكار التي تدور في فلك الدين لا بد من أن تكون ذات طبيعة شاملة، وينبغي لها أن تغطي وحدة متكاملة غير مجزأة. ولذا فأنا أتأمل موضوعة تعدد الأديان، بصرف النظر عن الفروق الواضحة بينها كأمرٍ ضروري وحتمي على آن. ثمّ لماذا توجّب على ما سمّي تجاوزا «الكنيسة»، أن تكون بمظهر خارجي واحدة، أو أن تكون واحدة من الداخل؟ أليس من الضروري على المرء أن يبقى على علم بأن الدين رباط واسع ومرن لا شكل نهائياً له؟ أليس من المغني أن يتلمّس كل منا طبائع وأنماط التديّن في جهات أخرى لم يعهدها؟ وهكذا يمكن للجميع أن يرى أن لجرثومة الدين أصلاً لا قرارة لعمقه الكامن فينا، وأن لكلٍّ منا قدرة التناغم مع الشكل الذي يغفو في كيانه ويرى أنه قادر في أي وقت على ايقاظه وإخصابها والتجانس معه كأصدق صور الوجود.

إذا أدركنا الدين تأسيساً على ما يلتف بين طيّاته من تدرج في المعنى وفي طبقات الفهم فإنَّه، أي الدين، سيتجاوز حدود مدركاتنا في مضمونه ودلالته، سيتخطّى كونه رداءً فكرياً ذا حجم معيّن يلف بين طيّاته أناساً عليهم أن يصطبغوا بصبغة ما. الدين هو الإنسان وخالقه صنوان متقابلان. وبهذا التأمّل لظاهرة الدين نكون قد نأينا به عن منطقة الإساءة والاستهجان، وخصوصاً في ازدرائكم له إذ وصفتموه بالفكرة المكملة، التي لا ضير في التخلي عنها أو الاستغناء عمَّ يتمخّض عنها. ولعله من السهل على الكثير منّا أنْ ينظر للدين بوصفه أفقاً عسير الادراك تماماً، بالنظر لمحدودية الأفق الفكري ولا نهائية آفاق الدين، إذ لا يقبل بطبيعته المحددات. ولا أظن أن أمراً كهذا غريب عليكم، لأن الفهم الجزئي هو من مسلّمات الفهم،



ولا سيما في الظواهر الأكثر اختلافاً عن بعضها البعض. تذكّروا فقط الطبقات المتعدّدة لفهم الدين، والتي سبق أن أشرت لكم إليها، وكيف أن منها ما ينظر للدين كنظام للكون، وهو رأي لا ينسجم مع الرأي الذاهب لكون الدين عنصراً مناقضاً في محتواه الإيماني لذلك النظام.

من غير الخافي عليّ وسواي هيامكم بفكرة التنوع وخصوصاً إذا ما بدت منسجمة مع الأطروحة الدينية ولكنم لا بد أن تعترفوا بأن هذا التشكيل الخاص والمتنوّع لا يقوم على أساس إلغاء التميّز العالي الذي يحيط بكل مفصل من مفاصل الفكر الديني، فضلاً عن أسلوب وماهية التعاطي مع الدين، كونه لا ينتمي لمرتكزات خارجة عن دائرته، ولعلنا لا نبالغ هنا إذا ما وصفناه بالتفرد الذي لا يشبهه فيه سواه. إن لكونية الدين وسعة جناحيه تمثلات وقدرات تفتح لمن يقترب منها أفقاً أرحب مما تدعي الكنيسة إن لها ما يمنحها حق الإطلالة عليه، إنه أفق حر، كحرية الإنسان الصرفة، ووجوده الحامل له كفرد وكجزء له صبغة الكل ومحتواه.

ألم أقل لكم من قبل أن للدين مبدأه الذي لم يكن تحت متناول فكركم لأنكم كثر ما حاولتم تحجيمه أو اختصاره وتعطيله وكثر ما أردتم اختزاله بتعريفات واصطلاحات بليدة. أظنني أشرت بما لا يحمل الشك إلى أن الدين هو الإنسان بأبهى صوره، ولا أراني موافقاً على حبس ذلك الإنسان داخل سلوك خاص من فهم يفك عرى الإنسان ووثاقه الذي يشده للمطلق.

ثمّة معطيات وظواهر محدّدة ومتاحة للتعرف عليها عبر فعاليات معيّنة تتفشّى بين بعض معتنقي الديانة المسيحية تطلقون عليها اسم الديانة الإيجابية، وهي صفة مكروهة ومبتذلة بامتياز، ولكنكم



وعلى الرغم من اشمئزازكم من الدين على وجه العموم توسعون لها صدوركم، بل وتتكلّمون باحترام عن شيء اسمه الدين الطبيعي. ما الذي تقصدونه بالدين الطبيعي؟

لا جدوى من طروحاتكم هذه، وأتمنى عليكم السماح لأنفسكم بإلقاء نظرة على عقيدتي الداخلية بشكل مباشر، عن طريق اعتراضي الواضح على هذه الافضلية التي وضعتموها جزافاً لما أطلقتم عليه بـ»الدين الطبيعي»، مراعياً كل من بدا مسكوناً بدينه، يثريه ويدّعي تنامي حبه له بنكران سواه - كنوع فج من عدم التناسق بين ما يؤمن به وما يدين به غيره - وذلك لأسباب ستهلّلون لها بكل تأكيد في حال استجابتي للنهوض بها وتطويرها.

أما أنتم أيها الكارهون للدين، فأنا على يقين أن من الطبيعي جداً أن تكونوا بحاجة لمن يفرّق لكم بين الاتجاهين، وأعني هنا ما يختبئ خلف ما يسمى الدِّين الطبيعي: وهو اتجاه مهذّب لغوياً، فهو ولا شك مبني على أساليب وطروحات فلسفية وأخلاقية تكاد تكون مترهّلة لكثرة ما حشر فيها، وهي في جلّها مما يتنافى مع الاتجاه الآخر الذي تكرّسه طبيعة الدين بما له من جوهر فطري لا يقر هذا الترهل ولا يدخل كجزء من نسيجه.

ما تعنون بالدِّين الطبيعي؟ إنكم تحاولون استنبات الدين في أراضٍ وبيئات ليست من جنسه ولا من ديدنه، تريدون له أن يكون (مطواعاً)، أي أن يكون مذعناً لما توثقونه إليه بمعنى أن يحجم عن إشراقه وتأثيره على اللحظة الراهنة. ولم كل هذا؟ أليس من الحريّ بكم أن تفهموا الدين بعيداً عن جرّه إلى ساحات مصطَنَعة لا يتعايش معها، ولا كوّة فيها لتنفّس الإيمان؟



هلّا التفتم لما يمتلكه الدين من وعي إيجابي بالكون ولتنامي دور الإنسان فيه، إنه، وما زلت أعني الدين هنا، ميراث إنساني ثر يجذبنا إليه بقوة ليمنحنا فراسة التقاط جمال اللحظة، وضوح معناها، وسرها الكامن. يا لعجبي من أولئك الذين لا يشعرون بما يحركه الدين في دواخلنا، وبما يسبغه على إدراكنا للوجود من طبائع لا تدع مجالاً للشك بأنه المحرك الأهم لأحاسيسنا وتصوراتنا وشعورنا بقيمة الكون. إذا كان السبب الرئيس لنفوركم من الدين رابضاً وراء ذلك السور الذي ضربتموه حول فكركم ومشاعركم، وتمترستم خلفه بتصورات لا يروق لكم اختبارها، فإنه من الحري بي ألّا أدخل معكم في أيّ نقاش عن الدين، ومن الأجدى لكم أن تظلّوا على ما أنتم عليه، لأنكم وبكل بساطة أحرار في كونكم لا ترغبون في تحرير أنفسكم من سطوة تلك الجدران. أما إذا كان حكمكم على الدين أقل تشدداً، بمعنى أنكم تُقبلون لتأسيس فكر مميز ونبيل نابع من جوهر الدين وماهيته، فإنّكم بهذا تختارون طريقاً تؤصّلون فيها للرغبة العملية والحقيقية التي تدعو لتطوير النظام التعليمي برمته. وطبقاً لتلك الرغبة لا يكون هناك أي داعٍ لنبذ ما يمكن أن يتجلّى داخل هذه النظم من صورة محدودة أو غيرِ مكتملة للدين بالمفهوم الذي أشرت له من قبل.

باعتقادي أن عليكم أن تعطوا الدين قدراً كافياً من التأمل والتدبر الأصيل، وهو حري بذلك، وأنا لا أشك في كونكم ستضعون أيديكم على جرثومة التميز والاختلاف فيه، وكيف أنه بريء مما يُجر إليه من معارك وخصومات زائفة. ولعلّي لا أبالغ بثقتي فيكم إذا ما قلت إنكم عبر هذا التأمل الصادق ستتراجعون عن كل الاتهامات والبنى الفكرية الصارمة التي أنشأتموها للدين وعن الدين. وستعيدون النظر



بما فرشتموه من بساط فلسفي أطلقتم عليه يوماً ما (الدين الإيجابي) بحسب ما ترون أنه الإطار الذي عَلى الدين أن يقع داخله، وإلا فهو دين (سلبي). ستعثرون على السبب الحقيقي الذي دعاكم لكيل الاتهامات للدين، في ذواتكم وليس ببعيد عنها. إذ لا بد من أن يوجد سبب خاص بكم ما انفك يحرضكم للتحامل على الدين، جربوا أن تغيروا الفهم السابق على التجربة الدينية، سيذكرني كلّ منكم حين يتلمّس بيقين أن الحب الحقيقي كامن في الذات وليس في ما ينفصل عنها. والدين لعمري هو الأقرب للذات الإنسانية الواعية بتميّزها على سواها. وستنبذون على آن ما كُنتُم عليه من امتلاء مفرط، وأنا أعنيكم هنا كلكم من دون تمييز أو اختلاف، وأعني ذلك الامتلاء بالمنهج الفلسفي الصارم إزاء الدين، والذي أحاله إلى بنية عنيفة، وهي بحسب فهمي مما لا ينتمي للدين ولا يدور ولو بما تيسر منه في فلك الدين.

لتمنحوا أنفسكم الفرصة، ولا أشك في أنكم ستعرفون بأن كل واحد منكم يشعر كما لو أنه الوحيد المقرب من موقد الدين، من ضيائه وشواظه، من ذلك الدفء، الذي يوقد في الأشياء طاقة لا بديل لها ولا نضير. ستدركون اختلافكم في توحّدكم داخل ذلك المختلف فيكم. نعم إنه الدين بطبيعته وأسسه، بعموميته وخصوصيته، التي يعلن عنها على اختلاف المفاهيم والرؤى. أعلم أنه تباين آل وسيؤول إلى شيء من الصراع، ولكنه صراع ما كان ولم يكن الدين مصدره أو ملهمه، لأنه صراع مخالف للطبيعة السلمية المتأصّلة في الدين، ولسماته النابذة للعنف ولإرادة أن يُطلب منك ما لا تستطيعه. لا مكان في الدين لما لا يليق بك كإنسان، وهل يليق بك أن تلجأ للسلاح، أو أن تعتقل الإنسانية بكلماتك ومواقفك مدعياً انتماءها للدين؟



ستردون بأنكم - كما لو كنتم تحترمون الدين وتعترفون بأنه شيء ذو أهمية - ملزمون بتتبع ما ينصب تحت أولوياتكم وأنكم أحرار في طلبكم لضروب العلم والمعرفة في ما ترونه ضرورياً من موارد واتجاهات.

وعلى هذا الأساس لا تجدون أي غضاضة في كراهية أشكال معينة من مشارب الدين أو مما يمت لها بصلة، وخصوصاً الفطرية منها، تلك التي ينزع إليها المؤمنون متيقنين من جدوى تمسّكهم بعراها، بوصفها الوحيدة المؤهلة لأن تستنبت في ذواتهم حرية بلا حواجز أو قيود مفتعلة. أنتم تصرون على تكريس مبدأ الدين الطبيعي، المنتمي لأسلوب فهمكم للطبيعة، وتفضيله على الدين الإيجابي، وهو موقف أشهد بأني لست بمنكر له على الإطلاق، لأني اتفهم ركائز كراهيتكم للدين، ولأني أعرف ما يدور في خلدكم إذا ما تناهت إلى أسماعكم مفردة متدين.

كلما كان الدين أكثر التصاقاً بالألوهية، ثقلت رغبتي في الدعوة للتخلص من عفن حشره داخل قوالب من اعتقادات ستفقده كل ما له من زينه وستبدلها بظهور وحشي لا يترك للمتلقّي أية فرصة للانجذاب إليه أو الإعجاب به. لكم أنا متشوّق لكل صوت يدعو لفتح أفق النظر، والإمعان في حال هؤلاء الذين أخرجوا الدين من شعاب القلب ليقحموه زاوية ضاقت به وضاق بها، لقد جعلوا منه مادة برجوازية لا تتسع إلا لنظرة أحادية ذات مغزى مادي أو سلطوي لا يرقى في أحسن أحواله لأبسط تعريفات الدين.

اعترفوا بأن هناك الكثير مما لا يمكن تفاديه من سوء الفهم السلبي عندما يلبس اللانهائي ثوباً ضيقاً عليه، لأنه سيحدّ منه ويجعل منه شيئاً عابراً مثيراً للسخرية وغير جدير بالعناية.



ثمة عفن فكري راكد، عميق ومتجذّر لدى البعض منكم للدرجة التي بات فيها فهم الدين لديه، بما هو حقّه، أمراً مستعصياً وغير قابل للتحقق، على الرغم من سريان النفحة الدينية وتجذّرها العميق في مظاهر وجوده الطبيعي. الدين هو المبرهن لأثر الألوهية الحقيقي والأبدي الكامن فينا وفي جوهر الأشياء مهما بدت عادية ولا تثير الانتباه بالنسبة إلينا. أنا لا أفهم هذا الإصرار الوقح على إنكار الدين وموقعه، إصرار أقل ما يمكن أن يوصف به أنه في كثير من مواضعه مبني على الجهل بموقع الدين من الحياة. لمصلحة منْ تستمرئون هذا التعتيم الأعمى على صبغة الدين ودوره في صوغ الحاضر وصقل المستقبل؟

لقد محقتم ضياء الدين في الحياة، ذلك السراج الإلهي المحيط بالزمن، أنا أدعوكم أن تتأملوا ما يؤمن به الناس، وأن تكفّوا عن تحميل الدين مقولات وصيغ فارغة ليست من نسيجه. ليس في الدين مكان لتلك الشفرات والنظم الفلسفية، ولم يكن يوماً بحاجة لها، وإن بدا في نزره اليسير متوافقاً معها. تفحصوا الدين من داخله سترونه كيف ينأى عن خبث العقائد المندسة في جسده والمغروسة في لحمه ظلماً كما انغرس حديد صدئ في جسد المسيح.

إنني أعظكم لقراءة الدين بعيداً عن وعاء المحدودية الفانية كي لا تتخبطوا تحت غطاء عشوائي لا يفضي بكم إلا لفوضى متاهة أبدية. ولكنني أشعر أحياناً بأن عليَّ الاحجام عن قيادتكم في طرق كهذه إذا ما تعسّر عليكم فهم المقصد والهدف.

والآن بماذا يختلف عنكم من ينظر للدين من زاوية مغايرة لوجهة نظركم؟ هل من صلة تجاذب أو تماسك بين أجزاء هذين الوعيين



المختلفين؟ بالنسبة إليّ لا أجد فرقاً كبيراً بين الاتجاهين إلا على مستوى التعامل والمعالجة الفردية للمادة التاريخية التي يجرها الدين وراءه، وهي إرث ثقيل ومتراكم من التبعية لمواقف ليست ذات صلة مباشرة بالدين، أو لنقل إنها في أحسن الأحوال ذات صلة قشرية بالدِّين كتجربة إنسانية حيوية. وأرجو ألا يستقبل قولي هذا أحد منكم بإيحاء، كما لو أنني أبحث عن شكل معيّن للدين لا وجود له خارج ذهني، لأن الأمر ليس كما تظنون. أنا لا أنكر هنا أنَّ الكثير من تاريخ الدين فيه من الدين ما لا يقبل الشك، ولكن تاريخ الدين لا يعني الدين وهو ليس المشغل المناسب لتحديد موجهات فهم الدين أو تعريفه.
إنَّ أهم أسس فساد فهم الدين في ظني كامنة في مطالبة الدين بالإجابة عن تساؤلات سياسية لا علاقة له بها أو تحميله مسؤوليات غريبة على روحه التي هي روح الفرد بكامل فرديته. ثمّ منهجة الدين وقولبته ضمن أُطر التصقت به، إما جزافاً وإما لأغراض دنيوية باهتة. ثمة من لا يمكن له أن يتصوّر فهم الدين من دون جملة من اللوائح التي يحدّد له بموجبها جملة من المهمات والانتماءات للمكان والزمان والطائفة والجهة والاعتبار والمنهج العقائدي وسوى ذلك مما يجعل من الدين إشكالية لا يفضّل العاقل الاحتكاك بها ولو من بعيد. إنّ أشد الصور غرابة على الدين هي الصورة الطائفية أو العقائدية التي يزعم أصحابها أنها من طبائع الدين. ليس من شك في أنه من الصعوبة بمكان تحديد لُبِّ الدين وطبيعته إذا تم تجريده الى الدرجة التي تخرجه من أصول كونه تجربة إنسانية في تطوّر دائم، وإن كنت أعلم هنا أن إقران الدين بصفة التطوّر سيغضب الكثير مني، ولكني أقول لهم ما لكم لا تفكرون بما لقسر الدين على الفهم الثابت أو المتحجّر، من تأثير سلبي على حرية الأفراد في اختيار تجاربهم الدينية، وفي تشكيل



الرؤى والمشاعر الدينية التي تشدّهم لما يدينون به. الدين في النهاية مشاعر فردية، بصرف النظر عن كميّتها ومدى فاعليتها في الجماعة أو يوميات المجتمع، التي يحرص البعض على حصر الدين داخل إطارها، وكأنه يضع عبرها اشتراطات على صورة الانتماء للدين. ليس من المجدي لي ولا هو من صلب اهتمامي الانشغال ببحث درجة التديّن، لمصلحة منْ عليَّ الاهتمام بمعرفة الى أي درجة يكون المرء متديناً، الأجدى والأهم هو النظر في ذلك الشعور بالارتباط بمدارات الدين الإنسانية وعدم الانغلاق إزاء ما يفيض عن هذا المدار دوناً عن سواه من مشاعر لا غنى للإنسان عنها.

ما أجمل أن تتعرفوا على الدين من دون الحاجة لاستفتاء العقل ومدونة الفلسفة، أن تتلمّسوا مدى ارتباطه بالأفق الإنساني، لتضعوا له مقياساً مناسباً. ثمّ أن تقتربوا من محتوى الدين كسلوك وليس من تاريخ الأديان، جرّبوا ذلك بناءً على فكر صلب يميز بين العمق والسطح، بين الجوهري والمستعار، بين المقدّس والدنيوي، ولا يترك وعيه منجراً لإغراء المصطلحات والمفاهيم المجرّدة. ولكم أن تنسوا في البداية كل فهم سابق للأديان، كيما يتسنّى لكم الشروع من تلك العلاقة الفطرية التي تنبع من داخل الأنا الفردية لتتجلّى وتجد طريقها بشكل طبيعي لذلك المقدّس، الذي هو ليس بخارج عنها، فهو كامن في داخلها ولا يحتاج إلا لمن يضع يده عليه ليكتشف، لنفسه وليس لسواه، لُبَّ الدين وجماليات صياغته. حاولوا، لأنَّ الدين هو المحاولة، وهي كفيلة بأن تقدّم لكم مقداراً وافياً من التعرف على أبدية الدين، صورته غير المفتقرة للوجود بذاتها، من دون الحاجة لأن يضاف إليها شيءٌ من خارجها. والدين بهذا المعنى فكرة ملموسة



تكرّسها التجربة الفعلية غير العارية من الحاجة للتجدّد، ولذا فهو لا يخبّئ تحت معطفه، من دون الحاجة لمعرفة لون هذا المعطف أو حجمه، أيَّ شكل من أشكال تقييد حريات الأفراد.

إن السؤال الذي يفرض وجوده الآن هو لماذا افتراض الدين كما لو أنه لا يمكن أن يعبر عن نفسه إلا بصفة اشتراطية تقضي باتباع عقائد محدودة من أشكال وبنى معينة؟ إن ما يهمني هو تكريس فهم الدين بوصفه حاجة وجودية تحمل الدعوة للنظر إلى الأبدية، وكل رؤيا للأبدية توجد مستقلة ومعتمدة على ذاتها، وهي ليست بحاجة لسواها لإكمالها، لأنها جزء من سواها وكله على آن. ومن هنا فإن نسق وزاوية النظر للأبدية يوجب بطبيعته اجتراح علاقة معينة مع انساق وزوايا لرؤى أخرى، ولذلك لا يمكن للدين أن يحقّق لوجوده حضوراً غنياً بذاته إلا عبر كونه معترفاً بالأديان الأخرى، مقراً لعلاقته معها. أما أن يفهم الدين كمؤسسة منفصلة عن نظام الأديان برمته فإن في هذا الفهم شيء من المغامرة السلبية التي تضيع على صاحبها تلك العلاقة الحقيقية الكاملة مع الأبدية.

ومن صفات الدين الذي أحدّثكم فيه هو عدم حاجته لوجود رابط داخلي معين كوسيط يشغل المسافة بين الرؤية الفردية للوجود والوجود ككل متكامل. لا حاجة بنا للوسائط لأنَّ الروابط الداخلية موجودة في ذواتنا، وأن كلاً منها يقودنا لسواه عبر عشوائية لا يمكن أن نفرض عليها صفة منهجية ونظامية من خارجها، أو أن نقسرها على قبول أنساق صارمة، بعبارة أدق عقائد غريبة عن الدين. إنَّ التركيبة الدينية للطبيعة البشرية هي في جوهرها عشوائية وفردية بامتياز، وإن كانت خاضعة بشكل أو بآخر لأساليب صوغ الإنسان لها على اختلاف مراحل الحياة



والمحطّات التاريخية، ولكن ذلك لا يلغي أو يمس الجذر الأصيل للمكون الديني والذي هو، كما أرى، تجربة عشوائية بحتة. تجربة قد تختفي عند البعض، ولكنها حين تتكشّف للمرء فإنه يتلمّس فيها بساطة ووضوحاً يجعله يسخر ممن أثقلها بكم هائل من اصطلاحات ومفاهيم عكّرت صفوها ووضوحها، وأفقدتها أهم ما يميزها من سلاسة وقدرة على التجدّد والحراك، ومن ثمّ الإصلاح والتحول. الدين تجربة فريدة من نوعها لا تدركها النفس بالعقل، وإنما بالإيمان، ذلك الشعور المبثوث في الروح، والذي لا حاجة للمرء فيه لمشاورة الفكر والفلسفة. لا يمكن لكم الاقتراب من ضياء هذا الإيمان واستشعار لذة حرارته بالمصادفة، ومن غير المعقول أن يظل المرء قابعاً تحت مجموعة من مقولات، ظنَّ يوماً أنَّها ستسير به للنجاة ولإدراك حقيقة وجوده. إن في الكثير من الأحكام التي أصدرتم على الدين عنجهية وتكبّر كريه، فضلاً عن تعميم لا يدرك جل أصحابه جدلية العلاقة بين الدين كنسيج للروح في معترك الوجود وما ليس منه بشيء.

لا يجب عليكم خلط الدين بظواهر أخرى ولدت معزولة عن وجود الإنسان. وهنا لا يساورني شك في كون إغفال التجربة الدينية وتحييدها عن الميدان الحياتي المعيش ضرب من التجنّي، وموقف محارب لا ينبغي لكم الدفاع عنه وإنما معاداته.

منكم من يساعد على تكريس وعي بشذوذ الظاهرة الدينية لأنه ربما لا يدرك أين يقف منها وماذا يفعل بها. الأَولى بمن هم على هذه الشاكلة العودة إلى عمق الفطرة الإنسانية وبعدها المتجذّر فينا، لأنه سيقودهم حتماً لطريق مخالفة لما قادهم إليه مدرك العقل المحض، إذ قمع رد الفعل الفطري ازاء سؤال الوجود.



لا أجد ضيراً الآن من أن أقول لكم إن من يرسم الدين كصورة ممنهجة محكومة بشد وثاق المشاعر والحدس، التي تحرك الإنسان باتجاه اشتراطات وجوده، لثوابت تنتهك حريتها الأصلية، لا يختلف بالنسبة إلي قيمياً وموضوعياً عمن يغتصب روح الدين إذ يضعها داخل سياق طائفي. الدين بعيد عمَّ تجترحه الطوائف وَعمَّ تستحوذ عليه من فكرة تصور الدين وتصوغه كما يحلو لها، لا يصح الدين إذا ما ارتبط بشباك الطائفية وإن كانت الأخيرة تصوره بطريقة تبدو كما لو أنه منها ولا يتطلع إلا لها. كل ما في الطائفية مشيّد على مبدأ جماعي غير منضبط، وعلى مضامين عقائدية تكتسي أردية لمدونات تاريخية إشكالية، لا تقوى على حجب ما يعتري الفكر الطائفي من ضعف ووهن في الانتماء للمشاعر الإنسانية بكليتها المتعالية.

لا أظن أنني أبالغ إذا ما ادعيت أنكم وعلى الرغم من ازدرائكم للدين ما زلتم تحتفظون بمقدار معيّن من الموضوعية التي تقتضي تشخيص حضور الدين في الهوية الفردية للإنسان. ولكنكم تحبّون استذكار ما تقدّمه الفرشة التاريخية للدين على اختلاف تضاريسها، متناسين، ربما عمداً، أنَّها سر عطالته وابتعاده عن عصر ذهبي، قد يحكي تمكنه من بلوغ حضوره وشبابه وقوته الخيرة الكامنة فيه، والتي ستفيض بنضارتها وضيائها على الناس. وهنا تكون للدين فاعليته في الذات الإنسانية، فاعلية مؤكدة بعيدة عن التعقيد والغموض، ومن السهل التعرف عليها في الحياة. إن تجريدكم للدين نأى به بعيداً عن صبغته وأخرجه عن إطاره الوجداني، ليقحمه، وبحركة مضادة، لجة لا قدرة له للتناغم معها ولا هو بمنتمٍ إليها، لأنها فلسفات لا تشترك والتجربة الدينية بطبيعتها البشرية.



ومن الضروري أن أقول لكم هنا أن المبدأ الخاطئ الذي تبنون عليه فهمكم للدين وتزدرون الدين على أساسه، أصبح بالنسبة لكم شيئاً من العقائد التي جعلتموها تنمو في كل اتجاه، وفي الوقت ذاته تنتقدونها وتحتقرونها في اتجاهات أخرى، وهو مبدأ لا يتّسق ونسيج الدين. إنني استغرب هذه الكراهية المطلقة للدين، والتي تبدون لي فيها متناقضين، كيف لا وأنتم تشنّون حرباً دائمة على أهم ركيزة من ركائز التكوين العاطفي والشعوري الذي يكون الرؤى الفردية للإنسان، تلك الرؤى الوجدانية والاختلافات الفردية النابعة منها، والتي أثارت فضولكم ولفتت أنظاركم في موضوعات أخرى.

لا مقياس لدي لوعي الفرد بالدين، وهل عليَّ أن أقدّم لكم شكلاً تقيسون عليه؟ الفرد لدي هو الوجود المطلق غير القابل للقياس، ولا بد لي هنا من أن ألفت انتباهكم إلى أن الفردية مشتملة في مضمونها على صفة التعدد التي أشرت إليها من قبل، وآثرت الألماح لها أينما وجدت لها فضاء مناسباً. تلك الرؤى النابعة من الحدس والفطرة بوصفهما حجر أساس فهم الكون كفوضى وكنظام ذي تعددية جذرية، يمكن للأديان أن تقترب منها، ويمكنها في الوقت ذاته أن تبتعد عنها كل البعد، إذا ما شطّت عن ذلك اللب الجوهري الكامن في كيان الفرد، وانتمائه لذاته. ربما تساءل أحدكم لماذا لا أميل هنا لاستعمال مصطلحات ومفردات من قاموسكم الذي تحبّذون؟ الجواب سهل جداً، وهو لأني لا أرغب في إقحام الدين في متاهة المفاهيم، حيث تقع ضمن أصناف وتفرعات دلالية لا تقل إشكالية عن سابقتها، ولا تقود بدورها إلا لهاوية السقوط في معانٍ لا قاع لها. ما الضير في أن أقول لكم وببساطة، إن الدين نفحة كامنة في كيان الإنسان، لا شأن لها



بكل تلك المصنفات التي تدّعي شرحها، إنه طبيعة الكائن البشري، قبل أن يسعى لمحقها أو يدخل عليها ما يشوّهها. إنَّ طبيعة الكائن البشري دينية في وجودها وفي مطامحها، فلم الالتفاف على هذه الطبيعة البشرية، ولم الإصرار على تسخير العقل لتجريد الدين عن صفته الأعمق، تلك التي ليس بمتناول اللغة الاصطلاحية الفلسفية أن تغطيها؟ ذلك البون الشاسع بين الدين وبين ما تفكرون به وتعتقدون أنه متأصل في الدين، هو ما أعاق الطريق وعرقله للوصل الى الطبيعة المميزة للدين. هناك علاقة مستمرة بين الإنسان والدين لا جدوى من البقاء بعيداً عنها أو التقاعس عن الامساك بها، لأنها مطلوبة بعينها، تماماً مثل الحاجة الى الوجود، أو إيجاد السبيل للتبلور فيه.

إنكم تنظرون للتعددية في الأديان، أو فهم العلاقة مع الأديان كمظهر من المظاهر المخادعة، التي تكشف عن خدعة الدين، وهي لعمري فرية لا يمكن قبوله، لأنكم تتجاهلون هنا كمون الله في خلقه، وتقفزون على حقيقة كونه، أي الخالق، جوهراً لكل المخلوقات، التي تكشف أنّه وخلقه لا يتجزآن ولا يقبلان الفصل.

لا بد لكم من أن تعترفوا بأن ليس بإمكانكم فهم الدين إذا لم يكن لديكم يقين بصفته الحتمية، صنو الوجود.

مدعاة علاقة الإنسان بالتجربة الدينية هو الوعي بالحاجة الوجودية إليها، تلك مسلّمة تتجاهلونها بتبنّيكم نظرة أحادية للوجود تحاول تفسير الظواهر من منطلقات لا يمكن لها أن تحتوي الضرورة الوجودية للدين. إن لكم رؤية وحيدة للكون وظواهره لا تستوعبه، لأنها محض انطباع محدود وزائل سرعان ما يتلاشى بزوال الدافع الذاتي الذي يدفع بكم إليه، على خلاف الدين، إذ لا دافع له خارج



إطار الوجود. ولذا أؤكد لكم على حتمية ما أشرت له من قبل، وأعني هنا تجلّي الذات الألوهيّة الخالقة في المخلوق وعدم انفصالها عنه لأنها وجوده القبلي المتجلّي بصورته. ولعل أجمل ما في تجلّي تلك الربوبية الخالقة في المخلوق هو استيعاب المخلوق لها ومعرفته بمصدر وجوده الثر الذي يمنحه تلك القدرة على أن يكون جزءاً من الحركة الأبدية للخلق.

يبدو لي ألّا خلاص من حالات التضاد والتناقض في فهم الدين والتعاطي معه، طالما كانت هناك وجهات نظر تصرّ على إخراج الدين من حقل التجربة والدفع به لقبول مفهومات وسياسات لا علاقة له بمبانيها. بالنسبة إلي، لا أجد في نكران الدين أو التقليل من حضوره إلا تشكيكاً بالوجود برمته، والجهل بموقع الإنسان منه، أركّز على الإنسان بوصفه فرداً له وعيه الخاص به، السابق على روح التبلور داخل الوعي الجمعي.

الدين نقطة مركزية لدوران وجودنا، إنه نقطة التلاحم والتماهي بين الفاني والأبدي، وجلّ مكوناته تعبّر عن عمق ارتباط الإنسان بوجود لا تنفصل أجزاؤه عن بعضها، وإن اختلفت الألوان. وهو التجربة الوحيدة المفصحة عن النفاذ إلى الطبيعة البشرية بما هي بعيداً عمَّ يلتصق بها من اعتبارات. هلّا تأمَّلتم فرشة الدين، بهجة ألوانها، وقدرتها على خلق ذلك التوافق والانسجام بين الأنا والروح الإلهي المتعالي. ولا علاقة للدين بمظاهر الاستبداد ومكائد الفلسفة والسياسة، لأنّه يتعدى حدودهما ولا ينتمي لذلك الملتبس الغائم الكامن فيهما، كلاهما شكل عام منفصل عن الذات الإنسانية فيما يملأ الدين أدق ما فيها من مسامات.



يثير عجبي إصراركم على تضييق مساحة الدين بربطه بفلسفات ومبانٍ عقائدية ملتبسة لا أثر له في لغتها، فللدين فرادة حرّة متمرّدة على رغبتكم في أسرها، أنسيتم أن ثمّة مضافات كبرى لا يمكن أن يستوعبها ما كان بعضها.

هلا وعيتم ذلك الالتحام العجيب الذي يقدّمه الدين بين الذات وخالقها، أيعقل ألا تتلمّسوا القوة الكونية القابعة فيه تلك المغيبة للحدود بين البشر. ما كان الدين مراناً عقلياً في حضرة المفاهيم والمصطلحات التي تعدونها له، ولعل الفساد بعينه، الذي سيدفعنا أن نبتهل إلى الرب كي يبعث لنا رسلاً جديدة تنشد لنا الخلاص، هو أن تحجروا على الطبيعة الكونية للدين بتقديمها بذلك العقل الفلسفي المهيمن.

لقد آن الأوان لأن ننظر لعصر إحياء المسيحة نظرة جديدة توقظ فيه جذوة الأمل، وتعيد إليه ثوبه الأقدم بطراز أكثر جمالاً وبهاء. ولكن إذا ما تسنى لنا ذلك، واستطعنا خلق طراز مسيحي على هذه الشاكلة فهل سيعني ذلك أن تكون تلك المسيحية ذات الانتشار الأبدي، هي السمة الوحيدة للدين، أو الصفة الأكثر غلبة وسيطرة على الإنسانية؟

الجواب كلا، لأن أهم ما في الدين هو تعدديته في الفهم وكراهيته للاستبداد، ذلك الذي يجمّد كل ما لا يتفق معه، يحجره ظناً بأنه سيحافظ على وجوده. التعدّد هو جوهر الدين وكنهه، وعبره تتحقّق فكرة الخلاص في المسيحية، ويصبح ما يجثم على صدرها من بؤس قابلاً للزوال. لا يوجد شيء أكثر مناقضة للدين من ذلك المقوّض لقابليته لتعدد أشكال فهمه. ولا فكرة تنسف ما للمسيحية من صرح إنساني وجداني أكثر من تلك التي تضع قالباً واحداً تدعو الإنسانية



جمعاء لأن تجد مكانها فيه أو أن تتوافق معه. لكل دين طرائقه ومداخله السرية التي يزعم أنها لبّه الإنساني المشدود للخالق، ولا يمكن هنا حصر عدد الديانات ولا مديات عمقها أو تجذّرها في الوجود البشري.

لا أبالغ إذا قلت إنّ امتداد الإنسانية وتطورها مرهون بالتطور الحر للدين داخل الوعي الفردي، الفرد هو الدين، ولا شرعية للسياسي أو الفلسفي أن يرسم حدوده للفرد، أو أن يتكلم له، أو أن يفكّر له، الفرد هو البعد الديني السحيق الذي لا قدم لآخر عليه، إنه لا نهائية الدين، ولذا فإن تجاهل الدين هو في نظري تجاهل لفردية الإنسان وقدرته على التجلي بالحياة والاستمرار بذاته.

لا أبالغ إذا قلت إن للدين روحاً عبقرية خلاقة عصية على الاختراق والتقويض حتى من الخالق ذاته، لأنه، أي الدين، مركز ثابت وجوده في الخليقة، مستوعب لروحها ونابض بقيمتها الوجودية التي لا ينبض بها سواه.

على كل حال، لا بد لي أن أقول إن تقادم الزمن سيفضي بالدين إلى صور أخرى وتركيبات جديدة قد تنزل ما يبدو لنا الآن متفرقاً وعابراً، منزلة أهم مما يخطر على بالنا حالياً أو نتخيل. وقد يقفز من حيّز العدم لفضاء الوجود تفسير جديد للدين، يجعله ينمو في شعور من يتلقاه ويرتقي بروحه لفضاء من الرفعة والمجد، ما كان لها أن تبلغه لولا الدين. الدين بذرة لم تزل تبحث عن أرض خصيبة لها، لأنها وفي كل مرة تستنبت فيها تزهر بنبات ذي رونق مختلف عن سلفه، ولذا فإن للدين زهراً لا يهرم ولا يتلاشى شذاه. والدين يكره الوحدة، إنه لا يعيش إلا بوجود آخر سواه، لأنه في شباب دائم يدفع به الشوق لوجودٍ آخر غيره.



ادخلوا الدين إلى نفوسكم، اتركوه يتبرعم فيكم وستتبينوا طعم الحياة الكامنة فيه، وسيتناهى لأسماعكم نغمها الفريد. وعندها لا أشك في أنكم ستكونون من القدّيسين، أولئك الذين تستوعب قلوبهم كل الأديان، وتفيض أروحهم بالإنسانية جمعاء بلا شتات أو تجزئة.

اسألوا اللغة عن الدين واقتربوا من سريتها فيه، أو سريته فيها. حاولوا البحث عن حضوره في تعابير الوجه الصامت وتقاطيع الكلام الوجيز. ابحثوا عنه بلا ضجيج ستجدونه حاضراً لا يتراجع أو يتنازل عن موقعه وإن تعالت عليه الأصوات.

أما المقدّس فسيظل سرّاً كامناً في كلِّ دين، مختبئاً لا ينال منه السطحي المزيّف ولا يقلل من شأنه التكهن الساذج. اتركوا لأرواحكم فرصة الاقتراب من ذلك المقدّس الكامن فيكم، دعوها لا تمنعوها من مناجاة الإله الذي هو أنتم.



المراجع المعتمدة في ترجمة الكتاب:

1 Reden über die Religion. Reden an die Gebildeten unter ihren Verächtern. Friedrich Daniel Schleiermacher. Dritte Ausgabe, Berlin 1821. Zentralbibliothek Zürich.

2 Über die Religion. Reden an die Gebildeten unter ihren Verächtern. Friedrich Daniel Schleiermacher (17991821 /1806 /) Studienausgabe, hg. v. Niklaus Peter, Frank Bestebreurtje und Anna Büsching, Theologischer Verlag Zürich 2012.

Friedrich Daniel Ernst Schleiermacher, Über die Religion. Reden an die Gebildeten unter ihren Verächtern (1799), in: Kritische Gesamtausgabe, I. Abt. Bd. 2: Schriften aus der Berliner Zeit 17691799-, hg. v. Günter Meckenstock, Verlag Walter de Gruyter, Berlin /New York 1984 S. 185.326-



3 Friedrich Schleiermacher und die Frage nach dem Wesen der Religion: ein Vortrag. Wilhelm Bender. Bonn: Eduard Weber's Verlag (Julius Flittner). 1877.



أسامة الشحماني

كاتب وأكاديمي ومترجم عراقي متخصّص في الأدب الحديث. يعيش في سويسرا، ويعمل في كلية الآداب واللسانيات في جامعة كونستانس في ألمانيا، وفي كلية التدريس والعلوم التربوية في سويسرا. حصل على درجة الدبلوم العالي في اللغة الألمانية، في معهد غوته الدولي، فرع سويسرا. عضو اتحاد الأدباء السويسريين، والاتحاد الدولي الألماني للترجمة. له بين الترجمة والتأليف ثمانية كتب مطبوعة، وقد صدر له في سويسرا نهاية العام 2016 كتابه الأوّل باللغة الألمانية.




مكتبة
الفكر الجديد

الفهرس



فريدريك شلايرماخر

عن الدين

لبث كتابُ: «عن الدين: خطابات لمحتقريه من المثقفين» إما مجهولاً أو منسياً أكثر من قرنين لدى الباحثين المهتمين بالفلسفة واللاهوت والدين في دنيا العرب، ولم نعثر على دراسة عنه أو مقالة تنوّه به، وتعرّف القارئَ العربي بأهميته.

هذا الكتابُ تعبيرٌ عن خبرة روح تحاكي خبرةَ الأرواح الحرة المشبعة بمكاشفات صوفية، إنه كلوحة يرتسم فيها سحرُ كلمات عميقة، المُضمَرُ فيها أعمقُ دلالةً من الظاهر، والخفيُّ فيها أعمقُ غوايةً من الجليّ، والجذوةُ فيها أعمقُ حرارةً من اللّهب.

لم يركّز شلاير على نقض أدلّة العقل في مواجهة الدين، وإنما اجترح طريقاً يحاكي لغةَ الشعراء، ويستوحي مخيّلةَ الفنانين، لاكتشافِ جوهر الدين وتفسيرِ وظيفتِه. كان يهمُّه التوغلُ إلى مديات عميقة في الذات البشرية، وتحليلُ طبيعة الحزن والألم واللامعنى الذي يُشقيها، وما الذي يمكن أنْ يقدّمه الدينُ لها. كان يبحث عن ذلك الدين الذي يشفي الروحَ من أمراضها، وليس الدين الذي يُمرِض الروح، لأن «أهم ما في الدين هو تعدديته في الفهم، وكراهيته للاستبداد الذي يجمّد كل ما لا يتفق معه، ويحجّره ظناً منه بأنه بذلك يحافظ على وجوده. التعدّد هو جوهر الدين وكنهه... لا يوجد شيء أكثر مناقضة للدين من ذلك المقوّض لقابليته لتعدد أشكال فهمه».





